الآباء والبنون [٥١]

تكريما لذكرى
فيساريون بيلينسكي

١

–هل ترى شيئا يا بيوتر ؟ – سأل السيد خادمه الشاب ذا الوجنتين الممتلئتين والذقن المكسو بزغب يميــــل الى البياض والعينين الصغيرتين الذاويتين . كل شيء في هذا الخادم : حركاته اللبقة وشعره المدهون وقرط الفيروز المتدلى من احدى اذنيه ، ينم عن انتمائه الى الجيل العصري المتقدم . القى الخادم بنظرة متعالية على طول الطريق واجاب : «لا ارى شيئا ، يا سيدي ، لا شيء» .

كان ذلك في العشرين من مايو ١٨٥٩ . وكان السيد الذي تجاوز الاربعين قد خرج ، حاسر الرأس بمعطــف مغبر وسروال مخطط ذي مربعات ، من خان يقع على احد الطرق الكبيرة . توقف على دكة مدخل الخان الواطئة وكرر السؤال :

– لا شيء ؟

– لا شيء ، – اجابه الخادم ثانية .

تنهد السيد وجلس على المصطبة فلوى ساقيه تحتها واخذ ينظر حواليه وهو غارق في خضم افكاره . وما دام على حاله هذه فلنعرف القارئ عليه .

اسمه نيكولاي بتروفيتش كيرسانوف . ولديه ، على بعد ١٥ كيلومتراً عن الخان ، ضيعة جيدة قيمتها مئتا نسمة كما يقال عادة ، او مساحتها الفا هكتار ، كما يقول هو منذ ان انفصل عن الفلاحين وانشأ «مزرعة» له . كان ابوه جنرالاً روسياً فظاً غليظاً ، ولكنه لا يحقد على احد . قاتل في حرب ١٨١٢ ، وادى خدمته الروتينية طوال حياته . قاد في بادئ الامر لواء ثم فرقة ، وقضى حياته في الاطراف حيث لعب دوراً كبيراً بحكــم رتبته . وولد نيكولاي

بتروفيتش في جنوب روسيا ، شأن اخيه الاكبر بافل الذي سنتحدث عنه فيما بعد . وترعرع حتى الرابعة عشرة من العمر في داره وسط جمع من المربين الرخيصين والياورية الوقحين المتزلفين وغيرهم من العسكريين . وكانت امه ، وهي من آل كوليازين ، واسمها قبل الزواج (اغاثا) * وبعده اغافوكليا كوزمينيشنا كيرسانوفا ، تعتبر في عداد «امهات الجنود» ، وقد اعتادت على ارتداء قلنسوات فاخرة وفساتين حريرية ذات حفيف صاخب . كانت اول من يقترب من الصليب في الكنيسة . وهي كثيرة الكلام ذات صوت جهوري عال . في كل صباح تسمح لاطفالها بان يقبلوا يدها ، وتباركهم عندما يرقدون في الليل . وباختصار فقد كانت تعيش كما يحلو لها . كان على نيكولاي بتروفيتش الذي لم يتميز بالشجاعة ابداً ، بل استحق نعت الجبان ، ان ينخرط في الخدمة العسكرية مثل اخيه بافل : فهو ابن جنرال . ولكن رجله انكسرت في اليوم الذي ورد فيه الاشعار باستدعائه للخدمة . لازم الفراش شهرين ثم ظل طوال حياته «اعرج». يئس منه ابوه فتركه وشأنه للحياة المدنية اصطحبه الى بطرسبورغ حالما بلغ الثامنة عشرة وادخله الجامعة . وفي تلك الاثناء تخرج اخوه وعين ضابطاً في فوج الحرس . عاش الشقيقان معاً في منزل واحد تحت رعاية غير ثقيلة من جانب ابن عم امهما ايليا كوليازين الذي كان يشغل منصباً هاماً . عاد ابوهما الى فرقته والى عقيلته . وصار من حين لآخر يبعث الى ولديه رسائل مكتوبة بحروف عريضة وبخط متقن على ورق رمادي اللون ومذيلة بالكلمات التالية المرسومة «بالتواءات» ورتوش زاهية : «الميجر جنرال بيوتر كيرسانوف». في عام ١٨٣٥ تخرج نيكولاي بتروفيتش من الجامعة بدرجة ماجستير . وفي العام نفسه وصل الجنرال كيرسانوف مع زوجته بطرسبورغ ليقيما فيها بعد ان احيل على التقاعد بسبب اخفـاق احـد الاستعراضات . كان يستأجر دارا قرب متنزه تافريتشيسكي وينتسب الى نادي النبلاء الانجليزي ، ولكنه توفي فجأة بالسكتة الدماغيـة . وسرعان ما لحقت به اغافوكليـا كوزمينيتشنا التي لم تستطع التعود على الحياة المبهمة في العاصمة

حيث نهشتها كآبة عيشة التقاعد . وفي اثناء ذلك وقع نيكولاي بتروفيتش ، منذ ان كان والداه على قيد الحياة ، الامر الذي كدرهما كثيرا ، فـي هوى ابنـة الموظـف بريبولوفينسكي صاحـب المنزل الذي سكنه سابقا . وهي فتاة مليحة ، ومتطورة كمـا يقال : فقد كانـت تطالع مقالات جادة في ركن «العلوم» في المجلات . تزوج نيكولاي بتروفيتش منها حالما انقضت فترة الحداد . فترك وزارة المقاطعات ، حيث كان قد عين بتوصية من ابيه ، وصار يتمتع بالنعيم مع زوجته ماشا في دار ريفية قرب معهد الغابات اولا ، ثم في المدينة بشقة صغيرة جيدة ذات سلم نظيف وغرفة استقبال باردة بعض الشيء ، واخيراً في الضيعة حيث استقر نهائيا ورزق بعد حين بولده اركادي . عاش الزوجان حياة هانئة هادئة دون ان يفترقا ولا مرة تقريبا ، وكانا يطالعان معا ، ويعزفان على البيانو باربع ايد وينشدان الاغاني بصوتين . كانت هي تغرس الازهار وتتفقد حقل الدواجن . وكان هو يدير شؤون المزرعة ويتوجه الى الصيد في احيان نادرة ، بينما يترعرع اركادي وينمو هو الآخر بهناء وهدوء . مرت عشر سنوات كالحلم . وفي عام الف وثمانمائة وسبعة واربعين توفيت زوجة كيرسانوف . فكادت هذه الضربة تقصـم ظهره . وخط الشيب شعره في بضعة اسابيع . فشد العزم على السفر الى الخارج بغية الترويح عن النفس ولو قليلا . . . ولكن عام ثمانية واربعين (٥٢) داهمه . فعاد الى القرية مكرها . وبعد ركود طويل نسبيا شرع بممارسة شؤون الضيعة . وفي عام خمسة وخمسين اصطحب ابنه اركادي الى الجامعة وقضى معه ثلاثة شتاءات في بطرسبورغ دون ان يغادر البيت تقريبا ، وكان يسعى الى معاشرة رفاق ابنه الشبان . وفي الشتاء الرابع لم يستطع ان يزور ابنه ، وها نحن نراه في شهر مايو عام ١٨٥٩ مترهلا ، اشيب الشعر تماما ، وعلى شيء من الاحديداب . انـه ينتظر ابنه الحائز عـلى درجة الماجستير ، شأنه شأن ابيه الذي حاز على هذه الدرجة في سالف الزمان .

انزوى الخادم وراء البوابة بدافع من اللياقة ، او ربما بسبب عدم رغبته في ان يظل عرضة لانظار سيده ، وراح يدخن غليونه . طأطأ نيكولاي بتروفيتش رأسه واخذ يتفحص درجات دكة المدخل البالية : كان فرخ دجاج كبير زاهي اللون يتمشى عليها برزانة

* في الاصل بالفرنسية Agathe ، آثرنا ان نترجم بين هلالين ما ورد في النص الروسي بلغات اخرى — **المترجم** .

ويصفعها صفعات شديدة برجليه الصفراوين الكبيرتين ، والقت قطة ملوثة نظرة غير ودية عليه ، وهي تتناعس على الدرابزون . كانت حرارة الشمس لافحة . ورائحة خبز الجودار الساخن تفوح من ممر الخان الداخلي شبه المعتم . غرق بطلنا نيكولاي بتروفيتش في لجة الاحلام ، حيث كانت تدور في ذهنه بلا كلل كلمات : «ولدي . . . اركاشا * . . . ماجستير . . . » . حاول ان يفكر في شيء ما آخر ،ولكن تلك الكلمات كانت تعود اليه كل مرة . تذكر المرحومة زوجته . . . وهمس مغتما : «لم يطل بها العمر !» . . . هبطت حمامة رمادية بدينة على الطريق واسرعت ترتشف الماء من بركة قرب البئر . صوب نيكولاي بتروفيتش نظراته اليها ، بينما التقطت اذناه طقطقة عجلات تقترب . اندفع الخادم من وراء البوابة وهتف :

— اعتقد انهم وصلوا .

نهض نيكولاي بتروفيتش بلمح البصر وسلط نظراته على طول الطريق . بانت عربة تجرها ثلاثة من جياد البريد ، ولاح من العربة شريط القبعة الطلابية وبدت ملامح الوجه الحبيب . . .

— اركاشا ! اركاشا ! — صاح كيرسانوف وهرع ملوحا بيديه . . . بعد لحظات لامست شفتاه خد ابنه الاسمر المغبر الذي لم ينبت الشعر عليه بعد .

٢

— دعني انفض الغبار يا ابتي ، كيلا الوثك ، — قال اركادي بصوت فتي جهوري مبحوح بعض الشيء بسبب السفر ، وهو يرد بمرح على ملاطفة ابيه .

—لا بأس ، لا تهتم ، — اصر نيكولاي بتروفيتش في ابتسامة متيمة وطبطب مرتين على ياقة معطف ابنه وعلى معطفه هو . — ارنا كيف انت ، — اضاف مبتعداً بعض الشيء ، ثم اتجه على الفور نحو الخان بخطوات متسارعة ، وهو يتمتم : «الى هنا ، الى هنا . عجلوا باخراج الجياد» .

كان نيكولاي بتروفيتش اكثر اضطراباً من ابنه . فقد بدا في

* صيغة التحبيب من اسم اركادي — **المترجم** .

شيء من الحيرة والتهيب . اوقفه اركادي قائلا :

— اسمح لي ، يا ابتي ، ان اقدم اليك صديقي الطيب بازاروف الذي كتبت لك عنه الكثير . لقد تفضل ووافق على ان يحل ضيفا علينا .

استدار نيكولاي بتروفيتش على عجل واقترب من الشاب الفارع القامة الذي هبط توا من العربة الكبيرة في رداء طويل ذي شراريب ، واطبق بشدة على يده الوردية العارية التي مدها له الشاب بتلكؤ ، فبادره نيكولاي بتروفيتش :

— انا مسرور من صميم القلب ، وممتن لرغبتك * في ضيافتنا ، آمل يا . . . اسمح لي بمعرفة اسمك الكريم .

— يفغيني فاسيليفيتش . — اجاب بازاروف بصوت رجولي متراخ ، وازاح ياقة ردائه فبان وجهه كله امام نيكولاي بتروفيتش . وجه نحيل مستطيل بجبهة عريضة وانف مسطح في اعلاه ومدبب في اسفله وعينين واسعتين خضراوين بعض الشيء وفودين متدليين بلون الرمل . وانطبعت ابتسامة هادئة لتزين هذا الوجه الذي ينم عن ذكاء وثقة بالنفس .

— آمل يا عزيزي يفغيني فاسيليفيتش ان لا ينتابك الضجر عندنا ، — واصل نيكولاي بتروفيتش كلامه .

كادت شفتا بازاروف الرقيقتان تنفرجان عن ابتسامة ، ولكنه لم يرد بشيء ، بل اكتفى برفع قبعته . ولم يكن شعره الكث الطويل الاشقر ليحجب النتوءات العريضة على جمجمته الضخمة .

— ما رأيك يا اركادي ؟ — قال نيكولاي بتروفيتش من جديد ملتفتا الى ابنه . — هل نعد الجياد الآن ، ام انكما تريدان ان تأخذا قسطاً من الراحة ؟

— سنستريح في المنزل ، يا ابتي . فليعدوا الجياد .

فقال الاب مؤيدا :

— في الحال . هل انت سامع يا بيوتر ؟ رتب الامر ، وباسرع ما يمكن .

اختفى بيوتر وراء البوابة من جديد . وكان هذا الخادم العصري

* الروس يخاطبون الغرباء بصيغة الجمع احتراما لهم ، ولكننا آثرنا ان نترجم ذلك بصيغة المفرد ، عدا الحالات التي يخاطب فيها الخدم اسيادهم — **المترجم** .

قد اكتفى بانحناءة من بعيد لسيده الابن دون ان يقترب منه ليقبل يده .

— عندي عربة مكشوفة ، ولكن ثلاثة جياد جاهزة لعربتك ايضاً – قال نيكولاي بتروفيتش مشغول البال ، في حين راح اركادي يشرب الماء من ابريق معدني احضرته صاحبة الخان ، وشرع بازاروف يدخن غليونه واقترب من الحوذي الذي فك اربطة الجياد . واضاف نيكولاي بتروفيتش : – غير ان عربتي بمقعدين فقط ، ولا ادري بخصوص صديقك . . .

— سيرتحل في عربتي – قاطعه اركادي بصوت خافت . – لا داعي للرسميات معه . فهو شاب رائع ومتواضع للغاية ، سترى ذلك بنفسك .

اقتاد حوذي نيكولاي بتروفيتش جياده . فقال بازاروف لحوذيه :

— عجّل ، يا ذا اللحية الكثة !

— هل سمعت ، يا ميتيوخا ، كيف نعتك السيد ؟ – انتعش الحوذي الآخر ويداه مدسوستان في الشقين الخلفيين لفروته ، – لحية كثة بالضبط .

اكتفى ميتيوخا بهزة من رأسه ، وسحب عنان فرس المقدمة التي تصببت عرقا .

— هيا ، هيا ، يا شباب ، ساعدونا وستحصلون على اكرامية ، – هتف نيكولاي بتروفيتش .

اعدت الجياد في بضع دقائق . فاستقل الاب والابن العربة المكشوفة . وقعد بيوتر بجانب الحوذي ، بينما قفز بازاروف الى العربة الكبيرة ومال برأسه على الوسادة الجلدية ، وتحركت المركبتان .

٣

— حصلت على الماجستير وعدت الى الاهل اخيرا – قال نيكولاي بتروفيتش وهو يلامس كتف اركادي تارة وركبته تارة اخرى .

— كيف حال عمي ؟ هل هو بصحة جيدة ؟ – سأل اركادي معجلا في تحويل الكلام من حالة الانفعال الى الامور العادية ، بالرغم

من الفرحة الصادقة ، والطفولية تقريبا ، التي تملأ فؤاده .

— بصحة جيدة . كان عازما على الخروج معي لاستقبالك ، ولكنه غير رأيه لسبب ما .

— وهل انتظرتني طويلا ؟

— خمس ساعات تقريبا .

— ما اطيبك يا ابتي !

استدار اركادي بسرعة نحو ابيه وطبع على خده قبلة رنانة . فضحك نيكولاي بتروفيتش بهدوء . ثم قال :

— جهزت لك حصانا رائعا . وستتأكد من ذلك بنفسك . ثم ان حدران غرفتك مزينة بالورق .

— وهل هناك غرفة لبازاروف ؟

— سنعد غرفة له هو الآخر .

— ارجوك يا ابتي ، اعتن به . فانا عاجز عن التعبير عن مدى اعتزازي بصداقته .

— يبدو انك تعرفت عليه من مدة قريبة ، أليس كذلك ؟

— بلى .

— ولذا لم اره في الشتاء الماضي . ماذا يدرس ؟

— شغله الشاغل هو العلوم الطبيعية . ولكنه ملم بكل شيء ويستعد لاجتياز امتحانات الطب .

— اها ، انه في الكلية الطبية – قال نيكولاي بتروفيتش ولزم الصمت برهة ، ثم سأل من بيوتر مشيرا بيده : – هؤلاء الراكبون فلاحونا ، أليس كذلك ؟

التفت بيوتر نحو الجهة التي اشار اليها سيده . كانت عدة عربات تجرها خيول مفكوكة الالجمة تنهب الدرب الريفي الضيق . وفي كل عربة فلاح او فلاحان بفروات مفتوحة الازرار .

— بالضبط ، يا سيدي ، – اجاب بيوتر .

— الى اين يقصدون ؟

— الى المدينة في اغلب الظن . الى الحانة – اضاف بيوتر بازدراء ، ومال قليلا نحو الحوذي وكأنما يأمل ان يجد فيه مؤيدا لرأيه . الا ان ذاك لم ينبس ببنت شفة . فهو شخص محافظ لا يؤمن بالآراء العصرية . فواصل نيكولاي بتروفيتش كلامه مخاطبا ابنه :

— ازدادت مشاغلي في العام الحالي بسبب الفلاحين . انهم لا يدفعون الجزية . فماذا افعل لهم ؟

— وهل انت مرتاح من عمالك الاجراء ؟

فاجاب نيكولاي بتروفيتش مكرها :

— اجل . ولكن المصيبة انهم يندفعون بالتحريض . ثم انه ليس لديهم حماس حقيقي في العمل . وهم يتلفون عدة الخيل . غير انهم حرثوا على نحو لا بأس به . كل شيء سيكون على ما يرام . ولكن هل تشغل شؤون الضيعة بالك الآن ؟

— المصيبة ان الظل معدوم لديكم — لاحظ اركادي دون ان يجيب على السؤال الأخير . فقال نيكولاي بتروفيتش :

— علقت ستارة كبيرة على الشرفة من جهة الشمال ، واصبح بالامكان تناول الغداء في الهواء الطلق .

— سيكون ذلك اشبه بالفلاّت الصيفية . . . ولكـــــن لا يهم ، تلك امور تافهة . فما اروع الهواء المنعش هنا ! وما ازكى الروائح ! يخيل اليّ ان الروائح الفواحة في هذه البقاع ليس لها مثيل في اي مكان في العالم . ثم ما اجمل السماء . . .

سكت اركادي فجأة . القى بنظرة منحرفة الى الوراء ، ثم لزم الصمت . فقال نيكولاي بتروفيتش :

— بالطبع . ولدت في هذه الانحاء ولا بد ان يبدو لك كل شيء هنا في صبغة خاصة . . .

— كلا ، يا ابتى ، لا فارق في ذلك مهما كان المكان الذي يولد فيه المرء .

— ولكن . . .

— كلا ، لا فارق بتاتا .

القى نيكولاي بتروفيتش نظرة جانبية على ابنه . ولم يستأنف الحديث بينهما الا بعد ان قطعت العربة زهاء نصف كيلومتر ، حيث بدأ نيكولاي بتروفيتش كلامه :

لا اتذكر كتبت لك ام لا ؟ توفيت مربيتك القديمـــة يغوروفنا .

— حقا ؟ يا للعجوز المسكينة ! وهل بروكوفيتش على قيد الحياة ؟

— [illegible] ، [illegible] . فهو على عادتـه في

الدمدمـــة . وعلى العموم لن تجـد تغيرات كبيرة في مارينو .

— وهل الوكيل باق هو نفسه ؟

— وكيل المزرعة هو الشخص الوحيد الذي استبدلتـه . قررت ان لا احتفظ بعد الآن بالاقنان السابقين المعتوقين او ، على الاقل ، ان لا اكلفهم باية مهمات ذات مسؤولية — وعند ذاك اشار اركادي بغمزة من عينه الى بيوتر ، فقال نيكولاي بتروفيتش بصوت يكاد يشبه الهمس : — (انه معتوق فعلا) * ولكنه وصيفي المقرب . ولدي الآن وكيل من المدينة . شخص فطين على مـــا يبدو . وقد خصصت له مائتين وخمسين روبلا في العام . — ثم اضاف نيكولاي بتروفيتش قائلا ، وهو يمسح جبهته وحاجبيه بيده ، الامر الذي يدل دوما على استحيائه الداخلي — اخبرتك الآن بانك لن تجد تغيرات في مارينو . . . والحال فليس الامر كذلك تماما . . . وارى من واجبي تنبيهك مسبقا ، مع ان . . .

تلعثم في الحديث لحظة ثم واصل كلامه بالفرنسية :

— مع ان الاخلاقي الصارم قد يعتبر صراحتي هذه في غير محلها . ولكن لا يمكن اخفاء ذلك ، هذا اولا ، وثانيا انت عارف بان لدي على الدوام مبادئ خاصة بشأن موقف الاب من ابنه . وعلى كل حال لك الحق طبعا في ان تلومني . ففي مثل سني هذه . . . وباختصار ، اقصد . . . اقصد تلك الفتاة التي ربمـــا سمعت عنها . . .

— فينيتشكا ؟ — سأل اركادي بلا تكلف .

احمر وجه نيكولاي بتروفيتش خجلا .

— ارجوك ، لا تذكر اسمها بصوت عال . . . اجل ، هي . . . انها تعيش الآن عندنا . افردت لها مكانا في الدار . . . كانت هناك غرفتان صغيرتان . وبالمناسبة فذلك امر يمكن تغييره .

— ما الداعى لتغييره ، يا ابتى ؟

— صديقك سيحل ضيفا علينا . . . ومن المخجل . . .

— لا تقلق ، رجاء ، بخصوص بازاروف ، فهو انسان لا يهتم بهذه الاعتبارات .

— انا قلق بخصوصـــك ، انت ، اذن ، — قال نيكولاي بتروفيتش ثم اضاف : — بناية الجناح رديئة ، يا للمصيبة .

* في الاصل بالفرنسية Il est libre, en effet .

فعاجله اركادي قائلا :

– عفوا ، يبدو وكأنك تعتذر ، اتق الله يا ابتي .

– بالطبع ، عليّ ان اتقي الله – اجاب نيكولاي بتروفيتش وهو يزداد احمرارا .

– كفاك ، يا ابتي ، كفاك ، ارجوك ! – ابتسم له اركادي برقة وحنان . «ممّ يعتـــذر ؟» – فكر في دخيلـــة نفسه وامتلأت جوانحه بشعور من الرقة المتسامحة ازاء والده الوديع الطيب ، بشعور يشوبه احساس خفي بالتفوق . – دعك من هذا . ارجوك – كرر من جديد وهو يستمتع عفويا بادراكه اهمية تطوره وحريته .

تطلع اليه نيكولاي بتروفيتش من بين اصابع يده التي ظل يمسح بها جبهته ، واحس بوخزة في القلب . . . ولكنه اناح باللائمة على نفسه في الحال . ثم قال بعد صمت طويل :

– ها هي حقولنا .

فقال اركادي :

– يبدو لي ان تلك الغابة ، في الامام ، غابتنـــا ، أليس كذلك ؟

– بلى ، غابتنا . ولكنني بعتها . وسوف تقتلع اشجارها في العام الحالي .

– لماذا بعتها ؟

– كنت بحاجة الى نقود ، ثم ان هذه الاراضي ستحال الى الفلاحين .

– اولئك الذين لا يدفعون لك الجزية ؟

– هذا امر يعود لهم . اعتقد انهم سيدفعونها في وقت ما .

– اسفي على الغابة – قال اركادي واخذ يتطلع الى ما حواليه .

الاماكن التي اجتازوها لا تستحق نعت المناظر الخلابـــة . فالحقول تمتد بعيدا حتى الافق ، وهي ترتفع قليلا تارة وتنخفض تارة اخرى ، وفي بعض الجهات لاحت غابات غير كبيرة ، وكانت المنخفضات المطرزة بشجيرات واطئة متباعدة ، تتلوى فتعيد الى الاذهان صورها المرسومة على الخرائط القديمة المتبقية من عهد يكاتيرينا (٥٣) . وصادفتهم نهيرات ذات ضفاف متآكلة ، وبرك صغيرة عليها سدود متداعية ، وقرى فيها اكواخ واطئة تحت

سقوف قاتمة مهدمة حتى منتصفها في الغالب ، ومستودعات للدراس مالت اركانها بجدرانها المجدولة من العيدان والاغصان وبواباتها المخلوعة المتثائبة قرب الاجران الخاوية ، وكنائس قرميديـــة تساقط طلاء جدرانها في بعض الاماكن ، واخرى خشبية ذات صلبان مائلة ومقابر مدمرة . اخذ الالم يحز في فؤاد اركادي ، حتى لكأن ما رآه قد لاح امامه عمدا . فكل الفلاحين الذين صادفهم كانو مشعثين على خيول هزيلة . وكانت اشجار الصفصاف تنتصب على جانبي الطريق بلحائها الممزق واغصانها المكسرة ، كالمتسولين في الاسمال . وكانت بقرات معروقة متحشفة ، كأنها منهوشـــة حتى العظام ، تقضم العشب بنهم في المنخفضات . وبدت هذه البقرات العجاف وكأنما تخلصت توا من براثن رهيبة فتاكة . فاثار منظرها المزرى في وضح النهار الربيعي شبحا ابيض ملفعا بالزوابـــع الجليدية والصقيع والثلوج ، شبح الشتاء اللانهائي الخالي من المسرات . وفكر اركادي : «كلا ، ليست غنية هذه البقاع . فهي لا تدهش المرء بثروتها ولا بالمواظبة على العمل . كلا ، لا يجوز ان تبقى على هذه الحال . ينبغي اجراء تحويلات . .. ولكن كيف يمكن تحقيقها ؟ ومن اين نبدأ ؟ . .»

هكذا فكر اركادي . . . في حين كان الربيع في اوجه . كل شيء حواليه ، من اشجار وشجيرات واعشاب ، في خضرة ذهبية يانعة ، وكل شيء يتموج ويلمع فسيحاً رقيقاً في انفاس النسيم الدافئ الهادئة . وفي كل مكان تنساب اصوات القبرات الرنانة بلا انقطاع . والزقازيق تارة تنعق محومة فوق المروج المنخفضة وتارة تتراكض صامتة من كومة ترابية الى اخرى ، وغربان القيظ تتمشى سوداء جميلة فى خضرة سنابل الربيع الغضة الواطئة . كانت هذه الغربان تختفي في الجودار الذي ابيضت سنابله قليلا ، ثم تلوح رؤوسها في امواج السنابل الدخانية اللون بين الفينة والفينة . اطال اركادي التطلع حتى تراخت تأملاته بالتدريج واخذت تختفي . . . خلع معطفه والقى على ابيه نظرة مرحة من محيا فتي يافـــع جعلت الاب يعانقه من جديد ، ويقول :

– لم يبق الا القليل . فما ان نتسلق هذه الهضبة حتى يلوح المنزل للانظار . وسنعيش معك ، يا اركاشا ، برغد وهناء . سوف تساعدني في امور الضيعة اذا كان ذلك لا يسبب لك ضجرا .

ينبغي لنا الآن ان نتقارب على نحو اوثق وان نتعرف على بعضنا البعض بصورة افضل ، أليس كذلك ؟

فاجاب اركادي :

– بالطبع . ولكن ما اروع النهار اليوم !

– خصيصا لمجيئك يا حبيبي . فالربيع يختال ضاحكا . ولكنني اقول مع بوشكين في ملحمة «يفغيني اونيغين» :

ايها الربيع ، يا فصل الغرام !
ما اشد حزني لمجيئك .
فاي . . . (٥٤)

– اركادي ! – تعالى من العربة الثانية صوت بازاروف – ابعث لي ثقابا ، فليس لدي ما اشعل به الغليون .

لاذ نيكولاي بتروفيتش باذيال الصمت ، بينما كان اركادي قد استعد ليستمع اليه بشيء من الاعجاب وبشيء من المشاطرة ولكنه اخرج من جيبه على عجل علبة ثقاب فضية وبعثها مع بيوتر الى بازاروف فصاح هذا من جديد :

– هل تريد سيجارا ؟

– اجل – اجاب اركادي .

عاد بيوتر الى العربة وسلمه مع علبة الثقاب سيجارا قاتماً غليظاً دخنه اركادي في الحال وصار ينفث حواليه دخان التبـــغ العتيق ، ففاحت رائحة حادة لاذعة جعلت نيكولاي بتروفيتش الذي لم يجرب التدخين ولا مرة في حياته يشيح بوجهه عفويا ، ولكن بصورة غير ملحوظة كيلا يغيظ ابنه .

بعد ربع ساعة توقفت العربتان امام مدخل دار خشبية جديدة مطلية بدهان رمادي وذات سطح حديدي احمر اللون . كانت تلك هي ضيعة مارينو ، او دارة الاعزب ، كما يسميها الفلاحون .

٤

لم يهرع حشد كبير من الخدم الى المدخل لاستقبال الاسياد . فقد ظهرت بنت في الثانية عشرة من العمر تقريباً ، وخرج على اثرها من الدار فتى شبيه كل الشبه ببيوتر في سترة خدم رمادية ذات

ازرار معدنيـــة كبيرة بيضاء . انـــه وصيف بافل بتروفيتش كيرسانوف . فتح باب العربة المكشوفة صامتاً ، ثم حل ازرار ستارة العربة الاخرى . اجتاز نيكولاي بتروفيتش وابنه وبازاروف قاعة معتمة تكاد تكون خالية الا من وجه امرأة شابة لاح للحظة من خلال بابها ، ودخلوا غرفة الاستقبال المؤثثة على احدث طراز .

– ها نحن في الدار ، – قال نيكولاي بتروفيتش وخلع قبعته وراح ينفض شعره – اهم شيء الآن هو تناول طعام العشاء ثم الاستجمام .

– حقاً ، حبذا لو تناولنا الطعام – عقب بازاروف وهو يعدّل من قامته ، ثم جلس على الاريكة .

–اجل ، اجل ، قدموا طعام العشاء ، وباسرع ما يمكن . – طقطق نيكولاي بتروفيتش بقدميه بدون اي سبب ظاهر – ها هو بروكوفيتش بالمناسبة .

دخل رجل نحيف اسمر في حوالي الستين ، اشيب الشعر في بزة وصيف بنية اللون ذات ازرار معدنية وعلى عنقه منديل وردي . ابتسم ابتسامة عريضة وقبل يد اركادي ثم انحنى للضيف وتراجع نحو الباب حيث اشبك يديه وراء ظهره .

فقال نيكولاي بتروفيتش :

– ها هو ولدي قد وصل اخيراً . . . فكيف يبدو في نظرك يا بروكوفيتش ؟

– في احسن حال يا سيدي – اجاب العجوز وكشر من جديد مبتسماً ، لكنه قطب حاجبيه الكثيفين في الحال وقال بمهابة : – هل تأمرون باعداد المائدة ؟

– اجل ، اجل من فضلك . ولكن هلا توجهت ، يا يفغيني فاسيليفيتش ، الى غرفتك في بادىء الامر ؟

– كلا ، متشكر ، لا داعى لذلك . – قال بازاروف ثم اضاف وهو يخلع رداءه : يكفي ان تأمر بنقـــل حقيبتي اليها مع هذا اللباس .

– طيب . يا بروكوفيتش خذ معطف السيـــد . (التقط بروكوفيتش معطف بازاروف بكلتا يديه ، في شيء من الاستغراب ، ورفعه فوق رأسه عاليا وانصرف على اطراف اصابعه) . وانت ، يا اركادي ، هل ستذهب الى غرفتك للحظة ؟

– اجل ، ينبغي ان اتنظف – اجاب اركادي وكاد يتجه الى الباب لو لا ان دخل غرفة الاستقبال في تلك اللحظة رجل متوسط القامة في بدلة انجليزية قاتمة وربطة عنق قصيرة حسب الموضة وجزمة واطئة لماعة . انه بافل بتروفيتش كيرسانوف . مظهره يدل على انه في حوالي الخامسة والاربعين : شعره الاشيب القصير يبعث لمعا قاتما كالفضة الجديدة ، ووجهه المتجهم الخالي من الغضون والمعتدل التقاسيم والصافي كل الصفاء ، كما لو نحت بازميل خفيف دقيق ، يحتفظ بآثار وسامة رائعـــة . وعيناه السوداوان الوضاءتان المستطيلتان بعض الشيء جميلتان على الخصوص . كانت ملامح عم اركادي الرشيق الاصيل الارومة تـ احتفظت باعتدال قوام الفتوة والتطلع الى الاعالي بعيداً عـــن الارض ، ذلك التطلع الذي يختفي بأغلبه في سن الثلاثين .

اخرج بافل بتروفيتش من جيب سرواله يده الجميلة ذات الاظافر الوردية الطويلة ، وقد بدت اكثر جمالا بتأثير الردن الابيض الناصع كالثلج والمشدود بابزيم عليه فص كبير واحد من حجر عين الشمس ، فمدها الى ابن اخيه . وبعد ان (صافحه) * على الطريقة الاوروبية قبله ثلاث قبلات على الطريقة الروسية ، اي انه لامس خديه ثلاث مرات بشاربيه الفواحين ، وقال : «اهلاً وسهلاً» .

عرّف نيكولاي بتروفيتش بازاروف عليه ، فحنى بافـــل بتروفيتش قده اللدن قليلا وانفرجت شفتاه عن ابتسامة خفيفة ، ولكنه لم يمد له يده ، بل دسها في جيبه مجددا .

– طال الانتظار حتى ظننت انكم لن تصلوا اليوم – قال بصوت وديع وهو يتمايل بلطف ويهز كتفيه قليلاً ويكشف عن اسنانه الرائعة البيضاء – فهل حدث شيء في الطريق ؟

– لم يحدث شيء – اجاب اركادي – سوى اننا تباطأنـــا قليلاً . ولذلك فنحن جياع كالذئاب . استعجل بروكوفيتش ، يا ابتي ، اما انا فسأعود في الحال .

– تمهل ، انا ذاهب معك – هتف بازاروف وقفز من الاريكة فجأة . وخرج مع اركادي . فسأل بافل بتروفيتش :

* في الاصل بالانجليزية « shake hands »

– من هذا ؟

– صديق اركاشا ، وهو شخص ذكي جداً ، كما يقول .

– سيبقى في ضيافتنا ؟

– اجل .

– الطويل الشعر هذا ؟

– نعم ، اجل .

نقر بافل بتروفيتش باظافره على الطاولة ثم قال :

– يخيل اليّ ان اركادي (اصبح اقل تكلفاً) * – ثم اردف قائلاً : – انا مسرور لعودته .

لم يسهبوا في الكلام اثناء العشاء . وخصوصاً بازاروف الذي لم يقل شيئاً في الواقـــع ، ولكنه اكل كثيراً . تحدث نيكولاي بتروفيتش عن حوادث مختلفة من حياته المزرعية ، على حد تعبيره ، وتناول الاجراءات الحكومية المرتقبة ، وتكلم عن اللجان وعن النواب (٥٥) وعن ضرورة اقتناء المكائن وهلمجراً . وكان بافل بتروفيتش يجوب غرفة الطعام متوانيا جيئة وذهاباً (فهو لا يتناول طعام العشاء ابداً) ، ونادراً ما يرتشف جرعة من قدحه المملوء بنبيذ قاتم ، وكان يبدي ، على نحو اندر ، ملاحظة ما ، او على الاصح تند عنه اصوات التعجب من طراز «أها ! هيه !» . ذكر اركادي بعض انباء بطرسبورغ ، ولكنه احس بشيء من عدم الارتياح الذي ينتاب الشاب عادة حينما يكف عن ان يكون طفلا فيعود الى المكان الذي اعتاد الآخرون ان يروه فيه ويعتبروه طفلاً . كان يمطط كلامه دونما داع ويتحاشى ذكر كلمة «ابتي» حتى انه استبدلها مرة بكلمة «الوالد» ونطقها في الواقع بصوت خافت . وصب في قدحه ، بمزيد من عدم التكلف ، قدراً اكبر مما كان يريد ، ثم تجرع النبيذ حتى الثمالة . وما كانت لتحيد عنه عينا بروكوفيتش الذي لم يفعل غير ان راح يعلك شفتيه طوال الوقت . وبعد العشاء تفرقوا في الحال .

– عمك غريب الاطوار بعض الشيء – قال بازاروف لاركادي وهو جالس بردائه البيتي قرب سريره يمتص انفاساً من غليونه

* في الاصل بالفرنسية « s'est dégourdi » .

القصير . – منتهى التأنق في الريف ، يا للغرابة ! ثم ان اظافره ، اظافره تستحق ان ترسل الى المعرض !

فاجاب اركادي :

– انت لا تدري . كان في زمانه ليثاً . سأقص عليك قصته في وقت آخر . كان في منتهى الجمال ، وكان محبوب النساء .

– هكذا اذن ! يعني انه لا يزال على عاداته القديمة . ولكن لا احد هنا يمكن اغواؤه مع الاسف . لاحظت ان ياقته منشاة على نحو مدهش ، كما لو كانت من حجر ، وذقنه حليق بكل عناية . أليس ذلك ، يا اركادي ، مثاراً للضحك ؟

– ربما . ولكنه رجل طيب حقاً .

– انه ظاهرة أكل الدهر عليها وشرب . اما ابوك فهو انسان رائع بالفعل . عبثاً يتلو الاشعار ، ومن المستبعد انه يفهم شيئاً في امور المزرعة ، ولكنه طيب القلب .

– والدي انسان من التبر الخالص .

– هل لاحظت انه خجل ؟

هز اركادي رأسه بالايجاب وكأنما لم يعتوره هو نفسه الخجل . فواصل بازاروف كلامه :

– عجيب امرهم هؤلاء الرومانسيين الكهول ! انهم يرهقون جهازهم العصبي الى حد الانفعال . . .. وعند ذاك يختل توازنهم . ولكن الى اللقاء ! باب غرفتي دون قفل . وفيها غسال انجليزي . هذا امر يستحق الثناء . فالغسالات الانجليزية تعني التقدم !

انصرف بازاروف . واجتاح اركادي شعور بالفرحة . فالنوم لذيذ في المنزل الحبيب ، في السرير المعتاد ، تحت غطاء خاطته يدان حبيبتان ، ربما هما يدا المربية ، يدان طيبتان حنونان لا تعرفان الكلل . تذكر اركادي مربيته يغوروفنا فتنهد وتمنى لها النعيم في الآخرة . . . ولكنه لم يبتهل من اجل نفسه .

سرعان ما اكتنفه الكرى هو وبازاروف . بيد ان الآخرين في الدار لم يراودهم النعاس امداً طويلاً . كانت عودة الابن قد هيجت مشاعر نيكولاي بتروفيتش فاضطجع على سريره دون ان يطفيء الشموع واطال التفكير مسندا رأسه بيده . اما اخوه فقد تجاوز منتصف الليل بوقت طويل وهو جالس على مقعد وثير واسع في مكتبه امام المدفأة الحائطية التي كان الفحم الحجري يستعر فيها

بخفوت . لم يخلع بافل بتروفيتش ملابسه ، سوى انه استبدل جزمته الواطئة اللماعة بصندل صيني احمر مكشوف المؤخرة . امسك بآخر عدد من (غالينياني) * ، ولكنه لم يقرأه كان يحدق في المدفأة حيث يرتعش اللهب الازرق مندلعاً تارة وخافتاً تارة اخرى . . .

الله يعلم اين تحوم افكاره المركزة ، ولكنها لم تكن تجوب الماضي وحده : فقد كانت تقاطيع وجهه عابسة مكفهرة ، الامر الذي لا يحدث عندما ينشغل بال المرء بالذكريات وحدها . اما في الغرفة الخلفية الصغيرة فقد جلست على صندوق كبير امرأة شابة ، هي فينيتشكا ، في بلوزة زرقاء ومنديل ابيض يغطى شعرها الفاحم . كانت تارة تتسمع ، وتارة تغفو ، وتارة تنظر الى الباب المنفرج عن سرير صغير فيه طفل نائم تتهادى انفاسه خفيفة رتيبة .

٥

في صباح اليوم التالي استيقظ بازاروف قبل الآخرين وخرج من الدار . تطلع حواليه وفكر في نفسه : «أها ! هذه الاماكن يعوزها الجمال» . عندما فصل نيكولاي بتروفيتش ارضه من اراضي فلاحيه اضطر الى انشاء الضيعة الجديدة على بقعة مستوية عارية تماماً مساحتها زهاء اربعة هكتارات ، فبنى داراً ومنشآت للخدمة ومزرعة ، وغرس بستانا وحفر بركة وبئرين ، الا ان الشجيرات الغضة لم تزدهر بالشكل اللازم ، وتجمعت في البركة مياه قليلة جداً ، وكان طعم ماء البئرين مالحاً بعض الشيء . ولم تنمُ كما يجب الا تعريشة الاستراحة المكونة من الليلاك والاقاصيا ، حيث كانوا يحتسون الشاي ويتناولون طعام الغداء احياناً . جاب بازاروف في بضع دقائق جميع مماشى البستان ومر بزريبة الماشية والاسطبل وصادف اثنين من ابناء الخدم فتحدث معهما واخذهما على

* في الاصل Galignani . وهي جريدة يومية لبرالية اسسها جوفاني غالينياني وصدرت بالانجليزية في باريس اعتبارا من عام ١٨١٤ – **المترجم** .



الفور الى المستنقع الصغير الواقع على بعد كيلومتر عن الضيعة بغية تصيد الضفادع .

فسأله احد الولدين :

– ما حاجتك الى الضفادع يا سيدي ؟

فاجاب بازاروف الذي يجيد على نحو خاص كسب ثقة الناس الادنى منه رغم استهانته بهم وعدم تسامحه معهم اطلاقاً :

– انني اشرّح الضفدعة واراقب ما يجري في داخلها ، وبما اننا ، انا وانت ، نفس الضفادع بفارق واحد هو اننا نسير على رجلين اثنتين فانني سأعرف ما يجري في داخلنا ايضاً .

– وما فائدة ذلك ؟

– كيلا اخطئ عندما تمرض انت واضطر انا لمعالجتك .

– انت دختور ؟

– نعم .

– هل انت سامع يا فاسكا ؟ السيد يقول اننا والضفادع شيء واحد . يا للغرابة !

– انا اخاف منها ، من الضفادع – قال فاسكا ، وهو طفل في حوالي السابعة حافي القدمين بقميصه القوزاقي الرمادي ذي الياقة المنتصبة وشعره الابيض كالكتان .

– لماذا تخاف منها ؟ فهل تعض ؟

– هيا ، ادخلا الماء ايها الفيلسوفان !

في تلك الاثناء استيقظ نيكولاي بتروفيتش هو الآخر وتوجه الى اركادي فوجده مرتدياً ملابسه . خرج الاب وابنه الى الشرفة المحجوبة بالستارة . وعلى المائدة قرب الدرابزون كان السماور يغلي بين باقات كبيرة من الليلاك . حضرت نفس البنت التي كانت بالامس اول من استقبل القادمين في المدخل وقالت بصوت رفيع :

– فينيتشكا متوعكة ، ولا تستطيع الحضور . وطلبت ان استفسر هل يروق لكم ان تصبوا الشاي بانفسكم ام يجب ارسال دونياشا لتصبه ؟

– سأصبه بنفسي ، بنفسي – اجاب نيكولاي بتروفيتش على عجل . – اى شاي تحب ، يا اركادي ، بالقشدة ام بالليمون ؟

– بالقشدة – اجاب اركادي ثم قال متسائلا بعد لحظة صمت : – يا ابتي . . .

القى نيكولاي بتروفيتش نظرة حائرة على ابنه وقال :

– ماذا ؟

غض اركادي بصره وطفق يتكلم :

– اعذرني ، يا ابتي ، اذا بدا لك سؤالي في غير محله . ولكن صراحتك بالامس تحملني على ان اكون صريحا . . . افلا تزعل مني ؟ . .

– تكلم .

– انت تجعلني اتجاسر على ان اسألك . . . أليس السبب في عدم حضور فينيا . . . أليس السبب في عدم حضورها لتصب الشاي هو وجودي انا ؟

اشاح نيكولاي بتروفيتش بوجهه قليلا ، ثم قال اخيراً :

– ربما انها تتصور . . . انها تخجل . . .

داهم اركادي اباه بنظرة سريعة وقال :

– لا داعي للخجل . فانت تعرف ، اولاً ، طراز تفكيري (كان اركادي مسروراً كل السرور لتلفظ هذه الكلمات) . وثانياً – هل اريد انا ، يا ترى ، ان اضيق على حياتك وعلى عاداتك قيد شعرة ؟ ثم انني واثق من انك لا يمكن ان تختار السوء . فطالما سمحت لها بان تعيش معك تحت سقف واحد فذلك يعني انها تستحقه . وعلى كل حال فالابن ليس بحاكم على ابيه ، وخصوصاً اذا كان الابن مثلي واذا كان الاب مثلك انت الذي لم تضيق على حريتي قيد انملة .

كان صوت اركادي يرتجف في بادئ الامر . فقد احس بشعور من التسامح والنبل ، ولكنه ادرك في الوقت ذاته بانه يتلو على ابيه ما يشبه الموعظة . الا ان صوت المرء يؤثر عليه تأثيراً شديداً . ولذا تلفظ اركادي الكلمات الاخيرة بصلابة ، بل وعلى نحو مؤثر . فقال نيكولاي بتروفيتش بصوت خافت ، وراحت اصابعه من جديد تفرك حاجبيه وجبهته :

– شكراً لك ، يا اركاشا . تصوراتك صائبة حقا . فلو لم تكن هذه البنية جديرة ، طبعا . . . ذلك ليس نزوة عابرة . وليس من السهل عليّ ان اتكلم معك بهذا الخصوص ، ولكنك تفهم جيداً

ان من الصعب عليها ان تأتي بحضورك ، وخصوصا في اليوم الاول من وصولك .

– اذن فسأذهب اليها بنفسي – هتف اركادي بنفحة جديدة من المشاعر النبيلة وقفز من كرسيه – وسوف ابين لها ان لا داعي للخجل مني .

نهض نيكولاي بتروفيتش هو الآخر وطفق يقول :

– اركادي ، ارجوك . . . لا تفعل ذلك . . . فانا لم . . .

بيد ان اركادي لم يسمعه ، فقد ترك الشرفة راكضاً . لاحقه نيكولاي بتروفيتش بنظراته ثم هوى على الكرسي خجلا . خفق قلبه . . . ومن الصعب التأكيد بانه تصور في تلك اللحظة غرابة العلاقات المرتقبة حتماً بينه وبين ابنه ، او انه ادرك بان اركادي ربما قدم له المزيد من الاحترام لو انه لم يتناول هذه القضية بتاتاً ، او انه لام نفسه على ضعفها وخورها . كانت جميع هذه المشاعر تعتمل في دخيلته ، ولكن بشكل احاسيس تكاد تكون غامضة ، بينما الاحمرار لا يزايل وجهه ، ولا يزال قلبه يخفق .

تهادت خطوات مستعجلة . دخل اركادي الشرفة تعلو وجهه مسحة من الطيبة والحنان وهتف منتصراً :

– لقد تعارفنا ، يا والدي ! وهي متوعكة حقاً اليوم وسوف تأتي فيما بعد . ولكن لمَ لمْ تخبرني بان لدي اخاً ؟ لكنت قد قبّلته مساء امس كما قبلته الآن .

اراد نيكولاي بتروفيتش ان يقول شيئاً وان ينهض ويفتح يديه ليحتضن ابنه . . . ولكن اركادي اندفع اليه يعانقه .

– ما هذا ؟ هل تتعانقان من جديد ؟ – دوى وراءهما صوت بافل بتروفيتش .

فرح الاب والابن بقدر واحد لظهوره في هذه اللحظة . فهناك حالات مؤثرة بود المرء ان يتخلص منها مع ذلك باسرع ما يمكن . فقال نيكولاي بتروفيتش مرحاً :

– ما الذي يثير دهشتك ؟ لقد طال انتظاري لاركاشا . . . ولم اشبع من التطلع اليه نهار امس .

فقال بافل بتروفيتش :

– لست مندهشاً اطلاقاً . فانا نفسي لا امانع في معانقته .

اقترب اركادي من عمه واحس من جديد بلمسات شاربيه

الفواحين على خديه . جلس بافل بتروفيتش الى المائدة . وكان يرتدي بدلة صباحية انيقة على النمط الانجليزي ، وطربوشاً صغيراً يزهو على رأسه . كان هذا الطربوش وربطة العنق المعقودة بلا اعتناء ينمان عن طلاقة الحياة الريفية . بيد ان الياقة المنتصبة لقميصه الملون ، كما يتطلب زي الصباح ، قد انغرزت بلا رحمة ، كالمعتاد ، في ذقنه الحليق . وسأل العم من ابن اخيه :

– اين صديقك الجديد ؟

– خرج . فهو يستيقظ مبكراً ويتجول عادة . المهم ان لا تلتفتوا اليه . فهو لا يحب الرسميات .

– اجل ، لاحظت ذلك . وهل سيبقى عندنا طويلاً ؟ – سأل بافل بتروفيتش وبدأ يضع شيئاً من الزبدة على قطعة خبز دون استعجال .

– حسب الظروف . فقد عرج علينا في طريقه الى ابيه .

– اين يقيم ابوه ؟

– في مقاطعتنا ، على بعد ثمانين كيلومتراً من هنا تقريباً . لديه هناك ضيعة غير كبيرة . وقد خدم في السابق طبيباً في احد الافواج .

– أها . . . ذلك ، اذن ، ما جعلني اسائل نفسي اين سمعت بهذا اللقب : بازاروف ؟ . . يا نيكولاي ، أتذكر ان طبيباً لقبه بازاروف كان يخدم في فرقة ابينا ، أليس كذلك ؟

– اجل ، اظن . . .

– بالضبط . يعني ان ذاك الطبيب هو ابوه ، احم ! – مسد بافل بتروفيتش شاربيه ثم سأل ممططاً كلامه : – ولكن من هو السيد بازاروف نفسه يا ترى ؟

– تسأل من هو بازاروف ؟ ! – قال اركادي وانفرجت شفتاه عن ابتسامة خبيثة – هل تريد ، يا عمي العزيز ، ان اخبرك من هو بازاروف ؟

– اعمل معروفاً يا ابن اخي .

– انه نهلستي .

– ماذا ؟ – سأل نيكولاي بتروفيتش ، بينما رفع بافل بتروفيتش سكينه وعلى طرفها الزبدة وظل على هذه الحال دون حراك . فكرر اركادي قائلا :

– نهلستي .
فقال نيكولاي بتروفيتش :
– مصطلح نهلستي ، على ما اظن ، مشتق من الكلمة اللاتينية نيهيل «nihil» ، اي **لاشيء** ، **عدم** . وبالتالي فان هذه الكلمة تعني انساناً يرفض كل شيء ، أليس كذلك ؟
– الاصح : لا يحترم شيئاً – عقب بافل بتروفيتش وتابع وضع الزبدة على الخبز ، فقال اركادي :
– انه الانسان الذي يعالج كل شيء من وجهة نظر انتقادية .
– أفليس ذلك سواء ؟ – سأل بافل بتروفيتش .
– كلا ، ليس سواء . فالنهلستي هو الانسان الذي لا يطأطئ رأسه امام اية شخصية مرموقة ولا يتقبل اي مبدأ دون تمحيص مهما كان الاحترام الذي يحظى به ذلك المبدأ .
– ثم ماذا ؟ فهل ذلك شيء حسن ؟
– هذا امر يتوقف على الاشخاص ، يا عمي ، فهو قد يعود على البعض بالخير وقد ينقلب على البعض الآخر شراً مستطيراً .
– هكذا اذن . هذا امر لا يعنينا ، على ما اعتقد . فنحن ابناء الجيل السابق نتصور ان من المستحيل القيام بخطوة واحدة او حتى مجرد التنفس بدون المبادئ ، المبادئ المقبولة ، كما تقول ، بدون تمحيص ، (ولكنكم غيرتم ذلك كله) * ، «الله يعطيكم العافية ورتبة جنرال» (٥٦) . اما نحن فسوف نتطلع اليكم مغرمين بكم ايها السادة ال . . . لا ادري كيف تنطقون هذه الكلمة ؟
– . . . النهلستيون ، – قال اركادي بوضوح .
– اجل . في السابق كان هناك الهيجليون ، اما اليوم فقد ظهر النهلستيون . فلنر كيف ستعيشون في الفراغ الخالي من الهواء . اما الآن فدق الجرس رجاء ، يا اخي نيكولاي ، فقد حان موعد احتساء الكاكاو .

دق نيكولاي بتروفيتش الجرس وصاح : «دونياشا !» . ولكن فينيتشكا نفسها ظهرت في الشرفة بدلاً من دونياشا . كانت امرأة غضة في حوالي الثالثة والعشرين من العمر ، ناصعة البشرة بشعر فاحم وعينين سوداوين وشفتين حمراوين ممتلئتين كشفاه الاطفال

* في الاصل بالفرنسية Vous avez change tout cela .

ويدين رقيقتين . كانت ترتدي بدلة قطنية انيقة . وكان منديل ازرق جديد قد استقر خفيفاً على كتفيها المكورتين . حملت قدحاً كبيراً من الكاكاو فوضعته امام بافل بتروفيتش واعتراها الحياء كليا : فنضح الدم الساخن كالموجة القانية على محياها المليح الرقيق . غضت بصرها وتوقفت قرب المائدة مستندة اليها باطراف اصابعها ، وكأنما شعرت بان مجيئها امر مخجل ، ولكنها في الوقت ذاته تتصور بان لها الحق في ان تحضر .

قطب بافل بتروفيتش حاجبيه بصرامة ، بينما ارتبك نيكولاي بتروفيتش ، ثم قال الاول بصوت خافت :
– مرحباً ، فينيتشكا !
– مرحباً يا سيدي ، – اجابته بصوت خفيض رنان ، ثم خرجت بهدوء وهي تسترق النظر الى اركادي الذي ابتسم لها بود . كانت تسير متمايلة بعض الشيء ، ولكن ذلك لم يكن يعيبها .

ساد الصمت الشرفة لحظات . وكان بافل بتروفيتش يرتشف الكاكاو ، ثم رفع رأسه فجأة وقال بصوت يكاد يكون همساً :
– ها هو النهلستي قادم .

بالفعل كان بازاروف يسير في الحديقة متخطياً جنينات الزهور . كان معطفه القطني وسرواله ملطخين بالاوساخ ، وقد علقت نبتة من نبتات المستنقع بقبعته المستديرة العتيقة فطوقت اسطوانتها . كان يحمل بيده اليمنى كيساً صغيراً تهتز داخله كائنات حية . اقترب من الشرفة بسرعة وحنى رأسه قائلاً :
– مرحبا ايها السادة . معذرة لتأخري عن الفطور . ساضع هؤلاء الاسيرات في اماكنهن واعود في الحال .
– ما هذا ؟ أهو علق ؟ – سأل بافل بتروفيتش .
– كلا . ضفادع .
– أتأكلها ، ام تربيها ؟
– استعملها في التجارب ، – قال بازاروف في غير اكتراث وذهب الى الدار . فعقب بافل بتروفيتش :
– سيشرّحها . يؤمن بالضفادع ولا يؤمن بالمبادئ .

القى اركادي نظرة آسفة على عمه ، فهز نيكولاي بتروفيتش كتفيه خلسة . وادرك بافل بتروفيتش نفسه بان نكتته غير موفقة فحول مجرى الحديث الى المزرعة وطفق يتكلم عن وكيلها

الجديد الذي جاءه امس يتشكى من العامل «الازعر» فوما لانه لا يطيع احداً ، وقال عنه الوكيل : «سيعيش ويقضي نحبه في غباوة مثل ايسوب الذي ساءت سمعته في كل مكان» .

٦

عاد بازاروف . جلس الى المائـــدة وشرع يحتسي الشاي باستعجال . تطلع اليه كلا الاخوين بصمت ، بينما راح اركادي ينقّل نظراته خلسة بين ابيه وعمـــه . واخيراً سأل نيكولاي بتروفيتش :

– هل قطعت مسافة طويلة ؟

– هناك مستنقع قرب اجمة الحور . وقد رأيت خمسة من طيور البكاسين ، بوسعك ان تصطادها يا اركادي .

– حضرتك ليس صياداً ؟

– كلا .

– انت تدرس الفيزياء ، أليس كذلك ؟ – سأل بافـــل بتروفيتش بدوره .

– اجل الفيزياء ، بل العلوم الطبيعية على العموم .

– يقال ان الجرمن تفوقوا كثيراً في هذا الميدان خلال الآونة الاخيرة .

– اجل ، الالمان اساتذتنا في ذلك – اجاب بازاروف بلا اكتراث .

استخدم بافل بتروفيتش كلمة «الجرمن» بدلا من «الالمان» للسخرية ، ولكن احداً ما لم يلاحظ ذلك .

– هل تكن كل هذا الاحترام للالمان ؟ – قال بافل بتروفيتش بتبجيل متكلف . فقد اخذ يشعر بانزعاج خفي ، اذ ان استهانة بازاروف المتمادية ولدت تذمراً في طبعه الارستقراطي . فان ابن الطبيب هذا لم يشعر بالخجل ، بل واجاب على نحو متقطع ، دون رغبة ، بصوت يشوبه شيء من الخشونة التي تكاد تقرب من الوقاحة .

– العلماء هناك اناس حاذقون .

– هكذا ، اذن . اما بخصوص العلماء الروس فليس لديك ، على مايبدو ، مثل هذا الاطراء ، أليس كذلك ؟

– اخشى ان يكون الامر كذلك ..

– هذا نكران ذات يستحق اكبر قدر من المديح – قال بافل بتروفيتش وهو يعدّل قامته ويميل برأسه الى الوراء – ولكن كيف قال لنا اركادي نيكولايفيتش قبل قليل انك لا تعترف باية شخصيات بارزة ولا تؤمن بها ؟

– ما الذي يجعلني اعترف بها ؟ وما الذي اؤمن به ؟ عندما يعرض علي شيء معقول اوافق عليه ، هذا كل ما في الامر .

– وهل يعرض جميع الالمان شيئاً معقولاً ؟ – سأل بافل بتروفيتش واكتسى وجهه بتعبير لاابالي هائم كما لو كان قد حلق كلياً الى ما وراء السحب .

– ليس جميعهم ، – اجاب بازاروف بتثاؤبة قصيرة دلت على انه ليس راغباً في مواصلة الجدل الفارغ .

القـــى بافل بتروفيتش نظرة عـلى اركادي وكأنما يريـــد ان يقول له : «صديقـــك مهذب حقا !» ، ثم قال من جديد بشيء من الجهد :

– اما انا فخطيئتي هي اني لا اخلع النعوت على الالمان . وما من داعٍ للكلام عن الالمان الروسيين : فالكل يعلمون اي نوع من البشر هم . ولكنني لا استسيغ الالمان الالمانيين ايضاً . فالقدماء منهم كانوا يصلحون لشيء ، عندما كان لديهم ، مثلا ، شيلّر وغوته . . . واخي نيكولاي معجب بهما خصوصاً .اما الآن فليس هناك غير الكيمياويين والماديين . . .

– الكيمياوي الحاذق افضل بعشرين مرة من اي شاعر – قاطعه بازاروف . فقال بافل بتروفيتش رافعاً حاجبيه قليلا وكأنما ينوي ان يغط في النوم :

– هكذا ، يعني انك لا تعترف بالفن ؟

– فن اكتساب المال ، او خير طريقة لعلاج البواسير ! – هتف بازاروف بضحكة ساخرة مستهينة .

– هكذا اذن ، هكذا تتفضل بالتنكيت . يعني انك ترفض كل شيء . ولا تؤمن الا بالعلم . أليس كذلك ؟

– اخبرتك باني لا اؤمن بشيء . والعلم ، ما هو العلم عموماً ؟

هناك علوم مثلما هناك صنائع وألقاب . اما العلم عموماً فهو غير موجود على الاطلاق .

– حسناً جداً . ولكن ماذا بخصوص القواعد الاخرى المقبولة في حياة الناس ؟ هل تلتزم بنفس هذا الاتجاه السلبي ازاءها ؟

– ما هذا ، أهو استجواب ؟ – سأل بازاروف . فشحب لون بافل بتروفيتش بعض الشيء . . . ورأى نيكولاي بتروفيتش ان من واجبه ان يتدخل في الحديث :

– سوف نتحدث معك يا عزيزي يفغيني فاسيليفيتش فيما بعد بتفصيل اكبر حول هذا الموضوع . وسوف نطّلع على رأيك ونعرض رأينا . ومن ناحيتي فانا مسرور جداً لدراستك العلوم الطبيعية . سمعت ان ليبيغ (٥٧) اجرى اكتشافا مدهشا بخصوص تسميد الحقول . ويمكنك ان تساعدني في اعمالي الزراعية : فبوسعك ان تقدم لي نصيحة نافعة ما .

– انا في خدمتك ، يا نيكولاي بتروفيتش . ولكن شتان بيننا وبين ليبيغ ! يتعين في البداية تعلم الابجدية ثم تناول الكتاب . اما نحن فلا نزال غارقين في لجة الجهل .

«يبدو انك نهلستي حقاً» – فكر نيكولاي بتروفيتش في نفسه ، ثم اضاف قائلا :

– ومع ذلك اسمح لي ان استعين بك عند الاقتضاء . اما الآن ، يا بافل ، فقد حان الوقت ، على ما اعتقد ، للتداول مع وكيل المزرعة .

نهض بافل بتروفيتش من كرسيه وقال دون ان ينظر الى احد :

– ما اتعس ان يعيش المرء خمس سنوات في القرية بعيداً عن العقول العبقرية ! فهو يصبح اكثر بلادة . انه يحاول ان لا ينسى ما تعلمه في الماضي ، وعلى حين غرة يتضح له ان كل ذلك هراء ، فيقال له ان الاذكياء لم يعودوا يدرسون مثل هذه السخافات وانه هو مجرد طرطور متخلف . فما العمل ؟ ! يبدو ان الشباب اذكى منا حقاً .

استدار بافل بتروفيتش ببطء على كعبيه وخرج متباطئاً فتبعه نيكولاي بتروفيتش . وحالما أغلق الباب بعد خروج الاخوين سأل بازاروف من اركادي ببرود :

– ماذا ؟ هل هو على هذه الشاكلة دوماً ؟

– فقال اركادي :

– اسمع ، يا يفغيني ، تحدثت معه بخشونة بالغة . لقد اهنته .

– فهـــل يتعين عليّ ان اداريهـــم ، هؤلاء الارستقراطيين الريفيين ؟ ! كل ذلك مجرد خيلاء وحماقة وعادات السباع . الاحرى به ان يتابع مهمته في بطرسبورغ ما دام على هذه الطباع . . . آ . ما لنا وله ، فلنتركه وشأنه . هل تعلم ؟ لقد عثرت على نوع نادر جداً من الجعلان العوامة : (ديتيسكوس مارغيناتوس) * . سأريك اياه .

فقال اركادي :

– وعدتك ان احكي لك قصته .

– قصة الجعل ؟

– كفى ، يا يفغيني . قصة عمي . وسترى انه ليس بذلك الانسان الذي تتصوره . انه يستحق الرثاء اكثر مما يستحـــق السخرية .

– لا اشك في ذلك . ولكن لماذا تشغل بالك به الى هذا الحد ؟

– كن منصفاً يا يفغيني .

– وما الداعي لذلك ؟

– كلا ، اسمعني . . .

وقص عليه اركادي قصة عمه التي يجدها القارئ في الفصل التالي .

٧

تلقى بافل بتروفيتش كيرسانوف تعليمه في المنزل اول الامر ، شأنه شأن اخيه الاصغر نيكولاي ، ثم في «سلك الوصفاء» (٥٨) . وكان منذ طفولته يتمتع بجمال رائع . زد على ذلك انه كان معتداً بنفسه وساخراً بعض الشيء وحاد الطبع بشكل يثير الضحك احياناً . ولذا كان لا بد ان يروق للآخرين . حالما تخرج

* في الاصل باللاتينية Dytiscus marginatus .

ضابطاً اخذ يظهر في كل المحافل . كان يُحمل على الاكف ، ويداري نفسه لحد الحماقة ، بل ويتدلل ويتغنج ، وما كان ذلك ليعيبه بشيء . فقد كانت النساء مفتونات به لحد الجنون ، وكان الرجال ينعتونه بالمتأنق ويحسدونه في سرهم . عاش ، كما ذكرنا ، في منزل واحد مع اخيه الذي احبه حباً صادقاً ، مع انه لم يكن يشبهه بشيء . نيكولاي بتروفيتش ضئيل القوام يعرج قليلاً ، وعيناه السوداوان غير الواسعتين جميلتان ولكنهما حزينتان بعض الشيء وشعره خفيف ناعم . كان يهوى الكسل ، ولكنه يهوى المطالعة ايضاً ويخشى الظهور في المحافل . اما بافل بتروفيتش فلم يصرف ولا امسية واحدة في المنزل ، وقد اشتهر بالبسالة واللباقة (فهو الذي جعل الجمباز موضة لدى شباب المجتمع الراقي) ، ولم يقرأ غير خمسة او ستة كتب فرنسية . وفي عامه الثامن والعشرين اصبح ضابطاً برتبة رائد تنتظره افضل المناصب . ولكن كل شيء تغير فجأة .

في ذلك الحين كانت تظهر في مجتمع بطرسبورغ الراقي من حين لآخر امرأة لم يطوها النسيان حتى الآن . وهي الاميرة ر . كان لديها زوج مهذب مؤدب ، ولكنه على شيء من الغباوة . ولم يكن لديها اطفال . كانت تسافر الى الخارج فجأة ، وتعود الى روسيا فجأة . وعلى العموم كانت غريبة الاطوار ، تعيش حياة متميزة . اشتهرت بانها امرأة لعوب تنغمر بولع كبير في مختلف انواع الملذات ، وترقص حتى الاغماء ، وتقهقه وتنكت مع الشباب الذين تلتقيهم قبيل الغداء في غرفة استقبال شبه معتمة . اما في الليل فكانت تنتحب وتصلي ، فلا يقر لها قرار ، وغالباً ما تظل حتى الصباح تجوب الغرفة جيئة وذهاباً ، غارقة في لجة الكآبة ، او تنكب ، شاحبة باردة ، علـى سفر المزامير . وحالما يحل النهار تتحول من جديد الى واحدة من نساء المجتمع الراقي ، وتتنقل وتضحك وتثرثر من جديد وكأنما تندفع لملاقاة كل ما يمكن ان يوفر لها ادنى قدر من التسلية . كانت ذات قوام مدهش . ضفيرتها الذهبية اللون الثقيلة كالذهب تتدلى الى اسفل الركبتين . ولكنه ما من احد بوسعه ان يطلق عليها نعت الحسناء . فلم يكن في محياها شيء جميل غير عينيها ، وليس عيناها بالضبط — فهما رماديتان غير واستعين — بل نظرتهما السريعة العميقة اللامبالية حتى البسالة

والمتأملة حتى الكآبة — انها نظرة كلها الغاز . كان شيء ما مدهش يضوء في هذه النظرة حتى عندما تتفوه هي باتفه الالفاظ . وكانت ملابسها على قدر كبير من الاناقة . صادفها بافل بتروفيتش في احدى السهرات ورقص معها المازوركا ، فلم تقل طوالها ولا كلمة واحدة ذات شأن ، ووقع في هواها بشدة وعنف . وسرعان ما حقق هدفه هذه المرة ايضاً وهو الذي تعود على الانتصارات . الا ان سهولة الفوز لم تخفف من غلوائه . على العكس ، فقد تعلق تعلقاً اشد واكثر مضضاً بهذه المرأة التي ظل فيها ، على ما يبدو ، شيء منشود بعيد المنال لم يتوصل اليه احد ، حتى عندما تستسلم كلياً . ولا يعلم الا الله بما كان يعشش في هذه الروح ! لقد بدت وكأنها اسيرة قوى خفية مجهولة بالنسبة لها نفسها ، قوى تتلاعب بها كما يحلو لها . وما كان بوسع ذكائها غير المفرط ان يسيطر على نزوات تلك القوى . كان سلوكها بمجمله عبارة عن طائفة من الحماقات . فالرسائل الوحيدة التي يمكن ان تثير شكوك زوجها بحق هي رسائل كتبتها الى شخص غريب عليها تقريباً ، اما حبها فكان ينضح حزنا : لم تعد تضحك وتمزح مع الذي اختارته ، وصارت تستمع اليه وتحدق فيه متحيرة . وكانت تلك الحيرة تتحول احياناً ، بصورة مفاجئة على الاغلب ، الى رعب بارد ، فيكتسي وجهها بتعبير وحشي موات ، وتنطوي على نفسها في غرفة النوم فتغلقها وتجهش في نحيب مخنوق بوسع الوصيفة ان تستمع اليه عندما تلصق اذنها بقفل الباب . كان كيرسانوف ، حينما يعود الى منزله بعد لقاءات الغرام ، يحس مراراً بكآبة مرة كالتي تعتصر القلب وتمزق نياطه عادة بعد الاخفاق المطبق . وكان يسائل نفسه : «ماذا اريد اكثر من ذلك ؟» . ولكن الكآبة تعتصر قلبه . وذات مرة اهداها خاتما نحت ابو الهول الاسطوري (٥٩) على فصه . فسألته :

— ما هذا ؟ ابو الهول ؟

— اجل . وهو انتِ .

— انا ؟ — سألته واحتوته على مهل بنظرتها المليئة بالالغاز . ثم اضافت بسخرية غير متمادية ، وظلت عيناها تسلطان عليه نفس تلك النظرة الغريبة :

— ألا تتصور ان ذلك اطراء بالغ ؟

كان الامر صعباً على بافل بتروفيتش حتى عندما احبته الاميرة ر . ولكنه كاد يجن عندما خفت حبها له عاجلاً . كان يتعذب ويغار عليها ، ويلاحقها في كل مكان ولا يتركها تذوق طعم الهدوء ، حتى سئمت من لجاجته وملاحقاته فسافرت الى الخارج . احال نفسه على التقاعد بالرغم من رجاء اصدقائه ونصائح رؤسائه ، ولحـق بالاميرة ، فقضى اربعة اعوام في الغربة تارة يطاردها وتارة يفلتها عمداً . واخذ يشعر بالخجل من نفسه وصار يكره نفسه بسبب تخاذله . . . ولكن ما من شيء كان بوسعه ان يعينه . فقـد انغرزت في اعماق روحه حتى الجذور صورتها الجذابة ، الغامضة التي لا تكاد تنطوي على اي معنى . وفي بادن عادت علاقاتهما ، ذات مرة ، الى سابق عهدها . وخيل اليه انها لم تكن تحبه فما مضى ابداً بنفس القدر الذي تحبه به الآن . . . ولكن ما ان مر شهر حتى انتهى كل شيء : فقد اندلع اللهيب للمرة الاخيرة ثم انطفأ الى الابد . وعندما ادرك حتمية الفراق الذي لا مفر منه اراد ، على الاقل ، ان يظل صديقاً لها وكأنما الصداقة مع مثل هذه المرأة امر ممكن . . . غادرت بادن خلسة وصارت منذ ذلك الحين تتحاشى كيرسانوف دوماً . اما هو فقد عاد الى روسيا وحاول ان يعيش عيشته القديمة ، ولكنه لم يعد قادراً على العودة الى المجرى القديم . فراح يطوف من مكان لاخر كمن سلب عقله . كان لا يزال يظهر فى المحافل ويحتفظ بجميع عادات الشخص المنتمي الى المجتمع الراقي ، وكان بوسعه ان يتفاخر بانتصارين جديدين او ثلاثة ، ولكنه لم يعد ينتظر شيئاً ذا شأن لا من نفسه ولا من الاخرين ، ولم يتخذ اي اجراء يستحق الذكر . داهمته الشيخوخة ووخط الشيب شعره . وصار يشعر بحاجة الى قضاء الامسيات في النادي جالساً جلسته السوداوية المضجرة او مناقشاً بلا مبالاة في معشر العزاب ، وتلك ، كما هو معروف ، دلالة سوء . بديهى انه لم يكن يفكر في الزواج حتى مجرد تفكير . مضت على هذا النحـــو عشر سنوات كالحة عقيمة ، مضت بسرعة ، بسرعة مرعبة . فالوقت لا ينقضي في ايما مكان باسرع مما في روسيا . ويقال انه ينقضي في السجن فقط بصورة اسرع . ذات مرة ، اثناء الغداء في النادي ، عرف بافل بتروفيتش بوفاة الاميرة ر . التي قضت نحبها في باريس في حالة تقرب من الجنون . نهض من المائدة واخذ يجوب غرف

النادي طويلا ، وكان يتوقف مسمراً قرب المقامرين ، ولكنه لم يعد الى المنزل قبل الموعد المعتاد . وبعد حين من الوقت تسلم مظروفاً باسمه . كان في المظروف الخاتم الذي اهداه للاميرة . لقد رسمت على ابى الهول علامة صليب وامرت حامل المظروف بان يقول له ان الصليب هو حل اللغز .

حدث ذلك في مطلع عام ١٨٤٨ ، في نفس الوقت الذي وصل فيه نيكولاي بتروفيتش الى بطرسبورغ بعد وفاة زوجته . لم يكن بافل بتروفيتش قد تقابل مع اخيه منذ ان انتقل هذا الى القرية : فقد وافق زفاف نيكولاي بتروفيتش الايام الاولى لتعرف بافـل بتروفيتش على الاميرة . وعندما عاد من الخارج توجه اليه ناوياً البقاء عنده زهاء شهرين والاطلاع على حياته الهانئة ، ولكنه لم يمكث لديه غير اسبوع واحد . فقد كان الفارق في اوضاع الاخوين كبيراً جداً . وفي عام ١٨٤٨ تقلص هذا الفارق : اذ فقد نيكولاي بتروفيتش زوجته وفقد بافل بتروفيتش ذكرياته . حاول بافل الا يفكر بالاميرة بعد وفاتها . الا ان نيكولاي ظل يحتفظ بشعور انسان عاش الحياة على نحو صائب ، فقد كان ابنه يترعرع امام ناظريه . اما بافل فهو ، على العكس ، اعزب مستوحش وقد دخل مرحلة كالحة معتمة ، مرحلة الندامة التي تشبه الآمال والآمال التي تشبه الندامة ، حيث مضى الشباب ، بينما لم تحل الشيخوخة بعد .

كانت هذه المرحلة اصعب على بافل بتروفيتش مما على اي شخص اخر : فعندما فقد ماضيه فقد معه كل شيء .

قال له نيكولاي بتروفيتش ذات مرة :

— لا ادعوك الى مارينو (اطلق نيكولاي بتروفيتش هذا الاسم على قريته تكريماً لزوجته ماريا) ، فعندما كانت المرحومة على قيد الحياة شعرت هناك بالضجر ، اما الآن فسيكون ضجرك اشد على ما اعتقد .

فاجاب بافل بتروفيتش :

— كنت آنذاك لا ازال احمق متململا . اما الآن فقد هدأت ، ان لم اقل صرت اذكى قليلاً . وانا ، على العكس ، مستعد لاسكـن عندك الى الابد ، اذا سمحت .

وبدلاً من الجواب عانقه نيكولاي بتروفيتش . غير ان بافل بتروفيتش لم يشد العزم على تحقيق ما نواه الا بعد عام ونصف من

هذا الحديث . ولكنه عندما سكن القرية لم يغادرها حتى في فصول الشتاء الثلاثة التي قضاهـــا نيكولاي بتروفيتش مع ابنه في بطرسبورغ . اخذ يطالع باللغة الانجليزية على الاكثر ، بل وحول حياته كلها على النمط الانجليزي . صار نادراً ما يتقابل مــع الجيران ، ولا يغادر القرية الا في الانتخابات حيث يصرف اغلب الوقت صامتاً ، ما عدا بعض الحالات النادرة حيث يغيظ الاقطاعيين المتمسكين بالقديم ويخيفهم بالنزوات المتحررة دون ان يتقرب الى ممثلي الجيل الجديد . وكان هؤلاء واولئك يعتبرونه مغروراً معتداً بنفسه . بيد ان هؤلاء واولئك كانوا يحترمونــــه لمسلكـــه الارستقراطي الممتاز وللاشاعات عن انتصاراته ولانه مهندم على اروع ما يكون ، ولانه ينزل دوماً في افضل الغرف في ارقــى الفنادق ، ولانه على العموم لا يتناول الا الاطعمة الفاخرة ، حتى انه تغدى ذات مرة مع ولنغتون (٦٠) عند لودفيغ-فيليب (٦١) ، ويحترمونه لانه كان يحمل معه في ترحاله وتجواله حقيبة فضية لادوات الزينة وحوض استحمام متنقلاً ، ولانه يتطيب بعطور «كريمة» مدهشة غير معتادة ، ولانه يلعب الهويست * بمهارة ويخسر فيه دوماً ، وكانوا يحترمونه ، اخيراً ، لنزاهته التي لا تشوبها شائبة . وقد اعتبرته النساء ملنخولياً فاتناً ، ولكنه ما عاد يعبأ بالنساء . . .

وقال اركادي في ختام حديثه :

– أرأيت ، يا يفغيني ، كم انت مجحف بحق عمي ! ثم انه انقذ ابي مراراً من المصائب واعطاه كل نقوده . وحتى الضيعـة ، وهذا امر ربما لا تدري به ، غير مقسمة بينهما . بل هو مستعد لمساعدة اي كان . وبالمناسبة فهو يلتزم جانب الفلاحين دوماً . لكنه ، والحق يقال ، يتقزز منهم ويتشمم الكولونيا عندما يتكلم معهم . . .

– امر واضح : اعصاب – قاطعه بازاروف .

– ربما . ولكن قلبه في منتهى الطيبة . ثم انه ليس بليداً ابداً . فما اثمن النصائح التي قدمها لي . . . وخصوصاً . . . وخصوصاً في الموقف من النساء .

---

* ضرب من لعب الورق . **المترجم** .

– طبعاً ! من لدغته الافعى يخشى من جر الحبل . ليس ذلك جديداً علينا !

– خلاصة القول – واصل اركادي كلامـــه – انه تعيس للغاية ، صدقني . وان احتقاره خطيئة .

– من يحتقره ؟ – اعترض بازاروف – ولكني اعتقد ان الانسان الذي قامر بحياته كلها على حب امرأة وتكدر ، عندما خسر المقامرة ، فانحدر الى درجة اصبح معها عاجزاً عن القيام باي شيء ليس رجلاً وليس ذكراً . تقول انه تعيس ، فانت اعرف به ، ولكن الحماقة لم تفارقه كلياً . انا واثق من انه لا يمزح عندما يتصور نفسه انساناً ذكياً طيباً لكونه يقرأ وريقة غاليلياني ويخلص الفلاحين مرة في الشهر من العقوبة الجسدية .

– ولكن تذكر تربيته والعصر الذي عاش فيه .

– ما شأن التربية ؟ على كل فرد ان يربي نفسه بنفسه ، كما فعلت انا ، مثلاً . . . اما العصر ، فما الداعي لان اكون تحت سلطته ؟ فليكن هو تحت سلطتي . كلا ، يا اخي ، ما ذلك الا استهتار وحماقة ! ثم ما هذه العلاقات الغامضة بين الرجل والمرأة ؟ اننا الفسلجيين نعرف ماهية تلك العلاقات . راجع تشريح العين ، فمن اين تنبع تلك النظرة المليئة بالالغاز ، كما تقول ؟ ما ذلك الا رومانسية مصطنعة وهذر متعفن . الافضل ان نذهب لنتفحص الجعل .

وتوجه الصديقان الى غرفة بازاروف التي اكتنفتها ، منذ ان حل فيها ، روائح طبية وجراحية ممزوجة بنفح تبغ رخيص .

٨

لم يبق بافل بتروفيتش طويلاً اثناء التداول بين اخيه ووكيـل المزرعة النحيف الفارع القامة ذي العينين المراوغتين والصوت العسلي الشبيه بصوت المسلول . كان الوكيل يرد على جميع ملاحظات نيكولاي بتروفيتش بقوله «طبعاً ، يا سيدي ، امر معروف» ويحاول ان يصور جميع الفلاحين سكارى ولصوصاً . كانت المزرعة التي اصلحت على شاكلة جديدة مؤخراً تصر كعجلة بدون تشحيم وتتشقق

كالاثاث المصنوع كيفما اتفق من خشب لم يجف بعد . لم يكن نيكولاي بتروفيتش يائساً ، ولكنه كثيراً ما كان يتنهد ويتأمل : فهو يعرف ان الامور لن تسير على ما يرام بدون مال ، في حين انه انفق جميع امواله تقريبا . وقد صدق اركادي عندما قال ان بافل بتروفيتش اعان اخاه اكثر من مرة . فان بافل بتروفيتش الذي رأى اخاه مراراً يشقى ويمعن التفكير في كيفية تدبير الامور ولو بشكل ما ، كان يقترب من النافذة ببطء ويدس يديه في جيبيه ويقول بصوت خافت : «استطيع ان اعطيك مالاً» * ، ويسلم المال له بالفعل . لكنه في ذلك اليوم لم يكن لديه شيء من المال ، ولذا فضل الانسحاب . كانت المشاحنات بشأن المزرعة تبعث الغم فيه ، وكان يخيل اليه دوماً ان نيكولاي بتروفيتش ، بالرغم من حرصه ومثابرته ، لا يدير الامور كما يرام ، مع ان بافل بتروفيتش ما كان بوسعه ان يشير بالتحديد الى خطأ اخيه . وكان يفكر في نفسه : «ليس اخي عملياً بالقدر الكافي ، فهم يخدعونه» . وكان نيكولاي بتروفيتش ، على العكس ، يقدر كل التقدير مواهب اخيه العملية وينشد لديه النصح دوماً . كان يقول : «انا انسان ضعيف ليّن ، عشت عمري في الريف ، اما انت فقد عشت طويلاً مع الناس . انك تعرفهم جيداً ولديك نظرة صقر» . وكان بافل بتروفيتش لا يرد على هذه الكلمات ، بل يشيح بوجهه دون ان يبين لاخيه العكس .

ترك بافل بتروفيتش اخاه في مكتبه وسار في الرواق الذي يفصل القسم الامامي من الدار عن قسمها الخلفي . وعندما وصل الى باب واطئ توقف متفكراً ثم فتل شاربه وطرق الباب .

— من الطارق؟ ادخلوا — رن صوت فينيتشكا .

— انا — اجاب بافل بتروفيتش وفتح الباب .

نهضت فينيتشكا في الحال من الكرسي الذي كانت جالسة عليه مع طفلها ، وسلمت الطفل الى فتاة خرجت به فوراً من الغرفة ، وعدلت منديلها على عجل .

— معذرة اذا كنت قد ضايقتك — طفق بافل بتروفيتش يتكلم دون ان ينظر اليها — اريد فقط ان اكلفك . . . سيذهب احد ما

* في الاصل بالفرنسية « Mais je puis vous donner de l'argent » .

الى المدينة اليوم على ما اظن . . اطلبي منه ان يشتري لي شاياً اخضر .

— سمعاً وطاعة يا سيدي — اجابت فينيتشكا — كم ترغبون ان نشتري ؟

— نصف رطل يكفي ، باعتقادي — اجاب ثم اضاف بعد ان القى نظرة عاجلة احاطت بما حواليه وانزلقت على وجه فينيتشكا ايضاً — يبدو ان لديك تغيرات هنا . — واردف عندما رأى ان فينيتشكا لم تفهمه — هذه الستائر مثلاً .

— اجل ، هذه الستائر ، لقد تفضل بها علينا نيكولاي بتروفيتش . ولكنها معلقة منذ زمان .

— انا ايضاً لم ازرك منذ زمان . اما الآن فقد اصبحت غرفتك مريحة تماماً .

— بفضل نيكولاي بتروفيتش — اجابت فينيتشكا همساً ، فسألها بافل بتروفيتش بتأدب ولكن بدون ادنى اثر للابتسام :

— هل هنا افضل مما في الجناح السابق ؟

— افضل ، طبعاً .

— ومن اسكنوا بدلك هناك ؟

— الغسالات .

— اها !

لزم بافل بتروفيتش الصمت . ففكرت فينيتشكا في نفسها : «سيذهب الآن» . ولكنه لم يذهب ، فظلت واقفة امامه متسمرة تفرك اصابعها بخفة ، الى ان قال اخيراً :

— لماذا اعطيتها طفلك ! انا احب الاطفال ، احضريه لي .

احتقن محيا فينيتشكا من الحياء والسرور . كانت تخشى بافل بتروفيتش ، فهو لم يكلمها ولا مرة تقريبا . فنادت دونياشا قائلة :

— احضروا ميتيا (كانت فينيتشكا تخاطب كل من في الدار بصيغة الجمع) . لا بل تمهلوا : ينبغي ان البسه بدلة .

توجهت فينيتشكا نحو الباب ، فبادرها بافل بتروفيتش :

— لا فرق .

— في الحال — اجابت فينيتشكا وخرجت برشاقة .

ظل بافل بتروفيتش وحيداً ، فاخذ يتلفت هذه المرة باهتمام

خاص الى ما حواليه . كانت الغرفة الواطئة الصغيرة التي يقف فيها نظيفة ومريحة للغاية ، تفوح فيها رائحة الارضية التي طليت مؤخراً ورائحة الاقحوان والنعناع . وعلى طول الجدران صفت كراس ذات مساند خلفية بشكل قيثارات ، كان الجنرال الراحل قد اشتراها في بولندة ابان احدى الحملات ، وفي ركن من الغرفة انتصب سرير صغير فوقه حجاب من الشاش ، الى جانب صندوق مرصـــع بالمسامير وذي غطاء محدب . وفي الزاوية المقابلة اشتعل قنديل امام ايقونة معتمة كبيرة للقديس نيقولاي الذي تدلت بشريط احمر على صدره بيضة فرفورية صغيرة مثبتة الى هالته . وعـلى رفي النافذتين زجاجات مربى الموسم المنصرم مغلقة بعناية ، ويتسرب من خلالها ضوء اخضر ، وقد كتبت فينيتشكا على اغطيتها الورقية بحروف كبيرة «عنب الثعلب» . نيكولاي بتروفيتش يحب هذا النوع من المربى خصوصاً . وكان قفص يتدلى بحبل طويل من السقف وفيه حسون قصير الذيل يشقشق ويتقافز بلا كلل ، والقفص يهتز ويرتعش بلا انقطاع ، وتقع حبات القنب على الارضية بنقر خفيف . وعلى الحائط بين النافذتين علقت ، فوق الصوان ، صور فوتوغرافية لنيكولاي بتروفيتش في وضعيات مختلفة ، وهي صور سيئة التقطها مصور متجول . والى جانبها صورة لفينيتشكا غير موفقة ابداً ، اذ لم يكن يلوح منها غير وجه بلا عينين يبتسم ابتسامة متوترة في اطار معتم .وفوقها صورة يرمولوف (٦٢) في معطف فضفاض من اللباد ، وهو يلقي نظرة عابسة رهيبة على جبال القوقاز البعيدة من تحت خف حريري للدبابيس علق فوقه وغطى جبهته كلها .

مرت خمس دقائق تقريباً . وكان يتهادى من الغرفة المجاورة حفيف وهمس . رفع بافل بتروفيتش من فوق الصوان كتاباً ملوثاً ، هو احد مجلدات رواية ماسالسكي «الرماة» (٦٣) ، فتصفح عدة صفحات منه . . . فتح الباب ودخلت فينيتشكا تحمل ميتيا . كانت قد البسته قميصاً احمر بشريط مقصب على الياقة ، ومشطت شعره ومسحت وجهه : كان يتنفس بصعوبة ويندفع بجسمه كله ويلوّح بيديه الصغيرتين كما يفعل جميع الاطفال الاصحاء . بيد ان القميص الانيق اثر عليه ، كما يبدو ، فقد طفت على وجهه المنتفخ مسحة من الارتياح . وكانت فينيتشكا قد صففت شعرها

هي ايضاً . ارتدت منديلا افضل . غير انه كان بوسعها ان تظل كما كانت عليه . حقاً ، فهل هناك اكثر جاذبية في الوجود من ام جميلة شابة مع طفل معافى ؟

— يالك من طفل ريّان ! — قال بافل بتروفيتش متساهلاً ودغدغ اسفل ذقن ميتيا بطرف ظفر سبابته الطويل . حدق الطفل في الحسون وابتسم .

— هذا عمك — قالت له فينيتشكا وقد مالت اليه بوجهها وهي تهزه هزة خفيفة ، في حين وضعت دونياشا على رف النافذة بهدوء شمعة البخور المشتعلة والصقتها من الاسفل على قطعة نقد صغيرة . فسأل بافل بتروفيتش :

— كم شهراً بلغ يا ترى ؟

— ستة شهور ، وسيحل شهره السابع قريباً ، في الحادي عشر .

— اليس الشهر الثامن ؟ — تدخلت دونياشا بشيء مـن الاستحياء .

— كلا ، السابع ، كيف ذلك ؟ ! — ابتسم الطفل من جديد وحدق في الصندوق ثم خطف انف امه وشفتيها فجأة باصابعـه الخمس ، فقالت فينيتشكا دون ان تبعد وجهها عن اصابعه : — مشاكس .

— يشبه اخي — لاحظ بافل بتروفيتش ، ففكرت فينيتشكا في نفسها : «ومن عساه ان يشبه ؟» فواصل بافل بتروفيتش كلامه وكأنه يخاطب نفسه :

— اجل ، شبه لا شك فيه . — ثم ألقى على فينيتشكا نظرة متفحصة تكاد تكون حزينة .

— هذا عمك — كررت هي همساً هذه المرة . وفجأة تعالى صوت نيكولاي بتروفيتش :

— اها ! بافل ! ها قد وجدتك !

التفت بافل بتروفيتش باستعجال وتجهم وجهه ، الا ان اخاه نظر اليه بفرح وامتنان جعلاه يرد بابتسامة من كل بد . ثم قال متطلعاً في ساعته :

— طفلك رائع . اما انـــا فقد عرجت الى هنا بخصوص الشاي . . .

خرج بافل بتروفيتش من الغرفة في الحال وقد اكتسى وجهه بمسحة من اللامبالاة . فسأل نكيولاي بتروفيتش من فينيتشكا :

– هل جاء بنفسه ؟

– بنفسه ، يا سيدي ، طرق الباب ودخل .

– واركادي ، ألم يزرك بعد تلك المرة ؟

– كلا . الا ينبغي ان انتقـــل الى الجناح ، يا نيكولاي بتروفيتش ؟

– ما الداعي لذلك ؟

– اعتقد ان ذلك سيكون افضل الآن .

– كـ . . . كلا – قال نيكولاي بتروفيتش متلعثماً ومسح جبهته – كان ينبغي القيام بذلك قبل الآن . . . مرحباً ، يا عزيزي – قال بانتعاش مفاجىء واقترب من الطفل فقبلـــه في وجنته ، ثم انحنى قليلا ومس بشفتيه يد فينيتشكا التي بدت بيضاء كالحليب على قميص ميتيا الاحمر .

– ماذا دهاكم ، يا نيكولاي بتروفيتش ؟ ! – همست وغضت بصرها ، ثم رفعت عينيها بهدوء . . . كان رائعاً تعبير عينيها عندما تسلط نظراتها المنبعثة من تحت الجبين وتضحك بحنان وبشيء من البلادة .

تعرف نيكولاي بتروفيتش على فينيتشكا بالشكل التالي : ذات مرة اضطر قبل ثلاثة اعوام ان يصرف الليل في خان بمدينة صغيرة نائية . وقد سر ودهش لنظافة الغرفة التي خصصت له ولنظافة شراشف الفراش ، فخطرت على باله فكرة : «لعل صاحبة الخان المانية» . ولكنه اتضح له ان صاحبة الخان امرأة روسية في حوالي الخمسين من العمر ترتدي فستاناً انيقاً وتتحلى بمحيا ذكي مليح ولهجة رزينة . تحدث معها اثناء تناول الشاي ، فاعجب بها كثيراً . كان نيكولاي بتروفيتش آنذاك قد انتقل تواً الى داره الجديدة وما كان راغباً في ابقاء الاقنان معه ، فصار يبحث عن اجراء . وكانت صاحبة الخان قد تشكت ، بدورها ، من قلة عدد القادمين الى المدينة ومن مصاعب الدهر ، فاقترح عليها ان تشتغل لديه بمثابة مدبرة المنزل ، فوافقت . كان زوجها قد توفى منذ زمان وترك لها بنتاً وحيدة هي فينيتشكا . وبعد زهاء اسبوعين وصلت آرينا سافيشنا (وهذا هو اسم مدبرة المنزل الجديدة) مع

ابنتها الى مارينـــو وسكنت في الجناح . واتضح ان نيكولاي بتروفيتش قد وفق في الاختيار ، فقد رتبت آرينا شؤون الدار على ما يرام . اما فينيتشكا التي تجاوزت آنذاك السابعة عشرة من العمر فلم يتكلم عنها احد ونادراً ما كانت تُرى : فقد عاشت بهدوء وتواضع . وفي الآحاد فقط كان نيكولاي بتروفيتش يلاحظ في زاوية ما من زوايا كنيسة الابرشية جانباً من وجهها الابيض الرقيق . مر اكثر من عام على هذا المنوال .

ذات صباح حضرت آرينا اليه في المكتب وانحنت ، عـــلى عادتها ، انحناءة شديدة ورجته ان يعالج ابنتها التي اصابتهـــا شرارة من الفرن في عينها . كان نيكولاي بتروفيتش ، شأنه شأن جميع الذين يلازمون منازلهم ، قد مارس العلاج ، حتى انه اقتنى صندوق ادوية منزلياً . امر آرينا ان تحضر المصابة فوراً . وعندما علمت فينيتشكا ان السيد يدعوها اليه اعتراها جبن شديد ، ولكنها تبعت امها مع ذلك . اقتادها نيكولاي بتروفيتش الى النافذة وامسك رأسها بكلتا يديه . تفحص جيداً عينها المتورمة المحمرة ونصح باستخدام غسول اعده بنفسه في الحال ، ثم مزق منديله الى عدة قطع وبين لها كيف ينبغي غسل العين . استمعت اليه فينيتشكا ثم همت بالخروج ، الا ان آرينا قالت لها : «قبلي يد السيد ، يا حمقاء» . ولم يمد لها نيكولاي بتروفيتش يده ، بـــل قبلها هو ، مرتبكاً ، في مفرق شعر رأسها المنحني . وسرعان مـــا شفيت عين فينيتشكا ، ولكن الانطباع الذي تركته في نيكولاي بتروفيتش لم يمح بسرعة . كان يلوح في مخيلته دوماً ذلك الوجه النضير الرقيق المتطلع بشيء من الخوف . وقد احس تحت راحتي يديه بذلك الشعر الناعم ، وشهد تينـــك الشفتين العذراوين المنفرجتين قليلاً عن اسنان لؤلؤية تلمع ندية في الشمس . صار يتطلع اليها في الكنيسة باهتمام اكبر ويسعى الى التحدث معها . كانت في بادىء الامر تتجنبه ، وذات مرة لمحته ، قبيل المساء ، في درب ضيق شقه المارة عبر حقل الجودار ، فاندست بين السنابل الكثيفة العالية المختلطة بالشيح وبازهار العنبر ، كيلا تقع انظاره عليها . ولكنه لمح رأسها بين السنابل الذهبية وهي تتطلع كالوحش الصغير ، فهتف برقة :

– مرحباً ، يا فينيتشكا ! انا لا اعض .

– مرحباً . – همست دون ان تغادر كمينها .

وصارت تتعود عليه شيئاً فشيئاً ، لكنها ظلت تشعر بالخجل في حضوره ، الى ان توفيت امها بالكوليرا . فالى اين تتجه فينيتشكا ؟ لقد ورثت عن امها حب النظام والتعقل والرزانة . ولكن ما انضر فتوتها وما اشد وحدتها ! وما اطيب نيكولاي بتروفيتش وما اكثر تواضعه ! اما الباقي فلا داعي لذكره . . .

– دخل اخي عليك هكذا ببساطة ؟ طرق الباب ودخل ؟ ! – سألها نيكولاي بتروفيتش .

– اجل ، يا سيدي .

– تلك بادرة حسنة . اعطيني ميتيا كي الاعبه .

واخذ نيكولاي بتروفيتش يقذفه حتى السقف تقريبا ، مما اثار اشد المرح لدى الطفل ، كما اثار قدراً غير ضئيل من القلق لدى الام التي صارت تمد يديها نحو رجليه العاريتين في كل قذفة يتلقاها .

اما بافل بتروفيتش فقد عاد الى مكتبه الانيق ، الى الجدران المزينة بورق جميل ذي لون غريب ، وبسجادة فارسية زاهية علقت عليها اسلحة ، والاثاث الجوزى المنجّد بحرير اخضر غامق ، والمكتبة المصنوعة من خشب البلوط الاسود القديم (على طراز عصر النهضة) * . والتماثيل البرنزية الصغيرة على طاولة الكتابة الرائعة والمدفأة الحائطية . . . ارتمى على الاريكة واشبك يديه تحت رأسه وظل جامداً ينظر الى السقف بما يشبه القنوط . ولا احد يعلم ما اذا كان يريد ان يخفي حتى عن الجدران تلك المسحة التي طغت على وجهه او ما اذا كان هناك سبب آخر جعله ينهض فيسدل الستائر الثقيلة على النوافذ ، ثم يهوى على الاريكة من جديد .

٩

في نفس ذلك اليوم تعرف بازاروف على فينيتشكا . كان يتجول مع اركادي في البستان ويبين له السبب الذي منع بعض الشجيرات

* في الاصل بالفرنسية Renaissance .

المغروسة فيه ، وخصوصاً البلوط ، من ان تمد جذورها :

– ينبغي غرس المزيد من اشجار الحور الفضي والشوح ، بل والزيزفون واضافة شيء من التربة الخصبة اليها . – ثم واصل كلامه قائلا : – لماذا نمت هذه التعريشة جيداً ؟ ذلك لان الاقاصيا والليلاك شجيرات طيبة لا تحتاج الى رعاية . عجباً ، هناك اناس .

كانت في التعريشة فينيتشكا ودونياشا وميتيا . توقف بازاروف ، وحنى اركادي رأسه لفينيتشكا ، كما يحنيه لشخص من معارفه القدامى . فسأله بازاروف حالما ابتعدا قليلا :

– من هذه ؟ ما احلاها !

– عمن تتكلم ؟

– ليس هناك غير واحدة حلوة .

اوضح له اركادي باختصار وبشيء من الارتباك من هي فينيتشكا . فقال بازاروف :

– اها ! لابيك ذوق جيد على ما يبدو . انه يعجبني ، والله ! يا له من مقدام ! ولكن ينبغي ان اتعرف عليها – اضاف بازاروف واتجه عائداً نحو التعريشة . فصاح به اركادي مذعوراً :

– يفغيني ! احذر ، بالله عليك .

– لا تقلق . فنحن اناس محنكون ، عشنا في المدن .

اقترب بازاروف من فينيتشكا فرفع قبعته وبدأ كلامه بانحناءة مؤدبة :

– اسمحي لي بان اقدم نفسي : صديق اركادي نيكولايفيتش ، وانا انسان وديع .

نهضت فينيتشكا من المقعد ونظرت اليه بصمت . فواصل بازاروف كلامه :

– ما اروع هذا الطفل ! لا تقلقي فانا لم احسد احداً بعد . لماذا احمرت وجنتاه الى هذا الحد ؟ هل بدأت اسنانه تنبت ام ماذا ؟

– اجل ، يا سيدي . – اجابت فينيتشكا – ظهرت لديه اربع اسنان ، ولكن لثته تورمت من جديد .

– ناوليني اياه . . . لا تخشى شيئاً ، فانا طبيب .

اخذ بازاروف الطفل الذي لم يبد اية مقاومة ولم يرتعب ، مما اثار دهشة فينيتشكا ودونياشا .

– ها انا ذا ارى . . . لا بأس ، كل شيء على ما يرام : سيكون حاد الاسنان . اذا حدث ما يسيء اخبريني . وانت هل تشكين من شيء ؟
– كلا ، والحمد لله .
– الحمد افضل من اسواه . وانت ؟ – اضاف بازاروف ملتفتا الى دونياشا .
اكتفت دونياشا ، وهي فتاة عبوس في الدار وضحوك فيما عداها ، بان انفجرت ضاحكة رداً عليه .
– طيب . خذي طفلك العملاق .
اخذت فينيتشكا طفلها وقالت بصوت خافت :
– عجباً ، ما أهدأه معكم .
– كل الاطفال هادئون معي ، فانا اعرف سرهم – اجاب بازاروف ، فعلقت دونياشا :
– الاطفال يشعرون بمن يحبهم .
واكدت فينيتشكا ذلك قائلة :
– بالضبط . ميتيا لا يقبل ابداً ان يأخذه شخص اخر .
– وانا ، هل سيقبلني ؟ – سأل اركادي الذي وقف بعيداً بعض الوقت ثم اقترب من التعريشة .
حاول اغراء ميتيا ليأتي اليه ، ولكن هذا ازاح رأسه الى الوراء وشرع بالبكاء ، مما جعل فينيتشكا ترتبك كثيرا . فقال اركادي متساهلا :
– في مرة اخرى ، عندما يتسع الوقت ليتعود عليّ .
ابتعد الصديقان ، فسأل بازاروف :
– ما اسمها يا ترى ؟
– فينيتشكا . . . فيدوسيا – اجابه اركادي .
– واسم ابيها ؟ ينبغي معرفته ايضا .
– نيكولايفنا .
– (حسنا) * . يعجبني فيها انها ليست خجولة جدا . يمكن لشخص اخر ، في اغلب الظن ، ان يلومها على ذلك بالذات . ولكن ما هذا الهراء ؟ ممّ الخجل ؟ انها ام وهي محقة .

* في الاصل باللاتينية Bene .

– هي محقة ، لا شك، ولكن ابي . . . – قال اركادي .
– وهو محق ايضا – قاطعه بازاروف .
– كلا ، لا اعتقد .
– يبدو ان وريثاً آخر لا يعجبك ، أليس كذلك ؟
– عيب عليك ان تظن بي ذلك – قال اركادي حانقا – انني اعتبر والدي غير محق ليس من هذه الناحية ، بل اعتقد انه ينبغي عليه ان يتزوجها .
– بخٍ ، بخٍ ! – قال بازاروف بهدوء – ما اعظم نبلنا ! انك لا تزال تعلق اهمية على الزواج . لم اكن اتوقع منك ذلك .
خطا الصديقان بضع خطوات صامتين . ثم شرع بازاروف يتكلم من جديد :
– رأيت كل شيء في مزرعة ابيك . الدواب عجاف والخيول محطمة الحوافر والمباني في حالة يرثى لها ، والعاملون كسالى الى اقصى حد . اما الوكيل فهو اما احمق واما محتال . لم اتأكد من ذلك بعد بالشكل اللازم .
– ما اشد صرامتك اليوم ، يا يفغيني فاسيليفيتش !
– والفلاحون الطيبون يخدعون اباك من كل بد . انت تعرف القول المأثور : «الفلاح الروسي يأكل حتى ربه» .
– اكاد اتفق مع عمي ، فلديك فكرة سيئة تماماً عن الروس .
– وما اهمية ذلك ! ليس في الروسي افضل من فكرته السيئة عن نفسه . المهم ان اثنين في اثنين يساوي اربعة . وما عدا ذلك فهو تفاهة .
– والطبيعة تفاهة ايضا ؟ – سأل اركادي وهو ينظر متأملا في ابعاد الحقول الزاهية وقد انارتها على نحو جميل شفاف اشعة الشمس المائلة الى المغيب .
– الطبيعة كذلك تفاهة بالمعنى الذي تفهمها به انت . فالطبيعة ليست معبدا ، وانما هي ورشة ، والانسان عامل فيها .
تهادت اليهما من الدار في تلك اللحظة اصوات فيولونسيل متباطئة . كان شخص ما يعزف «انتظار» شوبرت متحمساً بالرغم من قلة مهارة يده ، وكانت الموسيقى العسلية تنساب في الهواء كالشهد . فسأل بازاروف معجباً :
– من هذا يا ترى ؟



– ابي .
– ابوك يعزف على الفيولونسيل ؟
– اجل .
– وكم عمره ؟
– اربعة واربعون .
قهقه بازاروف فجأة .
– ما الذي يضحكك ؟
– كيف لا ! شخص في الرابعة والاربعين ، (رب عائلة) * في الريف يعزف على الفيولونسيل !
ظل بازرواف يقهقه ، ولكن اركادي لم يبتسم هذه المرة ،الرغم من كل اعجابه بصديقه ومعلمه .

١٠

مضى اسبوعان تقريباً . سارت الحياة في مارينو على منوالها : اركادي يتنعم وبازاروف يعمل . تعود الجميع في الدار على بازاروف وعلى اسلوبه المستهين والفاظه المبتسرة المتقطعة . ورفعت الكلفة بينه وبين فينيتشكا خصوصا ، حتى انها امرت ذات ليلة بايقاظه من النوم لان تشنجاً انتاب ميتيا . حضر بازاروف وعالج الطفل وقضى هناك زهاء ساعتين وهو على عادتـــه تارة ينكت وتارة يتثاءب . غير ان بافل بتروفيتش كره بازاروف بكل جوانحه . كان يعتبره متعالياً سليطاً ودهماوياً وقحاً . وخيل اليه ان بازاروف لا يحترمه ويكاد يحتقره هو بافل كيرسانوف ! وكان نيكولاي بتروفيتش يخشى «النهلستي» بعض الشيء ويرتاب في جدوى تأثيره على اركادي ، ولكنه يستمع الى احاديثه باهتمام ويحضر باهتمام ايضاً تجاربه الفيزياوية والكيمياوية . كان بازاروف قد احضر معه مكرسكوباً وصار يصرف الساعات الطوال معه . وتعلق الخدم به ايضاً ، بالرغم من انه كان يمزح معهم لا اكثر . فقد احسوا بانه ، مع ذلك ، اخ لهم وليس سيداً . كانت دونياشا تتضاحك

* في الاصل باللاتينية pater familias .

معه برغبة وتسلط عليه نظرات منحرفة ذات معنى عندما تمر به مسرعة «كالسمانة» . وحتى بيوتر ، ذلك الانسان المغالي في التباهي والمفرط في الغباء بتجاعيده المتوترة دوماً على جبهتــه ، والذي كان احسن ما فيه هو انه ذو نظرة تنطوي على الاحترام وانه يقرأ تهجيا ، وكثيرا ما ينظف بزته بالفرشاة ، صار يبتسم وتنفرج اساريره حالما يلتفت اليه بازاروف . كان ابناء الخدم والحشم يتراكضون وراء «الدختور» كالجراء . ولم يبغضه من الخدم غير بروكوفيتش العجوز الذي يقدم له الطعام على المائدة عابسا ، وينعته «بالجزار» و«الوغد» ، ويؤكد انه ، بفوديه الطويلين ، خنزير حقيقي في دغل . وكان بروكوفيتش ، على طريقته الخاصة ، ارستقراطياً ليس ادنى من بافل بتروفيتش .

حلت افضل ايام العام ، الايام الاولى من يونيو . كان الطقس رائعاً . غير ان الكوليرا كانت تتهدد وتتوعد من بعيد ، ولكن سكان هذا اللواء اعتادوا على زيارتها . كان بازاروف ينهض مبكرا جدا ويتوجه الى مسافة كيلومترين او ثلاثة ليس لغرض التجوال – فلم يكن يطيــق الجولات دون هدف – بل لغرض جمــع الاعشاب والحشرات . وفي بعض الاحيان يصطحب اركادي ، فيدور بينهما ، عادة ، في طريق العودة جدل اعتاد اركادي ان يكون الخاسر فيــه بالرغم من انه يتكلم اكثر من رفيقه .

ذات مرة تأخرا امداً طويــلاً . فخرج نيكولاي بتروفيتش للقائهما في البستان . وعندما اقترب من التعريشة سمع فجأة خطوات الشابين السريعة وصوتيهما . كانا يسيران في الجانــب الآخر من التعريشة وليس بوسعهما ان يرياه . قال اركادي :

– معرفتك بابي غير كافية .

فاختبأ نيكولاي بتروفيتش . في حين اجاب بازاروف :

– ابوك رجل طيب . ولكنه انسانٌ متقاعد حانت نهايته .

ارهف نيكولاي بتروفيتش السمــع . . . ولم يحر اركادي جوابا .

صرف «الانسان المتقاعد» زهاء دقيقتين بلا حراك ثم عاد الى الدار خلسة وببطء . بينما واصل بازاروف كلامه :

– رأيته اول امس وهو يقرأ اشعار بوشكين . قل له من فضلك ان ذلك لا جدوى فيه . فهو ليس غلاما : لقد حان الوقت

لترك هذه التفاهة . فمن الذي يرغب في ان يغدو رومانسياً في الآونة الراهنة ؟ ! اعطه شيئاً ما جيداً للقراءة .

– ماذا اعطيه ؟

– اظن من الافضل ان تعطيه في البداية «المادة والقوة» * لبوخنر .

– رايي من رأيك . فان «المادة والقوة» * * مكتوب بلغــة سلسة – قال اركادي مؤيدا .

بعد ظهر ذلك اليوم حدث نيكولاي بتروفيتش اخاه وهو جالس في مكتبه :

– هكذا صرت واياك في عداد المتقاعدين ، وقد حانت نهايتنا . من يدري ؟ ربما بازاروف على حق . ولكن الشيء الوحيد الذي يؤلمني ، واقولها صراحة ، هو اني كنت آمل بان اعيش مع اركادي الآن بالذات بود ووئام ، ولكن اتضح اني بقيت متخلفـــاً ، بينما تقدم هو الى الامام ، ولا يمكن ان يفهم بعضنا بعضا .

فهتف بافل بتروفيتش بنفاد صبر :

– ما الذي جعله يتقدم الى الامام ؟ وبم يختلف اختلافاً كبيراً عنا ؟ كل ذلك غرسه في ذهنه هذا السنيور النهلستي . انني اكره هذا الطبيب التافه ، ويخيل الي انه دجال لا اكثر . انا واثق من انه لم ينجز في الفيزياء شيئاً بجميع ضفادعه .

– كلا ، يا اخي ، لا تقل ذلك . بازاروف ذكي وعلامة .

– ثم ان غروره شيء مقيت – قاطعه بافل بتروفيتش من جديد . فوافقه اخوه :

– اجل ، انه مغرور . يبدو ان ذلك امر لا مفر منه . ولكن الشيء الوحيد الذي لا افهمه هو اني ابذل قصارى جهدي ، على ما اظن ، كيلا اتخلف عن العصر : دبرت امور الفلاحين وانشأت مزرعة حتى صار الناس في اللواء كله ينعتونني **بالاحمر** ، وانـــا اطالع واتعلم واحاول عمومـــا ان اكون على مستوى المتطلبات العصرية ، ومع ذلك يقولان ان نهايتي قد حانت . بل اني بنفسي اخذت افكر ، يا اخي ، ان نهايتي قد حانت بالفعل .

* في الاصل بالالمانية Stoff und Kraft ، كتاب العالم الفسلجـــي الالماني فريدريك بوخنر (١٨٢٤–١٨٩٩) – **المترجم** .

* * في الاصل بالالمانية .

– لماذا ؟

– لانني عندما كنت اليوم اقرأ بوشكين . . . وقعت في يدي ملحمة «الغجر» ، على ما اتذكر . . . اقترب مني اركادي في الحال ، وانتزع الكتاب بصمت وهدوء وبأسف حنون على وجهه كما لو انتزعه من طفل غرير ووضع امامي كتابا آخر بالالمانية . . . ثم ابتسم وذهب واخذ معه بوشكين .

– هكذا اذن ! واي كتاب اعطاك ؟

– ها هو .

اخرج نيكولاي بتروفيتش من الجيب الخلفي لبزته الطبعة التاسعة من كراس بوخنر بالذات .

قلّبه بافل بتروفيتش بيديه ، فقال :

– احم ! اركادي مهتم بتربيتك . ماذا ، هل حاولت ان تقرأه ؟

– حاولت .

– وماذا ؟

–فاما اني غبي ، واما ان هذا كله هراء . الارجح اني غبي .

– ألم تنس الالمانية ؟

– لا ازال افهمها .

قلّب بافل بتروفيتش الكتاب من جديد والقى على اخيه نظرة عابسة . ولزم كلاهما الصمت . ثم قال نيكولاي بتروفيتش في محاولة لتغيير مجرى الحديث على ما يبدو :

– بالمناسبة ، تسلمت رسالة من كوليازين .

– من ماتفي ايليتش ؟

– نعم . وصل لتفتيش اللواء . واصبح من الكبار ، ويريد ، كما كتب ، ان يرانا باعتبارنا اقرباءه وقد دعانا مع اركادي الى المدينة .

– هل ستذهب ؟ – سأل بافل بتروفيتش .

– كلا ، وانت ؟

– لن اذهب انا ايضا . ليس هناك ما يستحق ان نقطع اكثر من خمسين كيلومترا . (ماثيو) * يريد ان يعرض علينا امجاده ،

* في الاصـــل بالفرنسية Mathieu ، يقصد ماتفي كوليازين – **المترجم** .

فليذهب الى الشيطان ! يكفيه بخور اللواء وحده ، ولا داعي لنحرق نحن ايضا البخور امامه . ثم ما قيمة المستشار السري ؟ ! لو كنت واصلت هذه الخدمة الروتينية الغبية لغدوت الآن جنرالاً . زد على ذلك انني واياك متقاعدان .

— اجل ، يا اخي ، يبدو ان الوقت قد حان لاعداد التابوت وتصليب اليدين على الصدر — قال نيكولاي بتروفيتش متنهدا . فدمدم اخوه :

— كلا ، لن استسلم بهذه السرعة . امامنا بعد مناوشة مع هذا الطبيب الصعلوك ، انني اتوقع ذلك .

حدثت المناوشة في نفس ذلك اليوم اثناء احتساء شاي المساء . دخل بافل بتروفيتش غرفة الاستقبال مستعدا للمعركة . كان مستثاراً منفعلا ، لا ينتظر غير توفر الحجة للانقضاض على العدو . ولكن الحجة لم تتوفر لامد طويل . بازاروف على العموم قليل الكلام بحضور «العجوزين كيرسانوف» (هكذا نعت الاخوين) . وفي ذلك المساء كان مزاجه متعكراً ، فأخذ يحتسي الشاي ، صامتاً ، فنجاناً اثر آخر . وظل بافل بتروفيتش على احر من الجمر حتى تحققت رغبته في آخر الامر .

تطرق الحديث الى احد الاقطاعيين المجاورين . فقال بازاروف بلا مبالاة ، وكان قد تقابل معه في بطرسبورغ : — «ارستقراطي مزيف دنيء» . فبدأ بافل بتروفيتش كلامه وشفتاه ترتعشان :

— اسمح لي ان أسألـــك ، هل تعني كلمتا «ارستقراطي» و«دنيء» ، بمفهومك ، شيئاً واحداً ؟

— قلت «ارستقراطي مزيف» — اجاب بازاروف وهو يرتشف بكسل جرعة من الشاي .

— بالضبط ، ولكني اعتقد ان رأيـــك هو ذاته بخصوص الارستقراطيين الحقيقيين والارستقراطيين المزيفين على حد سواء . ارى من واجبي ان اعلن لك بانني لا اشاطرك هذا الرأي . واتجرأ على القول ان الجميع يعرفونني انساناً لبرالياً محباً للتقدم ، ولذلك بالذات فانا احترم الارستقراطيين الحقيقيين . تذكر ، يا سيدي الجليل ، (رفع بازاروف بصره الى بافل بتروفيتش لدى سماعه هذه الكلمات ، فكرر هذا قوله بشدة) تذكر ، يا سيدي الجليل ، الارستقراطيين الانجليز . انهم لا يتنازلون عن ذرة من حقوقهم ،

ولذلك فهم يحترمون حقوق الآخرين ، انهم يطالبون بتنفيذ الواجبات ازاءهم ولذلك ينفذون واجباتهم هم . الارستقراطية منحت بريطانيا الحرية وهي تحافظ عليها .

فاعترض عليه بازاروف :

— سمعنا هذه الاغنية مرات عديدة . ولكن ما الذي تريـــد اثباته بهذا ؟

— اريد **بهيذا** ، يا سيدي الجليل ، (كان بافل بتروفيتش حينما يغضب يقول متعمداً «هيذا» ، «بهيذا» ، مع انه يعلم جيداً ان قواعد اللغة لا تسمح بذلك . وتجلت في هذه العادة الغريبة مخلفات تقاليد عهد الاسكندر (٦٤) . ففي الحالات النادرة التي كان كبار الشخصيات آنذاك يتكلمون فيها باللغة الام كان بعضهم يستخدم كلمة «هيذا» والبعض الاخر كلمة «هوذا» بدلاً من «هذا» ، ولسان حالهم يقول : نحن روس اقحاح ولكننا في الوقت ذاته وجهاء يجوز لنا ان نستهين بالقواعد المدرسية) اريد **بهيذا** ان اثبت انه بدون شعور الكرامة الشخصية ، وبدون احترام النفس — وهذه المشاعر متطورة لدى الارستقراطية — لا يمكن وجود اي اساس متين (لخير المجتمع) * . للكيان الاجتماعي . ان شخصية الفرد ، يا سيدي الجليل ، هي الامر الرئيسي . ويتعين على شخصيـــة الانسان ان تكون متينة كالصخرة لان كل شيء يبنى عليها . وانا اعلم جيدا بانك ، مثلا ، ترى عاداتي ، وهندامي ، واناقتي في الاخير ، امرا مضحكا ، ولكنني افعل ذلك كله بدافع من احترامي لنفسي ، وبدافع من شعوري بالواجب ، اجل ، يا سيدي ، بالواجب . انني اعيش في القرية ، في الريف ، ولكنني لا اتضع ، فانا احترم الانسان الكامن في دخيلتي .

فقال بازاروف :

— اسمح لي ، يا بافل بتروفيتش . انك تحترم نفســـك وتجلس مكتوف اليدين ، فما نفع ذلك (لخير المجتمع ؟) ** بوسعك ان لا تحترم نفسك ، مثلا ، فلا يتغير في الامر شيء .

شحب لون بافل بتروفيتش :

---

* في الاصل بالفرنسية bien public .

** في الاصل بالفرنسية .

– هذه مسألة اخرى تماماً . لست بحاجة لاوضح لك الآن لماذا اجلس مكتوف اليدين على حد تعبيرك . اكتفي بالقول ان النزعة الارستقراطية مبدأ ، ولا يستطيع ان يعيش بدون مبادئ في عصرنا الا اللاأخلاقيون او الفارغون . قلت ذلك لاركادي في اليوم التالي من وصوله واكرره لك الآن . أليس كذلك يا نيكولاي ؟

هز نيكولاي بتروفيتش رأسه بالايجاب ، في حين قال بازاروف :

– ارستقراطية ، لبرالية ، – ما اكثر الكلمات الاجنبية . . . العديمة الجدوى ! الروسي ليس بحاجة الى هذه الكلمات مطلقا .

– فما الذي هو بحاجة اليه باعتقادك ؟ عندما نستمع اليك يخيل الينا اننا خارج البشرية وخارج قوانينها . معذرة ، ان منطق التاريخ يتطلب . . .

– ما نفع هذا المنطق ؟ – قال بازاروف – نحن في غنى عنه .

– كيف ؟

– بكل بساطة . انت ، على ما اعتقد ، لا تحتاج الى المنطق لكي تضع كسرة الخبز في فمك عندما تشعر بالجوع . فأين انت ، حينئذ ، من تلك التجريدات ؟

لوح بافل بتروفيتش بيده يائسا :

– انني لا افهمك بعد هذا كله . انت تهين الشعب الروسي . لا افهم كيف يمكن عدم الاعتراف بالمبادئ والاصول ! فبأية قوة تعملون ؟

– قلت لك ، يا عمي ، اننا لا نعترف بالشخصيات – تدخل اركادي في الحديث . فقال بازاروف :

– نحن نعمل مدفوعين بتأثير ما نعتبره نافعاً . وفي الحال الحاضر يعتبر الرفض انفع شيء . لذا فنحن نرفض .

– كل شيء ؟

– كل شيء .

– كيف ؟ ليس الفن والشعر فقط . . . بل وحتى ال . . . لا اتجرأ على ذكره . . . يا للفظاعة . . . (٦٥)

– كل شيء – كرر بازاروف بمنتهى الهدوء .

حدق فيه بافل بتروفيتش . فلم يكن يتوقع ذلك ، بينما احتقن

وجه اركادي من شعوره بالارتياح . فشرع نيكولاي بتروفيتش يتكلم :

– معذرة ، انكم ترفضون كل شيء ، او على الاصح تهدمون كل شيء . . . ولكن يجب البناء ايضا .

– ليس ذلك من واجبنا . ينبغي تطهير المكان اولا .

واضاف اركادي بلهجة ذات شأن :

– حالة الشعب الراهنة تتطلب ذلك . وعلينا ان ننفذ هذه المطالب ، فليس لنا حق في الانهماك بارضاء الانانية الفردية .

يبدو ان هذه العبارة الاخيرة لم تعجب بازاروف ، فقد كانت تفوح منها رائحة الفلسفة ، اي الرومانسية ، ذلك لان بازاروف نعت الفلسفة ايضا بالرومانسية ، ولكنه لم ير ضرورة لدحض رأي تلميذه الفتي . بيد ان بافل بتروفيتش هتف بحماس مفاجئ :

– كلا ، ثم كلا ! لا اصدق بانكما ، ايها السيدان ، تعرفان الشعب الروسي حق المعرفة ، وتمثلان متطلباته ومطامحه ! كلا ، فالشعب الروسي ليس بالشكل الذي تتصورانه . انه يحترم قدسية التقاليد ، ويمجد الآباء ، ولا يمكن ان يعيش بدون ايمان . . .

فقاطعه بازاروف :

– لن اجادل في ذلك ، بل انني مستعد للموافقة على انك محق فيه .

– واذا كنت محقاً . . .

– ومع ذلك فهذا لا يدلل على شيء .

– بالفعل ، لا يدلل على شيء – كرر اركادي هذا القول بثقة لاعب الشطرنج الماهر الذي توقع نقلة الخصم الخطرة ، على ما يبدو ، ولكنه لم يرتبك قيد شعرة . بيد ان بافل بتروفيتش دمدم مبهوتا :

– كيف لا يدلل على شيء ؟ افلا يعني ذلك انكما ضد شعبكما ؟

– فليكن . – هتف بازاروف – عندما يهدر الرعد يتصور الشعب ان الرسول ايليا يتجول على عربته في السماء . فماذا ؟ هل عليّ ان اوافقه ؟ ثم انه روسي ، وانا ؟ ألست روسيا ؟

– كلا ، لست روسياً بعد كل ما قلته الآن ! لا استطيع ان اعتبرك روسياً .

فرد بازاروف بتفاخر وكبرياء :

– كان جدي يحرث الارض . اسأل اي فلاح من فلاحيكم هل يعتبرك انت ام يعتبرني انا قريبا له ؟ بل انك لا تجيد حتى الكلام مع الفلاح .

– اما انت فتتكلم معه وتحتقره في الوقت ذاته .

– لا ضير في ذلك اذا كان يستحق الاحتقار ! انت تلومني على اتجاهي هذا ، فمن قال لك انه ظهر لدي بالصدفة ، وان مبعثه ليس هو نفس تلك الروح الشعبية التي تدافع عنها ؟

– طبعاً ! طبعاً ! ما احوج الشعب الى النهلستيين !

– لا يحق لك ان تحكم هل هناك حاجة الى النهلستيين ام لا . ثم انك تعتبر نفسك ايضا شخصاً نافعاً .

– يـــا سادة ، ارجوكـــم ، يا سادة ، لا تتعرضوا للاشخاص ! –هتف نيكولاي بتروفيتش وهمّ بالنهوض . الا ان بافل بتروفيتش ابتسم واضعا يده على كتف اخيه ، فحمله على الجلوس من جديد . وقال له :

– لا تقلق . فانا لن انحدر الى ذلك بحكم الشعور بالكرامة التي يسخر منها ، بقساوة ، السيد . . . السيد الطبيب . معذرة – واصل كلامه مخاطبا بازاروف من جديد – ربما تظن ان مذهبك هذا جديد ، أليس كذلك ؟ عبثا تتصوره على هذا النحو . فالمادية التي تبشر بها كانت على الالسنة اكثر من مرة ، ولكن بطلانها كان يتضح على الدوام . . .

– وها هي كلمة اجنبية * اخرى ! – قاطعه بازاروف وبدا عليه الغضب فاكتسى وجهه بلون نحاسي خشن – نحن لا نبشر بشيء ، ذلك ليس من عاداتنا .

– فما الذي تفعلونه ؟

– اليكم ما نفعله : في السابق ، في الماضي غير البعيد ، كنا نقول ان موظفينا يستلمون الرشاوى ، وانه ليست لدينا لا طرق ولا تجارة ولا قضاء عادل . . .

– اجل ، اجل ، انكم نقاد متشددون ، هكذا يسمى ذلك على ما اظن . انا موافق على الكثير من انتقاداتكم ، ولكن . . .

* يقصد مصطلح «المادية» الذي هو بالروسية ايضا لاتيني الاصل (materialism) – **المترجم** .

– ثم ادركنا ان الثرثرة ، الثرثرة وحدها عن عللنا من اسهل الامور ، وان ذلك يؤدي الى الابتذال والتحذلق فقط . ورأينا كذلك ان النابهين من بيننا ، اولئك الذين ينعتون بالتقدميين والنقاد المتشددين ، لا يصلحون لشيء ، واننا غارقون في السخافات ، واننا نتشدق في الكلام عن الفن والابداع العفوي ، والنزعة البرلمانية والمحاماة وغير ذلك مما لا يعرفه الا الشيطان وحده ، في حين ان المطلوب هو الخبز الكفاف . الخرافات المرهقة تخنقنا ، وشركاتنا المساهمة تفلس وتنهار لسبب واحد هو قلة الناس النزيهين ، والحرية التي تجهد الحكومة في تأمينها لا تكاد تعود علينا بنفع لان فلاحنا مستعد لان يسرق نفسه بنفسه لا لشيء الا ليتجرع المسكرات في الحانة .

فقاطعه بافل بتروفيتش :

– لذا اقتنعتم بهذا كله وقررتم ان لا تباشروا بأي عمل جدي .

– قررنا ان لا نباشر باي عمل – كرر بازاروف متجهما .

لقد حزن لنفسه فجأة ، فما الداعي للصراحة امام هذا الاقطاعي . . .

– ما عدا الشتم والسباب ، أليس كذلك ؟

– ما عدا الشتم والسباب . . .

– وهذا يسمى نهلستية ؟

– وهذا يسمى نهلستية – كرر بازاروف بتسلط شديد هذه المرة .

اغمض بافل بتروفيتش جفنيه بعض الشيء وقال بصوت بدا غريبا لهدوئه :

– هكذا اذن ، يعني ان النهلستية دواء لكل داء . وانكم مخلّصونا وابطالنا . ولكن ماذا فعل الآخرون ، النقاد الاخرون مثلا ، ليستحقوا ملامتكم ؟ افلا تثرثرون انتم ايضا كالآخرين ؟

فتمتم بازاروف :

– ربما لدينا خطايا اخرى ، ولكن ليست هذه الخطيئة منها .

– فماذا اذن ؟ هل تفعلون شيئا يا ترى ؟ او هل تنوون فعل شيء ؟

لم يجبه بازاروف . فارتعش بافل بتروفيتش منفعلا ، ولكنه

سيطر على نفسه في الحال ثم تابع كلامه :

– احم ! انهم يفعلون ، يهدمون . . . ولكن كيف يجوز الهدم دون معرفة الغرض منه ؟

– اننا نهدم ، لاننا قوة – قال اركادي .

فالقى بافل بتروفيتش نظرة على ابن اخيه وابتسم ساخرا .

فكرر اركادي وهو يعدّل من قامته :

– اجل نحن قوة لا تطأطئ رأسها لاحد .

– مسكين ! – جأر بافل بتروفيتش ، فلم يعد يطيق المزيد ابداً – هلا فكرت ما فائدة مواعظك التافهة هذه في روسيا ! كلا ، حتى الملاك يمكن ان يضيق ذرعا بذلك ! قوة ! القوة موجودة لدى القلموقي * المتوحش ولدى المغولي ايضا ، فما حاجتنا اليها ؟ اننا نعتز بالحضارة ، اجل ، اجل يا سيدي الجليل ، نعتز بثمارها . فلا تقل لي ان هذه الثمار ضئيلة : ان (أردأ رسام) ** وأسوأ عازف من الذين يتسلمون خمسة كوبيكات لقاء الحفلة الواحدة انما هما اكثر نفعا منكم ، لانهما يمثلان الحضارة ، ولا يمثلان القوة المغولية الفظة ! تتصورون انفسكم اناسا تقدميين ، بينما لا يعوزكم غير الجلوس في خيمة القلموق ! قوة ! تذكروا اخيرا ، ايها السادة الاقوياء ، ان عددكم لا يزيد على اصابع اليد ، بينما يشكل اولئك ملايين من الذين سيسحقونكم ولن يسمحوا لكم ان تدوسوا باقدامكم اقدس اقداسهم !

فقال بازاروف : – اذا كانوا سيسحقوننا فليكن . ولكن تلك مسألة فيها نظر . ثم ان عددنا ليس بالقليل ، كما تتصور .

– كيف ؟ هل تفكرون بلا مزاح ان تتغلبوا على شعب بكامله ؟

– انت تعرف ان موسكو احترقت من شمعة بخسة – اجاب بازاروف .

– هكذا اذن . من الكبرياء التي تكاد تشبه كبرياء الشيطان الى التهكم . ذلك ما يولع به الشباب ، وذلك ما تنصاع له افئدة الغلمان غير المحنكة ! انظر ، ها هو احدهم يجلس قربك ، انه يكاد يصلي لك ، فمتع انظارك (اشاح اركادي بوجهه الذي تجهم) .

* القلموق قبائل رعوية من اصل مغولي . يعيش الشعب القلموقي حاليا في جمهورية كلميكيا السوفييتية ذات الحكم الذاتي – **المترجم** .

** في الاصل بالفرنسية un barbouilleur .

ثم ان هذه العدوى قد انتشرت بعيداً . قيل لي ان رسامينا في روما لا يترددون على الفاتيكان مطلقا (٦٦) . ويكادون يعتبرون روفائيل احمق ، ويعللون ذلك بكونه شخصية بارزة ، بينما هم عاجزون عقيمون حتى القرف ولا يقودهم خيالهم الى ابعد من «الفتاة عند النافورة» مهما بذلوا من جهد ! ثم ان الفتاة تلك مرسومة باقبح شكل . انهم رائعون برأيك ، اليس كذلك ؟

فاعترض بازاروف قائلا :

– برأيي ان روفائيل لا يساوي شروى نقير ، وانهم ليسوا افضل منه .

– مرحى ! مرحى ! اسمع يا اركادي . . . على هذا النحو ينبغي للشباب العصريين ان يتكلموا ! فكيف لا يقتدون بكم ، يا ترى ؟ في السابق كان الشباب مضطرين الى التعلم ، فلم يكونوا راغبين في ان يذيع صيتهم كجهلة ، ولذا كانوا ، طبعا ، يجدّون ويجتهدون . اما الآن فيكفيهم ان يقولوا ان كل شيء في العالم تافه ، وانتهى الامر ! لقد سر الشباب وفرحوا . وبالفعل ، في السابق كانوا بلهاء لا غير ، اما الآن فقد اصبحوا ، على حين غرة ، نهلستيين .

– ها قد خانك شعور الكرامة الشخصية المحمود – قال بازاروف ببرود ، في حين اشتاط اركادي غضبا وبرقت عيناه – لقد تمادينا في الجدال الى حد بعيد . . . ويخيل اليّ ان من الافضل وقفه . – ثم اضاف ناهضا – سأكون على استعداد للاتفاق معك حينما تقدم لي ولو مثالا واحدا في حياتنا الراهنة ، العائلية او الاجتماعية ، لا يستحق الرفض بلا رحمة .

فهتف بافل بتروفيتش :

– سأقدم لك الملايين من هذه الامثلة ، الملايين ! لنأخذ على اقل تقدير ، المشاعة .

التوت شفتا بازاروف عن ابتسامة ساخرة باردة :

– بخصوص المشاعة ، الافضل ان تتكلم مع اخيك ، فقد جرب عمليا ، على ما يبدو ، ما هي المشاعة وما هو التكافل وما هو الامتناع عن تعاطي المسكرات وهلمجرا .

– والعائلة ، العائلة ، اخيرا ، بالشكل الذي هي عليه لدى فلاحينا ! – صاح بافل بتروفيتش .

— وهذه المسأله ايضا الافضل لك ، على ما اعتقد ، ان لا تتناولها بالتفصيل . أفلم تسمع بالذين يجامعون كناتهم ؟ خذ بنصيحتي ، يا بافل بتروفيتش ، امهل نفسك يومين ، حاليـــاً من المستبعد ان تجد ولو مثالاً واحداً . تفحص كل فئات مجتمعنا وفكر جيداً في كل واحدة منها ، اما انا واركادي فسوف . . .
— . . . نسخر من كل شيء — قاطعه بافل بتروفيتش .
— كلا ، سنشرح الضفادع . فلنذهب يا اركادي ، الى اللقاء ايها السادة !
خرج الصديقان وظل الاخوان وحيدين ، فتطلعا الى بعضهما البعض اولا ، ثم قال بافل بتروفيتش :
— هؤلاء هم شباب اليوم ! هؤلاء ورثتنا !
— ورثتنا — كرر نيكولاي بتروفيتش بحسرة وكآبة . ظل ، طوال الجدال ، على احر من الجمر ، وكان يلقي على اركادي خلسة نظرات ممضة — هل تدري ماذا تذكرت ، يا اخي ؟ ذات مرة اختلفت مع المرحومة امنا ، فكانت تصيح ولا تريد ان تستمع الي . . . وقلت لها في آخر الامر انها لا تستطيع ان تفهمني واننا ننتمي الى جيلين مختلفين . لقد اغاظها هذا القول اشد الغيظ . ففكرت انا : ما العمل ؟ الحبة مرة ولكن يجب ابتلاعها . وها هو دورنا قد حان . فيمكن لورثتنا ان يقولوا لنا : لستم من جيلنا فابتلعوا الحبة المرة .
— انك طيب القلب ومتواضع اكثر من اللازم — اعترض عليه بافل بتروفيتش — فانا ، على العكس ، واثق من انني واياك محقان اكثر بكثير من هذين السيدين الصغيرين ، بالرغم من اننا ربما نتكلم بلغة عتيقة بعض الشيء ولا نمتلك مثل تلك الغطرســة الجسورة . . . ما اشــد كبرياء الشباب الراهن ! فان سألت احدهم : اى نبيذ تريد ، حلوا ام مزاً ؟ يجبك بصوت جهير وبمسحة من الخيلاء على وجهه وكأنما الكون كله يتطلع اليه في تلــك اللحظة : «اعتدت على تفضيل النبيذ الحلو !» . . .
— هل تريدون المزيد من الشاي ؟ — سألت فينيتشكا وقد دست رأسها في شق الباب ، اذ لم تكن تجرأ على دخول غرفة الاستقبال طالما تتعالى فيها اصوات المتجادلين .
— كلا ، يمكنك ان تأمري بنقل السماور — اجاب نيكولاي

بتروفيتش ونهض للقائها . فقال له بافل بتروفيتش على نحو متقطع : (عم مساء) * ، وذهب الى مكتبه .

١١

بعد نصف ساعة توجه نيكولاي بتروفيتش الى تعريشته المحببة في البستان . واستولت عليه افكار حزينة . فقد تحسس بوضوح لاول مرة انفصال ابنه عنه . وتوقع ان الهوة بينهما ستتسع من يوم لآخر . فلا جدوى من قضائه اياما كاملة في شتاءات بطرسبورغ وهو يطالع احدث المؤلفات ، ومن العبث انه كان ينصت الى احاديث الشبان ويفرح عندما يتسنى له ان يدس كلمة في حوارهم الفوار . وفكر في نفسه : «اخي يقول اننا محقان ، واذا تخلينا عن اي اثر للغرور ، فانا شخصيا أرى انهما ابعد عن الحقيقة منا ، ولكنني في الوقت ذاته اشعر بان لديهما ما ليس لدينا ، وبانهما متفوقان علينا بشيء ما . . . الفتوة ؟ كلا : ليس الفتوة وحدها . أفلا يكمن تفوقهما في ان آثار الاقطاعية عندهما اقل مما عندنا ؟» .

طأطأ نيكولاي بتروفيتش رأسه ومسح وجهه بيده ، وفكر من جديد :

«ولكن كيف يمكن رفض الشعـــر ؟ وعدم الاحساس بالفن والطبيعة ؟ . . .»

تطلع الى ما حواليه وكأنما يريد ان يفهم كيف يمكن عدم الاحساس بالطبيعة . حل المساء ، واختفت الشمس وراء حرج الحور المنبسط على بعد نصف كيلومتر من البستان : كانت ظلاله تمتد بلا نهاية عبر الحقول الساكنة . ومر فلاح على ظهر فرس بيضاء تسير خببا في الدرب الضيق المعتم على طول الحرج . كان مرئيا كله بوضوح ، كله حتى الرقعة على كتفه بالرغم من الظلال التي تلفعه . وكانت قوائم الفرس قد لاحت بوضوح يبعث على الانشراح . كانت اشعة الشمس بدورها تخترق الحرج وتنساب عبر الاجمة فتغمر جذوع

* في الاصل بالفرنسية bon soir .

الحور بضوء دافئ جعلها شبيهة بجذوع الصنوبر وجعل لون اوراقها نيليا فاتحا . وتشهق فوقها سماء زرقاء باهتة خضبها الشفق بلمسات خفيفة . كانت سنونوات تحلق عاليا ، وقد هدأ النسيم كليا ، واخذت نحلات متخلفة تئز بكسل وخمول بين ازهار الليلاك . وكان البرغش يتزاحم كعمود من الدخان على غصن منعزل اشرأب بعيدا . «ما اروع ذلك ، يا الهي !» — فكر نيكولاي بتروفيتش وكاد ينشد اشعاره المحببة ، ولكنه تذكر اركادي وكراس «المادة والقوة» * فلزم الصمت وظل جالسا تتلاعب به الافكار اليتيمة على نحو محزن ومفرح معا . كان يحب الاحلام ، فقد طورت الحياة الريفية فيه القدرة على التمتع بالاحلام . فهل مر زمن طويل عليه عندما كان يحلم على هذا النحو وهو ينتظر عودة ابنه في الخان ؟ بيد ان تغيراً جرى منذ ذاك ، وتحددت العلاقات التي لم تكن واضحة آنذاك . . . ولكن على اي نحو ؟ ! لاحت امامه من جديد صورة المرحومة زوجته ، ليس بالشكل الذي عرفها فيه طوال سنين عديدة ، ربة بيت شاطرة طيبة ، بل فتاة يافعة ذات قوام نحيف ونظرة متفحصة عذراء وجديلة مفتولة بشدة فوق عنق طفولي . تذكر كيف رآها للمرة الاولى . كان ، وقتها ، لا يزال طالبا . صادفها على سلم المنزل الذي يقيم فيه . اصطدم بها صدفة ، فالتفت ليعتذر منها ولكنه لم يستطع الا ان يدمدم بالفرنسية : (معذرة يا سيدي) ** في حين طأطأت هي رأسها وابتسمت ابتسامة ساخرة ثم ركضت فجأة كما لو كانت خائفة . وفي منعطف السلم القت عليه نظرة خاطفة واكتسى محياها بمظهر الجد واصطبغ بالاحمرار . وفيما بعد بدأت اولى الزيارات الخجولة وانصاف الكلمات والابتسامات المبتورة والحيرة والكآبة والانفعالات ، واخيرا تلك الفرحة اللاهثة . . . اين تلاشى ذلك كله ؟ تزوج منها وكان سعيدا مثل القليلين في المعمورة . . . وفكر : «لم لا تعيش تلك اللحظات الحلوة الاولى عيشة ابدية لا تموت ؟»

لم يحاول ان يوضح لنفسه فكرته هذه ، ولكنه احس بانه راغب في ان يمسك بزمن المسرات ذاك بشيء ما اقوى من الذاكرة ،

* في الاصل بالالمانية . stoff und Kraft

** في الاصل بالفرنسية . Pardon, monsieur

16*

وكان يريد ان يلمس من جديد قوام زوجته ماريا ويتحسس دفأها وانفاسها ، وخيل اليه وكأنها قد اطلت عليه . . .

— يا نيكولاي بتروفيتش ، اين انتم ؟ — صدح على مقربة منه صوت فينيتشكا .

فانتفض . ولم يشعر لا بالالم ولا بالخجل . . . لم يكن ليتقبل حتى فكرة المقارنة بين زوجته وفينيتشكا ، ولكنه أسف لانها عزمت على البحث عنه . فقد ذكره صوتها حالا بشعره الاشيب وشيخوخته وحاضره . . .

العالم السحري الذي كاد يلجه وكاد يظهر من امواج الماضي الضبابية اهتز فتبدد .

— انا هنا . سأحضر ، اذهبي — اجابها ، وتبادرت الى ذهنه فكرة بخصوص لهجة الجواب : «تلك هي آثار الاقطاعية» . نظرت فينيتشكا اليه في التعريشة صامتة ثم اختفت ، في حين لاحظ هو مندهشا ان الليل قد حل منذ ان غرق في احلامه . كان كل شيء حواليه قد اظلم وسكن ، ولاح محيا فينيتشكا امامه شاحباً ضئيلاً . نهض ليعود الى الدار ، ولكن فؤاده المترجرج ما كان ليهدأ بين جوانحه ، فأخذ يتمشى على مهل في البستان ، وهو يتأمل في الارض تارة ، وتارة يرفع بصره الى السماء المرصعة بنجوم راحت تومض لبعضها البعض . تمشى طويلا حتى كاد يكل ، في حين لم يخفت في دخيلته ذلك القلق الحزين التوّاق الغامض . ما كان اشد ضحك بازاروف عليه لو علم بما اعتمل في فؤاده آنذاك ! وحتى اركادي ربما ادانه على ذلك ! لقد انهمرت الدموع ، دموع بلا سبب ، من عينيه هو المهندس الزراعي والسيد الذي بلغ الرابعة والاربعين . ان ذلك افدح بمائة مرة من الفيولونسيل .

واصل نيكولاي بتروفيتش سيره ولم يستطع ان يشد العزم على دخول الدار ، ذلك العش المريح الوادع الذي يتطلع اليه بترحاب من جميع نوافذه المضاءة . كان عاجزا عن مفارقة الظلمة والبستان والاحساس بالنسيم العليل يداعب وجهه ، وذلك الحزن والقلق . . .

في منتصف الدرب لاقى بافل بتروفيتش الذي سأله :

— ماذا بك ؟ انك شاحب كالشبح ، انت متوعك ، فلم لا ترقد ؟

اوضح له نيكولاي بتروفيتش بايجاز حالته النفسية وانصرف . بلغ بافل بتروفيتش آخر البستان ، واخذ يتأمل . ثم رفع بصره هو ايضا الى السماء . لكن عينيه السوداوين الرائعتين لم تعكسا شيئا غير ضوء النجوم . فهو لم يولد رومانسيا ، ولم تكن روحه الجافة المتلهفة باناقة والنفورة من البشر على النمط الفرنسي لتجيد الانصياع الى الاحلام . . .

– هل تعلم ، يا اركادي ؟ تبادرت الى ذهني فكرة رائعة – قال بازاروف في تلك الليلة – ذكر ابوك اليوم انه تسلم دعوة من قريبك الوجيه . وانه لا ينوي السفر اليه ، فهلا سافرنا واياك الى مدينة (***) ، فذاك السيد يدعوك انت ايضا . الا ترى كيف تحول الطقس هنا ؟ فلنرتحل ولنر المدينة . سنصرف خمسة ايام او ستة وكفى !

– وهل ستعود الينا بعد ذلك ؟

– كلا . اريد ان اسافر الى والدي . فهو يقيم ، كما تعلم ، على مسافة ثلاثين كيلومتراً من تلك المدينة . لم اره من زمان ، وكذلك امي . ينبغي ان ازيل هم العجوزين . فهما طيبان ، وخصوصا والدي المرح للغاية . وانا وحيدهما .

– وهل ستبقى عندهما طويلا ؟

– لا اعتقد . ربما سيكون ذلك مملا .

– وهل ستمر بنا في طريق العودة ؟

– لا ادري . . . سأفكر في ذلك . اتفقنا ؟ هل سنسافر ؟

– اجل – قال اركادي متكاسلا .

كان قد سر في دخيلته كل السرور لاقتراح صديقه ، ولكنه رأى ان من واجبه اخفاء مشاعره . فما جدوى كونه نهلستياً اذن ؟ !

في اليوم التالي سافر مع بازاروف الى مدينة (***) . أسف الشباب في مارينو لسفرهما . حتى ان دونياشا اسقطت دمعة . الا ان «العجوزين» تنفسا الصعداء .

١٢

يدير المدينة التي توجه اليها صاحبانا متصرف من الشباب ، تقدمي ومتعسف في الوقت نفسه ، كما يصادف كثيراً في روسيا . فقد استطاع اثناء العام الاول من حكمه ان يتشاجر ليس فقط مع زعيم نبلاء اللواء ، يوزباشي الفرسان المتقاعد المضياف وصاحب حقل تربية الجياد ، بل ومع موظفيه هو . واتسع نطاق النزاعات التي نشبت بهذا الخصوص حتى ان الوزارة في بطرسبورغ رأت في آخر الامر ان ترسل شخصاً مخولاً كلفته بالنظر في القضية هناك . ووقع اختيار المسؤولين على ماتفي ايليتش كوليازين ، وهو ابن كوليازين الذي رعى الاخوين كيرسانوف في غابر الزمان . وكان هو ايضاً من «الشباب» ، اي انه بلغ الاربعين مؤخراً ، لكنه اصبح من رجالات الدولة او يكاد ، وكانت على صدره نجمتان . الا ان احدى النجمتين اجنبية وليست من عداد الاوسمة السامية . كان يعتبر من دعاة التقدم شأنه شأن المتصرف الذي وصل للبت في امره ، ولم يكن يشبه السواد الاعظم من الموظفين الكبار بعد ان اصبح واحدا منهم . كان مغرورا اشد الغرور ، وكان زهوه بلا حدود ، بيد انه كان متساهلا متسامحا بسيط العادات ، ذا نظرة تنم عن الرضا . وهو يضحك من كل قلبه حتى كاد يشتهر في بادئ الامر بانه «شخص طيب جداً» . ولكنه يجيد في الحالات الهامة ذر الرماد في العيون ، كما يقال . وعندئذ كان يقول : «الحيوية ضرورية . (فالحيوية هي الخاصية الاولى لرجل الدولة) *» . وفيما عدا ذلك يظل مخدوعا عادة ، فيمتطيه اي موظف لديه شيء من الخبرة . كان ماتفي ايليتش يكن اعمق الاحترام لغيزو (٦٧) . ويحاول اقناع الجميع بانه لا ينتمي الى الروتينيين والبيروقراطيين المتخلفين ، وانه لا يدع اي مظهر هام للحياة الاجتماعية دون ان يلتفت اليه . . . كان مطلعا خير اطلاع على امثال هذه الكلمات . حتى انه كان يتابع ، ولو بتعال واستهانة ، تطور الادب الحديث ، كما يفعل الرجل عندما

* في الاصل بالفرنسية L'energie est la premiére qualité d'un homme d'état.

يئضم احيانا الى موكب الصبيان الذي يصادفه في الطريق . لم يكن ماتفي ايليتش ، في الواقع ، يختلف كثيرا عن رجالات الدولة في عصر الاسكندر (٦٨) ، اولئك الذين يطالعون في الصباح صفحة من كونديلياك (٦٩) استعداداً لحضور امسية عند السيدة سفيتشينا (٧٠) التي كانت تقطن بطرسبورغ آنذاك ، سوى ان اساليبه هي اساليب اخرى اكثر حداثة . كان من افراد الحاشية المبقين وكان محتالاً جداً ولا شيء اكثر من ذلك . فلم يكن يعرف شيئاً في شؤون الخدمة ولم يكن يمتلك حصافة ، لكنه يجيد تدبير اموره الشخصية ولا يستطيع احد ان يجاريه في ذلك ، وهذا هو الامر الرئيسي .

استقبل ماتفي ايليتش اركادي بطيبة القلب الملازمة للموظف الكبير المستنير ، بل وبشيء من المداعبة . لكنه استغرب عندما علم ان قريبيه اللذين دعاهما ظلا في القرية . فقال : «ابوك غريب الاطوار دوما» . واخذ ينش بشراريب ردائـــه المنزلي المخملي الرائع ، ثم توجه الى موظف شاب في بزة مهندمة على افضل ما يكون وهتف به فجأة وبمسحة من الاهتمام : «ماذا ؟» . اعتدل الشاب الذي التصقت شفتاه ببعضهما من طول السكوت ونظر الى رئيسه متحيراً . الا ان ماتفي ايليتش صرف نظره عن مرؤوسه بعد ان حيره . ان موظفينا الكبار يحبون على العموم تحيير مرؤوسيهم ، ثم ان الاساليب التي يلتجئون اليها لبلوغ هذا الهدف متنوعة للغاية . وبالمناسبة فان الاسلوب التالي يحظى بانتشار واسع ، اذ هو ، كما يقول الانجليز ، الاسلوب (المفضل) * : يكف الموظف الكبير فجأة عن فهـــم ابسط الكلمات فيتظاهر بالصمم . ويسأل ، مثلا ، اي يوم في الاسبوع الآن ؟

فيجاب باكمل قدر من الاحترام : «اليوم هو الجمعة يا صاحب المعالي» .

— آ ؟ ماذا ؟ ماذا تقول ؟ — يكرر الموظف اسئلته على نحو متوتر .

— اليوم هو الجمعة ، يا صاحب المعالي .

—كيف ؟ ماذا ؟ ما هي الجمعة ؟ اية جمعة ؟

* في الاصل بالانجليزية « is quite a favourite » .

— الجمعة ، يا صاحب المعالي ، يوم من ايام الاسبوع .

— ماذا ؟ هل تتجرأ على تعليمي ؟

كان ماتفي ايليتش ، مع ذلك ، موظفا كبيرا ، بالرغم من انه يعتبر ليبراليا متحررا . قال لاركادي :

— انصحك ، يا صديقي ، ان تقوم بزيارة الى المتصرف . انت تعرف اني انصحك بذلك ليس لانني متمسك بالمفاهيم القديمة حول ضرورة التشريفات لدى السلطات ، بل لمجرد ان المتصرف انسان مستقيم ، زد على ذلك انك ربما ترغب في التعرف على المجتمع هنا . . . فلست دبا على ما اعتقد ؟ اما هو فسوف يقيم حفلة ساهرة كبرى بعد غد .

فسأل اركادي :

— هل ستحضر الحفلة انت ؟

— انه يقيمها من اجلي — قال ماتفي ايليتش بما يكاد يشبه الاسف . — هل تجيد الرقص ؟

— على نحو سيئ .

— شيء مؤسف . فهنا توجد فاتنات ، ثم ان من العيب على الشاب ان لا يجيد الرقص . اقول ذلك ايضا ليس بحكم المفاهيم القديمة ، فانا لا اعتقد ابدا بان العقل ينبغي ان يكون في الرجلين ، بيد ان البايرونية المقلدة مضحكة ، (لقد ولى زمانها) * .

— ليس ذلك ، يا عمي العزيز ، بسبب البايرونية . . .

— سأعرفك على سيدات المدينة ، واحميك تحت جناحي ، حيث ستجد الدفء ، اليس كذلك ؟ — قاطعه ماتفي ايليتش وقهقه بخيلاء .

دخل الخادم واعلن عن وصول مدير الخزينة ، وهو شيخ ذو عينين عسليتين وشفتين متجعدتين ، يهوى الطبيعة الى اقصى حد ، وخصوصا في ايام الصيف حيث «تأخذ كل نحيْلة رشفة من كل زهيْرة» على حد تعبيره . . .

عاد اركادي ، فوجد بازاروف في الخان الذي نزلاه . صرف وقتا طويلا في اقناعه بزيارة المتصرف ، حتى قال بازاروف اخيرا : «ما

* في الاصل بالفرنسية il a fait son temps

في الامر حيلة ! ولا مجال للتراجع عما اقدمنا عليه ! طالما وصلنا لمشاهدة الاقطاعيين فلنشاهدهم !» . استقبل المتصرف الشابين بترحاب ولكنه لم يشر عليهما بالجلوس ولم يجلس هو الآخر . كان على الدوام في عجلة من امره . ففي الصباح يرتدي بدلته الرسمية وربطة عنق مشدودة على نحو خانق ، ولا يكمل طعامه وشرابه ، بل يصدر اوامره طوال الوقت . وكان سكان اللواء يلمحون عادة الى شخصيته الضعيفة . لقد دعا هذا المتصرف كيرسانوف وبازاروف لحضور الحفلة الساهرة التي سيقيمها ، ولكنه بعد دقيقتين دعاهما من جديد لحضور نفس الحفلة وخيل اليه هذه المرة انهما شقيقان فسماهما بالاخوين كيساروف ، وليس كيرسانوف .

كانا عائدين الى الخان من المتصرف عندما قفز فجأة من عربة خفيفة قربهما شخص قصير القامة في سترة مجرية مما يرتديه انصار النزعة السلافية واندفع نحو بازاروف هاتفا : «يفغيني فاسيليفيتش !» .

فقال بازاروف مواصلا سيره على الرصيف :

– آ ! هذا انت ، يا سيد سيتنيكوف ، يا للمصادفة !

– تصور ، مصادفة بحت . – اجاب ذاك والتفت الى العربة فلوح بيده للحوذي خمس مرات وصاح : – هيا اتبعنا ، هيا ! – ثم واصل كلامه قافزا عبر الساقية : – رجاني ابي . . . فلديه هنا تجارة . . . علمت اليوم بوصولكما فعرجت عليكما . . . (وبالفعل عندما عاد الصديقان الى غرفتهما في الخان وجدا هناك بطاقة ذات زوايا معقوفة وعليها اسم سيتنيكوف بالفرنسية على جهة وبخط سلافي فني على الجهة الثانية) . آمل انكما لستما عائدين من المتصرف !

– لا تأمل في ذلك . فنحن عائدان منه بالذات .

– أها ! سأذهب اليه انا ايضا في هذه الحالة . . . يا يفغيني فاسيليفيتش ، عرفني على صديـ . . . على سيادته . . .

– سيتنيكوف ، كيرسانوف – دمدم بازاروف دون ان يتوقف . فقال سيتنيكوف مبتسما وهو يسير على نحو جانبي ويشد باستعجال قفازيه الانيقين للغاية :

– مسرور جدا . سمعت الكثير جدا عن . . . انا من قدامى

معارف يفغيني فاسيليفيتش ، ويمكنني القول بانني تلميذه . وانا مدين له بتحولي الفكري . . .

تطلع اركادي الى تلميذ بازاروف . كانت مسحة من القلق والبلادة تغطي الملامح الضئيلة والمستساغة في الوقت ذاته على وجهه الحليق . كانت عينان غائرتان غير واسعتين تنظران بحدة واضطراب ، وكان هو يضحك باضطراب ايضا ، بقهقهة متقطعة كما لو كانت متخشبة . ثم واصل كلامه :

– هل تصدقني ؟ عندما قال يفغيني فاسيليفيتش بحضوري لاول مرة انه يجب عدم الاعتراف بالشخصية احسست باعجاب لا حد له . . . وكأنما تفتحت ابصاري ! وفكرت في نفسي : «ها قد عثرت آخر الامر على انسان !» . وبالمناسبة ينبغي لك ، يا يفغيني فاسيليفيتش ، ان تزور من كل بد واحدة من السيدات هنا ، وهي قادرة كليا على ان تفهمك ، وستكون زيارتك لها عيدا حقيقيا . اعتقد انك سمعت بها ، اليس كذلك ؟

– من هي ؟ – سأل بازاروف دون اكتراث .

– (ايدوكسي) * ، يفدوكسيا كوكشينا . انسانة رائعة ، (متحررة) ** بكل معنى الكلمة ، امرأة تقدمية . على فكرة ، فلنذهب اليها سوية . انها تعيش على مقربة من هنا . وسوف نتناول الفطور عندها . فانتما لم تفطرا بعد ، اليس كذلك ؟

– لم نفطر بعد .

– حسنا ا-لمكما انها افترقت عن زوجها ، ولم تعد مرتبطة بأحد .

فقاطعه بازاروف :

– هل هي مليحة ؟

– لـ . . . . لا اعتقد .

– يا للشيطان ! فلأي غرض تدعونا لزيارتها ؟

– يا لك من منكت . . . ستسقينا قنينة شمبانيا . افليس ذلك كافيا ؟

– هكذا اذن ! يبدو انك انسان عملي حقا . وبالمناسبة ، الا يزال والدك يتاجر بالمسكرات ؟

* في الاصل بالفرنسيية Eudoxie .

** في الاصل بالفرنسية émancipée .

– لا يزال – اجاب سيتنيكوف بعجلــة وقهقه بصرير كالصأصأة – ماذا ؟ هل تذهبان اليها ؟
– لا ادري ، في الواقع .
– اردت ان تشاهد الناس ، فاذهب – قال اركادي بصوت كالهمس . فسأل سيتنيكوف :
– وانت ، يا سيد كيرسانوف ؟ تفضل انت ايضا ، فلا يمكن الذهاب بدونك .
– كيف لنا ان ننهال عليها دفعة واحدة ؟
– لا بأس . كوكشينا انسانة رائعة .
– وهل ستقدم لنا قنينـــة شمبانيا ؟ – سأل بازاروف . فاجابه سيتنيكوف :
– ثلاث قنان . انني اتعهد .
– بماذا ؟
– برأسي .
– الافضل باموال ابيك . ومع ذلك فلنذهب .

١٣

الدار الصغيرة التي تسكنها افدوتيا نيكيتيشنا (او يفدوكسيا) كوكشينا من دور النبلاء المبنية على الطراز المسكوبي ، وهي تقع في احد الشوارع التي احترقت مؤخرا بمدينة (* * *) . ومن المعروف ان مدن الالوية عندنا تحترق مرة كل خمسة اعوام . لاح فوق الرقعة المثبتة بصورة مائلة على الباب مقبض جرس صغير . وفي الدهليز استقبلت القادمين امرأة ترتدي قلنسوة خفيفة . ربما هي وصيفة وربما هي رفيقة لصاحبة الدار ، مما يدل على المطامع التقدمية لهذه الاخيرة . وسألها سيتنيكوف : افدوتيا نيكيتيشنا موجودة ؟ فتعالى صوت رفيع من الغرفة المجاورة :
– هذا انت يا (فكتور) * ؟ ادخل .
وفي الحال اختفت المرأة ذات القلنسوة .

* في الاصل بالفرنسية Victor .

– لست لوحدي – قال سيتنيكوف وهو يخلع سترتـــه المجرية الطويلة بحيوية ، وقد ظهر تحتها شيء يشبه حشية التدفئة او البطانة الفضفاضة . ثم القى نظرة متحمسة على اركادي وبازاروف ، في حين اجاب الصوت :
– لا فرق . (ادخلوا) * .
دخل الشبان غرفة تشبه مكتب العمل اكثر مما تشبه غرفة الاستقبال . كانت الاوراق والرسائل واعداد سميكة من المجلات الروسية ، واغلبها غير مفتوح ، منتشرة على الموائد المغبرة ، وقد القيت في جميع الانحاء اعقاب السجائر البيضاء . وعلى اريكة جلدية جلست في وضع يشبه الاضطجاع امرأة لا تزال في عمر الشباب ، وهي شقراء مشعثة بعض الشيء في بدلة حريرية ليست على قدر من الاناقة ، واساور كبيرة تطوق يديها القصيرتين ومنديل مخرم يلف رأسها . نهضت من الاريكة والقت على كتفيها دون عناية معطفاً مخملياً مبطناً بفرو القاقم العتيق المائل الى الاصفرار وقالت بكسل : «مرحباً يا (فكتور)» ** وصافحت سيتنيكوف ، بينما قال هو على نحو متقطع مقلداً بازاروف :
– بازاروف ، كيرسانوف .
– على الرحب والسعة – اجابت كوكشينا ، ثم ركزت على بازاروف نظرات من عينيها المستديرتين اللتين لاح بينهما أنف محمر صغير ، اخنس كاليتيم ، واضافت قائلة : – انا اعرفك – وصافحته هو الآخر .
تقزز بازاروف . لم يكن في قوام هذه المرأة المتحررة الباهت الدقيق شيء قبيح ابداً . الا ان تعبير وجهها يترك في الناظر اليها انطباعاً غير مريح . وكان بود المرء ان يسألها عفوياً : «ماذا ؟ هل انت جائعة ؟ او ضجرة ؟ او خجولة ؟ لماذا انت متوترة ؟» . كانت ، شأنها شأن سيتنيكوف ، تشعر على الدوام بالضيق النفسي . وهي تتكلم وتتحرك بلا ادنى اثر للتكلف ، ولكن على نحو اخرق في الوقت ذاته . ولعلها تعتبر نفسها كائناً بسيطاً طيب القلب ، بيد انه مهما فعلت من شيء ، يخيل اليكم ان هذا الشيء بالذات هو ما لـم

* في الاصل بالفرنسية Entrez .
** في الاصل بالفرنسية Victor .

تكن تريد فعله ، فكل ما تفعله يبدو متعمداً ، اي انه لم يكن بسيطاً ولا طبيعياً .

— اجل ، اجل ، انا اعرفك يا بازاروف — كررت القول (وكانت متمسكة بالعادة الملازمة لكثير من سيدات الالوية وسيدات موسكو في تسمية الرجال بألقابهم فقط منذ اليوم الاول للتعارف) — هل تريدون سيجارا ؟

— بالطبع . — قال سيتنيكوف على الفور وقد جلس متراخياً على الكرسي رافعاً رجله الى الاعلى — فليقدموا لنا الفطور ، نحن جياع على نحو مرعب ، بل وامري بتقديم قنينة من الشمبانيا .

— يا له من محب للنعيم ! — قالت يفدوكسيا وضحكت (كانت لثتها العليا تتعرى من فوق اسنانها عندما تضحك) ، أليس كذلك ، يا بازاروف ؟ — فقال سيتنيكوف بشيء من الاستعلاء :

— انني اهوى الحياة المريحة وهذا لا يمنعني من ان اكون متحرراً .

— كلا ، يمنعك ! — هتفت يفدوكسيا ، ولكنها امرت وصيفتها باعداد الفطور واحضار الشمبانيا . ثم اضافت مخاطبةً بازاروف : — ما هو رأيك بهذا الخصوص ؟ انا واثقة من انك توافقني .

— كلا — اعترض بازاروف — قطعة اللحم افضل من كسرة الخبز حتى من الناحية الكيمياوية .

— هل تدرس الكيمياء ؟ انها هوايتي ، حتى اني ابتدعت بنفسي نوعاً من الدهان .

— دهان ؟ انت ؟

— اجل ، انا . ولأي غرض ، هل تعلم ؟ لصنع الدمى ، كيلا تتحطم رؤوسها . فأنا انسانة عملية ايضاً . ولكن ليس كل شيء جاهزاً بعد . ينبغي ان اطالع ليبيغ . وبالمناسبة هل قرأت مقالة كيسلياكوف في «الوقائع الموسكوبية» (٧١) عن عمل النساء ؟ اقرأها من فضلك فأنت تهتم بمسألة المرأة ، وبالمدرسة ايضاً ، أليس كذلك ؟ ما الذي يمارسه صديقك ؟ وما اسمه ؟

كانت السيدة كوكشينا **تنثر** اسئلتها الواحد تلو الآخر باستهانة رقيقة دون ان تنتظر الجواب عليها ، كما يتكلم الاطفال المدللون عادة مع مربياتهم .

— اسمي اركادي نيكولايفيتش كيرسانوف ، وانا لا اما ـ شيئاً .

قهقهت يفدوكسيا .

— شيء مليح ! ماذا ؟ الا تدخن ؟ أتدري ، يا فكتور ، باني زعلانة عليك ؟ !

— لأي سبب ؟

— يقال انك صرت تمدح جورج صاند (٧٢) من جديد . انها امرأة متخلفة ، ولا شيء غير ذلك ! كيف يمكن مقارنتها مع امرسون (٧٣) ؟ ! فليست لديها اية افكار لا عن التربية ولا عن الفسلجة ولا عن اي شيء . وانا واثقة من انها لم تسمع حتى بعلم الاجنة ، فكيف يمكن بدون ذلك في عصرنا ؟ (نشرت يفدوكسيا يديها) . آه ، يا للمقالة المدهشة التي كتبها يليسيفيتش (٧٤) بهذا الخصوص ! انه سيد عبقري ! (اعتادت يفدوكسيا دوماً على استخدام كلمة «سيد» بدلاً من «شخص») . يا بازاروف ، اجلس قربي على الاريكة . ربما انت لا تدري باني اخاف منك اشد الخوف .

— لماذا ؟ اسمحي لي ان اعرف .

— انك سيد خطر . ناقد لاذع . آه ، يا إلهي ! من المضحك انني اتكلم كما تتكلم اقطاعية في قرية نائية . وبالمناسبة ، فأنا اقطاعية حقاً . ادير الضيعة بنفسي ، ثم ان مختار القرية لديّ ، يروفي ، لو تعلمون ، سيد مدهش ، مثل بطل كوبر «باثفايندر» (٧٥) . ففيه شيء من عدم التصنع ! قررت ان اعيش هنا نهائياً . انها مدينة لا تطاق ، أليس كذلك ؟ ولكن ليس في الامر حيلة !

فقال بازاروف ببرود :

— مدينة كسائر المدن .

— اهتمامات ضئيلة ، هذا هو الامر الفظيع ! في السابق كنت اقضي الشتاء من كل عام في موسكو . . . اما الآن فهناك يعيش زوجي المسيو كوكشين . ثم ان موسكو الآن . . . لا ادري . . . لم تعد على ما يرام . انني افكر في السفر الى الخارج . ففي العام الماضي كدت أتهيأ كلياً للسفر .

فسألها بازاروف :

— الى باريس ، أليس كذلك ؟

– الى باريس وهيديلبرغ .
– ما الداعي لهيديلبرغ ؟
– كيف لا ، فهناك بونزين (٧٦) !
لم يحر بازاروف جواباً .
– هل تعرف (بيير) * سابوجنيكوف ؟ .
– كلا ، لا اعرفه .
– كيف ؟ (بيير) * سابوجنيكوف . . . انه يزور ليديا خوستاتوفا على الدوام .
– انا لا اعرفها هي أيضاً .
– تعهد بان يرافقني . الحمد لله انني حرة طليقة ليس لدي اطفال . . . ماذا قلت ؟ : **الحمد لله** ! فليكن . لا فرق .
لفت يفدوكسيا سيجارة بأصابعها المسمرة من اثر التبغ وبللتها بلسانها ثم مصتها واشعلتها . دخلت الوصيفة تحمل صينية .
– ها هو طعام الفطور ! تفضلوا الى المائدة ! يا فكتور افتح القنينة ، فهذا اختصاصك .
– اجل ، اختصاصي – دمدم سيتنيكوف ثم ضحك بصرير كالصأصأة مرة اخرى .
– هل توجد هنا حسناوات ؟ – سأل بازاروف وهو يجهز على القدح الثالث . فأجابت يفدوكسيا :
– اجل ، ولكنهن جميعاً فارغات . فمثلا ، (صديقتي) ** اودينتسوفا ، لا عيب في حسنها . ولكن مما يؤسف له ان سمعتها ليست على ما يرام . . . لا ضير في ذلك ، ولكنها لا تتمتع بأية حرية للرأي ، واي اتساع في الافق . . . مطلقاً . ينبغى تغيير نظام التربية بمجمله . ولقد فكرت في ذلك . فنساؤنا تربين تربية سيئة للغاية .
– لن تفعلي لهن شيئاً – تدخل سيتنيكوف – ينبغي احتقارهن ، وانا احتقرهن تماماً ! (كانت امكانية الاحتقار والافصاح عن هذا الاحتقار احب شيء لدى سيتنيكوف . وكان في الواقع

---

* في الاصل بالفرنسية Pierre .
** في الاصل بالفرنسية mon amie .

يتهجم على النساء دون ان يعلم بأنه سوف يضطر بعد بضعة اشهر ان يتزلف الى زوجته لسبب واحد هو انها ابنة الامير دوردوليوسوف) . فما من واحدة منهن تستطيع ان تفهم حديثنا هذا ، وما من واحدة منهن تستحق بأن نتكلم ، نحن الرجال الجادين ، عنها !
– لسن بحاجة مطلقاً الى فهم حديثنا – قال بازاروف ، فتدخلت يفدوكسيا :
– عمن تتكلم ؟
– عن الحسناوات .
– كيف ؟ ! يعني انك تؤيد رأي برودون ، (٧٧) أليس كذلك ؟
عدل بازاروف قوامه بكبرياء وقال :
– لا اؤيد آراء احد اطلاقاً . فلدي آرائي الخاصة .
– فلتسقط الشخصيات ! – صاح سيتنيكوف فرحاً بالمناسبة التي تهيأت له كي يعرب عن افكاره بقوة ، بحضور الشخص الذي يتزلف اليه .
– غير ان ماكولي (٧٨) نفسه – ارادت كوكشينا ان تتكلم ، ولكن صوت سيتنيكوف دوى :
– فليسقط ماكولي ! هل تدافعين عن هؤلاء النسوة ؟
– ليس عن النسوة ، بل عن حقوق المرأة التي اقسمت على الدفاع عنها حتى آخر قطرة من دمي .
– فليسقط ! – ولكن سيتنيكوف توقف عن الهتاف ، ثم اضاف :
– انني لا انكر هذه الحقوق .
– كلا ، يخيل اليّ انك من انصار النزعة السلافية البحت !
– لست منهم ، بالرغم من انني طبعاً . . .
– كلا ، ثم كلا . انك من انصار النزعة السلافية ، ومن المتمسكين بالتعاليم المتزمتة البالية . لا يعوزك الا سوط في اليد !
فقال بازاروف :
– السوط شيء حسن . ولكننا وصلنا الى آخر قطرة . . .
– من ماذا ؟ – قاطعته يفدوكسيا .

– من الشمبانيا ، يا يفدوكسيا نيكيتيشنا المبجلة ، من الشمبانيا ، وليس من دمك .
– لا استطيع ان اسمع بلامبالاة احداً يتهجم على النساء – واصلت يفدوكسيا كلامها – هذا امر فظيع ، فظيع . فبدلاً من ان تتهجموا عليهن من الافضل ان تقرأوا كتاب ميشليه «عن الحب» * . شيء رائع ! ايها السادة ، فلنتحدث عن الحب . – قالت ذلك والقت يدها بفتور ورقة على وسادة الاريكة المدعوكة .
وخيم صمت فجائي . ثم قال بازاروف :
– كلا ، ما الداعي للكلام عن الحب . لقد ذكرت اسم اودينتسوفا . . . هكذا سميتها ، أليس كذلك ؟ من هي هذه السيدة النبيلة ؟
– لا اروع منها ! – قال سيتنيكوف بصرير كالصأصأة – سأقدمك لها . ذكية ، غنية ، ارملة . ومن المؤسف انها غير متطورة بما فيه الكفاية . فمن اللازم لها ان تتعرف بصورة اقرب على عزيزتنا يفدوكسيا . اشرب نخبك ، يا (يفدوكسي) ** ! فلنقرع الكؤوس ! – ثم اخذ سيتنيكوف يترنم بالفرنسية :

« Et tok, et tok, et tin-tin-tin !
Et tok, et tok, et tin-tin-tin ! ! » (٧٩)

فقالت كوكشينا :
– انت عابث لعوب يا (فكتور) *** .
استغرق الفطور وقتاً طويلاً . ولحقت بقنينة الشمبانيا الاولى ثانية وثالثة ، بل ورابعة . . . كانت يفدوكسيا تثرثر بلا انقطاع . وكان سيتنيكوف يماشيها في الثرثرة . فقد تحدثا كثيراً عن الزواج ، وعما اذا كان تقليداً وهمياً او جريمة . وعن الناس الذين يولدون ، هل هم متماثلون ام لا ؟ وفيم يكمن التفرد الشخصي في الواقع ؟ وأخيراً احتقنت يفدوكسيا كلياً بما احتسته من نبيذ

* في الاصل بالفرنسية « De l'amour » . جول ميشليه (١٧٩٨–١٨٧٤) كاتب ومؤرخ فرنسي . صدر كتابه المذكور عام ١٨٥٩ . **المترجم** .
** في الاصل بالفرنسية Eudoxie .
*** في الاصل بالفرنسية .

واخذت تنقر بأظافرها المسطحة على مفاتيح البيانو المشوش وشرعت تنشد بصوت مبحوح بعضاً من اغاني الغجر في البداية ثم موال سيمور-شيف «غرناطة الناعسة» (٨٠) ، بينما شد سيتنيكوف رأسه بوشاح ومثل دور العشيق الولهان عندما غنت هي كلمات :

وتلتحم شفتاك بشفتي
في قبلة حرى

نفد صبر اركادي فقال أخيراً بصوت مسموع : «يا سادة ، غدا الامر اشبه بدار المجاذيب» .
اما بازاروف الذي كان نادراً ما يضيف كلمة ساخرة الى الحوار – اذ انه مشغول بالشمبانيا اكثر من غيرها – فقد تثاءب بصوت عال ونهض ثم خرج مع اركادي دون ان يودع صاحبة الدار . هرع سيتنيكوف في اثرهما متسائلاً :
– ماذا ؟ ماذا ؟ – واخذ يتملقهما ويتراكض حولهما تارةً من اليمين وتارةً من الشمال – ألم اقل لكما انها شخصية رائعة ؟ ! كثّر الله من امثالها ! انها ظاهرة اخلاقية سامية في الواقع .
–ومؤسسة ابيك هذه هل هي ظاهرة اخلاقية سامية ايضاً ؟ – سأل بازاروف وهو يشير باصبعه الى الحانة التي مروا قربها في تلك اللحظة .
قهقه سيتنيكوف من جديد بصرير كالصأصأة . كان يخجل كل الخجل من منحدره العائلي ، وما كان يدري هل يتعين عليه ان يعتبر كلمات بازاروف الخشنة المفاجئة اطراء ام اهانة .

١٤

بعد بضعة ايام اقيمت الحفلة الساهرة لدى المتصرف . وكان ماتفي ايليتش «بطل الحفلة» حقاً . فقد اعلن رئيس نبلاء اللواء على رؤوس الاشهاد انه جاء ، في الواقع ، احتراماً له ، بينما واصل المتصرف «اصدار الاوامر» حتى في الحفلة مع انه ظل ساكناً بلا

حراك . اما رقة ماتفي ايليتش في مخاطبة الآخرين فكانت تضاهي عظمته بلا نقصان . كان يداري الجميع ، بعضهم بنأمة من الاشمئزاز وبعضهم الآخر بمسحة من الاحترام ، ويحاول جهده ان يبدو امام السيدات بمظهر (الفارس الفرنسي الحقيقي) * ، ويقهقه دون كلل بتلك الضحكة الرتيبة العريضة الرنانة التي تليق بالموظفين الكبار . طبطب على ظهر اركادي وناداه بصوت عال «يا ابن اختنا العزيز» ، وتفضل على بازاروف ذي البزة العتيقة بعض الشيء بنظرة هائمة عابرة ولكنها متساهلة انبعثت منه عبر وجنته ، وبفحيح ترحيبي مبهم لم يفهم منه سوى «أنا . . .» «جدا . . .» . وقدم اصبعه لسيتنيكوف كي يصافحه وابتسم له ، وهو يشيح عنه في الوقت ذاته . وقال «مفتون بك» ** حتى لكوكشينا التي حضرت ترتدي قفازات قذرة وبدون تنورة الحفلات المنتفخة ، غير انها شكّت شعرها بدبوس طائر الجنة . كان هناك جمهور غفير من الناس . ولا نقص في عدد الرجال . كان المدنيون قد حوصروا بأغلبهم الى الجدران ، بينما راح العسكريون يرقصون ببالغ الجهد ، وخصوصاً واحد منهم ، كان قد عاش في باريس ستة اسابيع فتعلم مختلف الهتافات الفرنسية المتهورة من امثال «يا للشيطان !» و«يا للعجب !» و«ها ، ها ، يا صغيرتي» *** . راح يتلفظ هذه الهتافات على احسن ما يكون ، بلهجة باريسية فاخرة ، ولكنه ، فيما عدا ذلك ، كان يحطم اللغة الفرنسية تحطيماً ، اي انه يتكلم باللهجة الفرنسية-الروسية التي يسخر منها الفرنسيون عندما لا يشعرون بحاجة الى ان يقولوا لنا في مجاملة باننا نتكلم بلغتهم كما يتكلم الملائكة .

لم يكن اركادي يجيد الرقص ، كما نعلم ، اما بازاروف فلم يمارس الرقص مطلقاً . ولذلك انزويا في ركن ، فانضم اليهما سيتنيكوف الذي تظاهر بمسحة من السخرية المستنكفة واخذ يطلق ملاحظات جارحة ويسلط نظرات وقحة على ما حواليه ، وبدا

* في الاصل بالفرنسية en vrai chevalier français .

** في الاصل بالفرنسية « Enchante » .

*** في الاصل بالفرنسية « Zut », « Ah fichtrrre » « Pst, pst, mon bibi »

وكأنه يتمتع بلذة خالصة . وعلى حين غرة تبدلت سحنته فالتفت الى اركادي وقال بشيء من الارتباك «وصلت اودينتسوفا» .

التفت اركادي فرأى امرأة فارعة القوام في بدلة سوداء توقفت عند باب الصالة . ادهشته بروعة قدها الممشوق . يداها العاريتان مستقرتان على نحو جميل الى جانبي خصرها الاهيف . واغصان الفوشية الخفيفة تتدلى على نحو جميل ايضاً من شعرها اللامع على كتفيها المنحدرتين . وعيناها الفاتحتان تبعثان من تحت جبينها الابيض البارز بعض الشيء نظرات ثاقبة هادئة ، هادئة بالذات وليس متأملة . وشفتاها تبتسمان ابتسامة تكاد لا تلحظ . كان محياها يبث قوة ما ، رقيقةً حنوناً .

– هل تعرفها ؟ – سأل اركادي من سيتنيكوف .

– اعرفها جيداً . أتريد ان اقدمك اليها ؟

– حبذا . . . بعد هذه الرقصة .

تنبه بازاروف هو الآخر الى اودينتسوفا . فقال :

– ما هذا القد ؟ انها لا تشبه الاخريات .

انتظر سيتنيكوف حتى انتهت الرقصة فاصطحب اركادي الى اودينتسوفا . ومن المشكوك فيه انه كان يعرفها جيداً : فقد تلعثم في اقواله ، بينما نظرت هي اليه بشيء من الاستغراب . الا ان وجهها اكتسى بمسحة من الترحاب عندما سمعت لقب اركادي . فسألته عما اذا كان هو ابن نيكولاي بتروفيتش .

– بالضبط .

– رأيت والدك مرتين وسمعت عنه الكثير . يسرني جداً ان اتعرف عليك – واصلت كلامها .

وفي تلك اللحظة اقترب منها ضابط ودعاها لرقصة الكدريل . فوافقت .

– هل ترقصين يا ترى ؟ – سألها اركادي باجلال .

– اجل . فلماذا تظن باني لا ارقص ؟ ام اني ابدو لك طاعنة في السن ؟

– عفواً ، كيف ذلك . . . ولكن في هذه الحالة اسمحي لي بان ادعوك لرقصة المازوركا .

ابتسمت اودينتسوفا متسامحةً وقالت :

— تفضل . — وسلطت على اركادي نظرة ، ان لم تكن متعالية فهي شبيهة بنظرات الاخوات المتزوجات الى اخوانهن الذين لا يزالون في مقتبل العمر .

لم تكن اودينتسوفا اكبر من اركادي بكثير . فقد دشنت عامها التاسع والعشرين ولكنه كان يشعر في حضورها بأنه تلميذ او طالب ، وكأنما الفرق في عمريهما اكبر من ذلك بكثير . اقترب منها ماتفي ايليتش ومظهره يدل على العظمة واقواله تنم عن التزلف . فانزوى اركادي جانباً ولكنه ظل يتطلع اليها . ولم تفارقها نظراته خلال رقصة الكدريل ايضاً . كانت تتكلم بلا تكلف مع مراقصها ، مثلما تكلمت لتوها مع الموظف الكبير ، وكانت تميل برأسها وانظارها بهدوء ، وقد ضحكت مرتين بخفوت . كان انفها كبيراً بعض الشيء كأنوف جميع الروس تقريباً ، ولم يكن لون بشرتها صافياً لحد الكمال ، ومع ذلك تصور اركادي انه لم يقابل ابداً مثل هذه المرأة الرائعة . ولم تكن نغمات صوتها لتفارق مسمعه ، وحتى طيات بدلتها بدت له على غير ما هي عليه لدى الاخريات ، كانت اوسع واكثر استقامةً ، وكانت حركاتها متناسقة على نحو خاص وطبيعية في الوقت ذاته .

احس اركادي بشيء من الوجل في الفؤاد حين تقدم الى صاحبته عندما تهادت اولى انغام المازوركا ، وعندما اراد ان يتكلم معها لم يفعل غير ان مسد شعره بيده دون ان يعثر على كلمة واحدة مناسبة . الا ان وجله واضطرابه لم يستمرا طويلاً ، فقد انتقلت اليه عدوى الهدوء من اودينتسوفا . ولم يمض ربع ساعة الا وصار يتحدث بطلاقة عن ابيه وعمه وعن الحياة في بطرسبورغ وفي القرية . استمعت اليه اودينتسوفا بأدب وانتباه ، وكانت تفتح مروحتها وتغلقها بعض الشيء . كان اركادي يتوقف عن الثرثرة عندما يدعوها الراقصون للرقص . وبالمناسبة فقد دعاها سيتنيكوف مرتين . كانت تعود فتجلس من جديد وتلتقط المروحة ، وحتى صدرها لم يكن يتنفس اسرع من المعتاد ، بينما يواصل اركادي ثرثرته من جديد ، وهو مغمور بفرحة وجوده قربها والتحدث اليها والتطلع الى عينيها ، والى جبينها الرائع ، والى محياها البديع الذي ينم عن وجاهة وذكاء . كانت قليلة الكلام ، ولكن معرفتها بالحياة تجلت في كلماتها القليلة . ادرك اركادي من بعض

ملاحظات هذه المرأة الشابة انه تيسرت لها معرفة الكثير والتمعن في امور جمة . . .

— من ذلك الذي كان واقفاً معك قبيل ان رافقك السيد سيتنيكوف اليّ ؟ —سألته ، فسألها اركادي بدوره :

— هل لاحظته ؟ ما اجمله ، أليس كذلك ؟ انه صديقي بازاروف .

وطفق اركادي يتحدث عن «صديقه» .

تحدث عنه باسهاب واعجاب جعلا اودينتسوفا تلتفت اليه وتسلط عليه نظرة متفحصة ، في حين كانت المازوركا تقترب من نهايتها . ما اشد اسف اركادي لمفارقة صاحبته : فقد صرف معها زهاء ساعة من احلى الاوقات ! صحيح انه كان طوال هذا الوقت يشعر وكأنها متفضلة عليه وكأنما ينبغي ان يكون ممتناً لها . . . الا ان مثل هذا الشعور لا يثقل على الافئدة الفتية .

صمتت الموسيقى .

فقالت اودينتسوفا ناهضةً :

— (شكرا) * . وعدتني بزيارتي ، فاصطحب صديقك معك . وستكون في منتهى الطرافة رؤية شخص يتجاسر على عدم الايمان بشيء .

اقترب المتصرف من اودينتسوفا فأعلن ان العشاء جاهز وقدم لها يده وقد اكتسى وجهه بمسحة من الاهتمام . التفتت اودينتسوفا ، ذاهبةً ، لكي تبتسم لاركادي وتحني له رأسها لآخر مرة . انحنى هو انحناءه واطئة ولاحقها بنظراته (فكم اعجبه اعتدال قوامها الملفع بلمع رمادي من الحرير الاسود !) وفكر في نفسه : «في هذه اللحظة لم تعد تتذكر وجودي» ، واحس باستسلام رهيف يكتنف جوانحه . . .

— ماذا ؟ — سأل بازاروف اركادي حالما عاد هذا اليه في الركن — هل تمتعت ؟ قال لي احد النبلاء الآن ان هذه السيدة «من الصنف المطواع» بيد ان ذاك النبيل احمق على ما يبدو . وفي رأيك هل هي «من الصنف المطواع» حقا ؟

فأجاب اركادي :

* في الاصل بالفرنسية Merci .

– انني لا افهم هذا النعت حق الفهم .
– يا للبراءة العذرية !
– اذن فأنا لا افهم نبيلك ذاك . اودينتسوفا فاتنة جداً ، دون شك ، ولكنها تتصرف ببرود وصرامة بحيث . . .
– في الماء الساكن تختبئ العفاريت . – اجابه بازاروف . – تقول انها تتصرف ببرود . ذلك ذوق رفيع . انت تحب المرطبات ، أليس كذلك ؟
فدمدم اركادي :
– ربما لا يمكنني ان احكم على ذلك . انها تريد ان تتعرف عليك ورجتني ان اصطحبك اليها .
– اتصور كيف بالغتَ في الحديث عني ! ومع ذلك حسنا فعلت . خذني اليها ، ولا فرق اذا كانت هي معبودة اهالي اللواء او «متحررة» على شاكلة كوكشينا ، فان لديها كتفين لم ار مثلهما من زمان .
تألم اركادي لوقاحة بازاروف ، ولكنه لام صديقه ، كما يحدث غالبا ، ليس على الشيء الذي ازعجه فيه . . . فسأله بهدوء :
– لمَ لا تريد للنساء ان يتمتعن بحرية الفكر ؟ !
– ذلك ، يا اخي ، لأني لاحظت ان القبيحات وحدهن يفكرن بحرية .
توقف الكلام عند هذا الحد . وغادر الشابان المكان فور انتهاء العشاء . فشيعتهما كوكشينا بضحكة عصبية حاقدة ، ولكن بشيء من الاستحياء ، فقد اهينت كرامتها لان هذا وذاك لم يلتفتا اليها . ظلت في الحفلة آخر الجميع ، وفي الساعة الرابعة ليلاً رقصت مع سيتنيكوف المازوركا البولونية على الطريقة الباريسية . وبهذا المشهد الكبير الدلالة اختتمت حفلة المتصرف .

١٥

في اليوم التالي قال بازاروف لاركادي وهما يرتقيان سلم الفندق الذي نزلت به اودينتسوفا :
– سنرى الى اية فصيلة من الثدييات تنتمي هذه المرأة . يخيل اليّ ان شيئا ما هنا ليس على ما يرام .

فهتف اركادي :
– انك تدهشني ! كيف ؟ كيف يجوز لك ، انت بازاروف ، ان تتمسك بتلك الاخلاق المتحجرة التي . . .
–يا لغرابة اطوارك ! – قاطعه بازاروف باستهانة . – أفلا تعرف ان تعبير «ليس على ما يرام» يعني في لهجتنا ، وبالنسبة لنا ، «على ما يرام» ؟ اي ان هناك غنيمة ما . افلست انت الذي قلت اليوم انها تزوجت على نحو يثير الاستغراب ، بالرغم من ان الزواج من عجوز غني ليس ، في رأيي ، بالامر الغريب ابداً ، بل هو ، على العكس ، خطوة حكيمة . انني لا اصدق الاقاويل الشائعة في المدينة ، ولكنني اميل الى الاعتقاد ، كما يقول متصرفنا المستنير ، بانها صادقة .
لم يجب اركادي بشيء ، وطرق الباب . رافق وصيف شاب يرتدي بزة الخدم كلا الصديقين الى غرفة واسعة مؤثثة على نحو سيئ ، كما هو شأن كل الغرف في الفنادق الروسية ، ولكنها تكاد تغص بالزهور . وسرعان ما ظهرت اودينتسوفا نفسها في فستان صباحي بسيط . بدت اكثر فتوة في ضوء شمس الربيع . قدم اركادي لها بازاروف ، ولاحظ بدهشة خفية ان هذا قد ارتبك شيئاً ، في حين ظلت اودينتسوفا هادئة كلياً ، مثلما كانت بالامس . واحس بازاروف نفسه بانه ارتبك ، فاكتأب لذلك ، وفكر في نفسه : «يا للعجب ! ارتعبت من امرأة !» ثم ارتمى على الكرسي بهيئة طليقة ليست افضل من هيئة سيتنيكوف ، وشرع يتكلم مغالياً في عدم التكلف ، بينما لم تحول اودينتسوفا عنه عينيها الصافيتين .
ولدت آنّا سيرغييفنا اودينتسوفا من سيرغي نيكولايفيتش لوكتيف المقامر والنصّاب الوسيم المعروف الذي ذاع صيته طوال خمسة عشر عاماً تقريباً في بطرسبورغ وموسكو وانتهى الى خسران كل شيء في القمار فاضطر على سكنى القرية ، وسرعان ما وافته المنية هناك ، فترك ثروة ضئيلة جداً لابنتيه آنا البالغة من العمر عشرين عاماً وكاترينا البالغة من العمر اثني عشر عاماً . وكانت امهما ، وهي من سلالة الامراء خ . . . الذين احاق بهم الافلاس ، قد توفيت في بطرسبورغ عندما كان زوجها لا يزال في اوج ازدهاره . كانت حالة آنا بعد وفاة ابيها عسيرة للغاية .

فالتربية الممتازة التي تلقتها في بطرسبورغ لم تكن قد اعدتها لتحمل اعباء المعيشة والشؤون المنزلية ولا لحياة الريف الخاوية . ولم تكن تعرف احداً على الاطلاق في المنطقة كلها ، وما كان بوسعها ان تلتمس النصح من احد . كان ابوها يتحاشى الاتصال بالجيران ، فقد كان يحتقرهم وكانوا هم يحتقرونه كل على طريقته الخاصة . الا انها لم تفقد رشدها ، فاستدعت على الفور خالتها الاميرة افدوتيا ستيبانوفنا خ . . . ، وهي عجوز شريرة متعجرفة استأثرت بأفضل الغرف حالماً انتقلت الى دار ابنة اختها وصارت تدمدم وتتذمر من الصباح الى المساء ، وحتى عندما تتمشى في البستان تصطحب وصيفها الوحيد القن المتجهم بعمرته المثلثة وبزته المتهرئة الصفراء الضاربة الى الخضرة والمقصّبة بشريط ازرق . تحملت آنا بصبر كل نزوات خالتها ، وواظبت على تربية اختها شيئا فشيئا ، وكادت تستسلم لفكرة الذبول في الريف . . . الا ان القدر اعد لها مصيراً آخر . فقد لمحها صدفة شخص ثري جداً اسمه اودينتسوف . كان في السادسة والاربعين من العمر ، غريب الاطوار منقبض النفس ، بديناً ثقيلاً متجهماً . ولكنه لم يكن بليداً ولا شريراً . اغرم بها وطلب يدها فوافقت على الزواج منه . غير انه عاش معها زهاء ستة اعوام وقضى نحبه مخلفا لها كل ثروته . قضت آنا سيرغييفنا زهاء عام بعد وفاته دون ان تغادر القرية ، ثم سافرت مع اختها الى الخارج ، ولكنها زارت المانيا فقط. فانتابها الحنين وعادت لتعيش في قرية نيكولسكويه المحببة اليها والتي تبعد زهاء اربعين كيلومتراً عن مدينة (* * *) . لديها هناك دار فاخرة مؤثثة على نحو ممتاز وبستان رائع ذو مشاتل زجاجية : فالمرحوم اودينتسوف لم يبخل على نفسه بشيء . كانت آنا سيرغييفنا نادراً ما تسافر الى المدينة لقضاء بعض الاشغال في اغلب الحالات ، ولأمد قصير . ولم يكن الآخرون في اللواء يحبونها ، فكانوا يستفظعون زواجها من اودينتسوف ويروجون مختلف الاشاعات عنها ويزعمون بانها ساعدت اباها في احابيله وغشه ، وانها لم تسافر الى الخارج عبثاً ، بل لغرض ستر عواقب وخيمة . . . وكان المتحدثون الغاضبون يضيفون الى ذلك قائلين : «هل انتم فاهمون ؟» . كانوا يقولون انها «اجتازت النار والحديد» . وكان المنكت المعروف في اللواء كله يضيف الى ذلك عادة :

«. . . والانابيب النحاسية ايضاً» . وكانت كل هذه الاقاويل تبلغ مسامعها ، ولكنها لا تعيرها اهتماماً . فهي ذات طبع طليق حازم .

جلست اودينتسوفا متكئة على مؤخرة المقعد فوضعت يداً على يد وهي تستمع الى بازاروف الذي تحدث كثيراً ، خلافاً لعادته ، وكان واضحاً انه يحاول الهاء محدثته ، مما اثار استغراب اركادي من جديد . لم يكن اركادي واثقاً مما اذا كان بازاروف قد بلغ مقصده ام لا . فمن الصعب الحكم ، حسب تعابير وجه آنا سيرغييفنا ، على الانطباعات التي تكونت لديها . اذ ان محياها احتفظ بتعبير واحد ، رقيق بشوش ، وومضت عيناها بانتباه هادئ لا يعكر صفوه شيء . كان تصنع بازاروف في اللحظات الاولى للزيارة قد اثار استياءها ، كما تثير الاستياء الرائحة الكريهة او الصوت الحاد ، ولكنها ادركت في الحال ان ذلك بسبب الارتباك ، فانفرجت اساريرها . كان شيء واحد فقط يثير نفورها وهو الابتذال ، الا انه ما من احد بوسعه ان يتهم بازاروف بالابتذال . وتعرض اركادي في ذلك اليوم للدهشة المرة تلو الاخرى . فقد كان يتوقع من بازاروف ان يتكلم مع اودينتسوفا ، كما يتكلم مع امرأة حصيفة ، عن معتقداته وآرائه . فقد اعربت عن رغبتها في الاستماع الى الشخص «الذي يتجاسر على عدم الايمان بشيء» . ولكن بازاروف ، بدلاً من ذلك ، صار يتحدث عن الطب والصيدلة وعلم النبات . واتضح ان اودينتسوفا لم تضيع الوقت سدى في وحدتها : فقد طالعت طائفة من الكتب الجيدة ، وكانت تتكلم بلغة روسية سليمة . سارت بالحديث الى الكلام عن الموسيقى . لكنها لاحظت ان بازاروف لا يعترف بالفن ، فعادت بشكل غير ملحوظ الى علم النبات ، مع ان اركادي تهيأ للكلام عن اهمية الانغام الشعبية . واستمرت اودينتسوفا على معاملته كما يُعامل الأخ الاصغر . خيل اليه انها تقدر فيه طيبته وبساطة الفتوة لا اكثر . استغرق الحديث اكثر من ثلاث ساعات ، وكان متأنياً متنوعاً حيوياً .

نهض الصديقان في آخر الامر وودعا آنا سيرغييفنا فنظرت اليهما برقة وحنان ومدت يدها البيضاء الجميلة الى احدهما ثم الى الآخر ، وفكرت قليلاً ثم قالت بابتسامة طيبة متهيبة :

– اذا كنتما ، ايها السيدان ، لا تخشيان الملل فتعالا الىّ في نيكولسكويه .

فهتف اركادي :

– شكراً ، يا آنا سيرغييفنا ، اني اعتبر ذلك منتهى السعادة . . .

– وانت ، يا مسيو بازاروف ؟

اكتفى بازاروف بانحناءة ، مما اثار دهشة اركادي للمرة الاخيرة ، فقد لاحظ ان وجه صديقه قد احمر شيئاً .

وقال له في الشارع : – ماذا ؟ الا تزال على رأيك بخصوص «الصنف المطواع» ؟

– من يدري ؟ ! الا ترى كيف جمدت نفسها ؟ ! – اعترض بازاروف ، ولكنه اضاف بعد قليل : – انها دوقة متسلطة . لا يعوزها غير حلة طويلة الاذيال وتاج على الرأس .

– دوقاتنا لا يتكلمن الروسية بهذه الطلاقة .

– لقد ذاقت الامرين ، يا اخي ، وعركت الحياة مثلنا .

– ومع ذلك فهي في منتهى الروعة – قال اركادي . فواصل بازاروف كلامه : – يا له من بدن موفور . لا بد من نقله الى طاولة التشريح على الفور .

– كفاك هذراً يا يفغيني ! بالله عليك !بلغ السيل الزبىً .

– لا تزعل ، ايها الفتى الرقيق . قلنا لك جادين انها من صنف ممتاز . وينبغي ان نذهب اليها .

– متى ؟

– بعد غد مثلاً . فما الذي نفعله هنا ؟ هل نظل نحتسي الشمبانيا مع كوكشينا ؟ ام نستمع الى قريبك الموظف الليبرالي الكبير ؟ . . سنشد الرحال بعد غد . ثم ان ضيعة ابي المتواضعة ليست بعيدة من هناك . نيكولسكويه تقع على طريق (* * *) ، أليس كذلك ؟

– بلى .

– (حسنا) * . لا داعى للتواني ، فلا يتوانى الا الحمقى والمتظاهرون بالذكاء . اقول لك : انه بدن موفور !

* في الاصل باللاتينية Optime .

بعد ثلاثة ايام شد الصديقان الرحال الى نيكولسكويه . كان النهار وضاءً معتدل الحرارة . وكانت خيول البريد المتخمة تنهب الطريق بوئام ، وهي تلوح دون عناء بذيولها الملتوية المتشابكة . اخذ اركادي يتطلع الى الطريق ويبتسم دون سبب واضح . الا ان بازاروف هتف فجأة :

– يمكنك ان تهنئني . فاليوم ، الثاني والعشرين من يونيو ، عيد ملاكي الحارس . وسنرى الى اي حد هو مهتم بي ، – ثم اضاف بصوت خفيض : – في البيت ينتظرونني اليوم . . . فلينتظروا ، ما اهمية ذلك ؟ !

١٦

تقع الضيعة التي تقطنها آنا سيرغييفنا على هضبة مكشوفة معتدلة الانحدار على مسافة غير بعيدة عن كنيسة حجرية صفراء ذات سقف اخضر واعمدة بيضاء ومدخل مزين في اعلاه برسم جداري * يمثل «قيام المسيح» على الطراز «الايطالي» . وكانت رائعة على الخصوص الملامح المستديرة في صورة محارب اسمر يرتدي خوذة فولاذية ويتصدر الرسم منبطحاً . ووراء الكنيسة امتدت القرية بصفين من اكواخ تبدو على بعضها مداخن فوق سطوح من القش . وكانت دار اودينتسوفا مبنية بنفس طراز الكنيسة ، وهو الطراز المعروف عندنا باسم الاسكندري . وهي مطلية كذلك بدهان اصفر ولها سطح اخضر واعمدة بيضاء وقوصرة مثلثة ذات شعار . وقد انشأ معماري اللواء كلتا البنايتين بموافقة المرحوم اودينتسوف الذي لم يكن يطيق التجديدات الفارغة الاعتباطية على حد تعبيره . وتحاذى الدار من كلا الجانبين اشجار البستان القديم المعتمة ، ويؤدي الى مدخلها ممر من اشجار الشوح المقلّمة .

استقبل صاحبينا في الدهليز وصيفان فارعا القامة ، اسرع احدهما على الفور لاستدعاء كبير الوصفاء . كان هذا رجلاً بديناً في بزة رسمية سوداء . حضر في الحال ورافق الضيفين على السلم

* في الاصل بالايطالية al fresco .

المفروش بالسجاد الى غرفة خاصة فيها سريران مع جميع مستلزمات الزينة والغسيل . يبدو ان النظام سائد في الدار : فكل شيء نظيف ، وفي كل الانحاء تفوح روائح مقبولـــة ، كما في صالات الاستقبال في الوزارات .

قال كبير الوصفاء :

– آنا سيرغييفنا ترجوكما ان تشرفاها بعد نصف ساعة . فهل من اوامر او توجيهات ؟

فأجاب بازاروف :

– ليست لدينا اوامر ، ايها المحترم ، سوى قدح من الفودكا اذا تفضلت .

– سمعاً وطاعة يا سيدي – قال كبير الوصفاء بشيء من الاستغراب ، وذهب مصراً بجزمته . فعلق بازاروف :

– ياله من اسلوب راق مهيب ! أليس كذلك ؟ انها دوقة حقاً .

فاعترض اركادي :

– اية دوقة هي اذا كانت قد دعت لضيافتها منذ اللقاء الاول ارستقراطيين شديدي البأس مثلنا ؟ !

– وخصوصاً انا ، طبيب المستقبل ، ابن الطبيب وحفيـــد القندلفت . . . انت تعلم اني حفيد قندلفت ، أليس كذلك ؟

– مثل سبيرانسكي (٨١) – اضاف بازاروف بعد فترة صمت قصيرة وقد زم شفتيه . . . – ومع ذلك فقد دللت هذه السيدة نفسها . ما اشد دلالها ! أفلا يتعين علينا ان نرتدي بزة رسمية؟ !

اكتفى اركادي بان هز كتفيه . . . ولكنه هو الآخر احس ببعض الارتباك .

بعد نصف ساعة دخل بازاروف واركادي غرفة الاستقبال . وهي غرفة واسعة عالية السقف مؤثثة بأثاث فاخر تماماً ولكن بدون ذوق رفيع . الموبيليا الثقيلة الثمينة مصفوفة على طول الجدران المزينة بورق بني موشح بلون ذهبي . كان المرحوم اودينتسوف قد اقتناها في موسكو بواسطة صديقه ووكيله تاجر الخمور . وفوق الاريكة الوسطى علقت صورة رجل اشقر مترهل ، بدا وكأنه يسلط على الضيفين نظرة غير ودية . فهمس بازاروف لاركادي : «انه **هو** على ما يبدو» ، ثم اضاف وقد انكمش انفه : «ماذا ؟

هل نهرب ؟» الا ان ربة البيت دخلت في تلك اللحظة . كانت ترتدي فستاناً خفيفاً . وكان شعرها المصفف على نحو املس وراء اذنيها قد اضفى مسحة عذرية على محياها الطري الصافي .

بدأت كلامها قائلة :

– اشكركما على الوفاء بالوعد . ارجو ان تقيما في ضيافتي . الاحوال هنا ليست سيئة في الواقع . وسأعرفكما على اختي . انها تجيد العزف على البيانو . وهذا لا يعني شيئاً بالنسبة لك ياسيو بازاروف ، ولكنك ، ياسيو كيرسانوف ، تحب الموسيقى كما يخيل الي . وبالاضافة الى اختي تعيش عندي خالتي العجوز ، وفي بعض الاحيان يزورنا احد الجيران فنلعب الورق . ذلك هو مجتمعنا كله . اما الآن فلنجلس .

تلفظت اودينتسوفا هذه الخطبة القصيرة بمنتهى الوضوح ، كما لو كانت قد حفظتها عن ظهر قلب . ثم وجهت كلامها الى اركادي ، واتضح ان امها كانت تعرف ام اركادي ، بل وكانت حافظة سر حبها لنيكولاي بتروفيتش . وتكلم اركادي بحماس عن المرحومة والدته ، بينما انشغل بازاروف في تصفح الألبومات وفكر في نفسه : «كم صرت وديعاً !» .

هرعت الى غرفة الاستقبال كلبة سلوقية جميلة بطوق ازرق ، واخذت تداعب الارضية بمخالبها . وعلى اثرها دخلت فتاة في حوالى الثامنة عشرة ذات شعر اسود ومحيا اسمر لطيف مستدير بعض الشيء وعينين سوداوين واسعتين . كانت تحمل سلة مليئـــة بالزهور ، فأومأت اليها اودينتسوفا بحركة من رأسها وقالت :

– هذه اختي كاتيا .

سلمت كاتيا على الحاضرين ثم جلست قرب اختها واخذت تصفف الزهور ، بينما اقتربت الكلبة السلوقية ، واسمها فيفي ، من الضيفين وهي تهز ذيلها ، ودست انفها البارد في يد احدهما ثم في يد الآخر . وسألت اودينتسوفا اختها :

– هل جمعت كل هذه الزهور بنفسك ؟

فأجابت كاتيا :

– اجل .

– وخالتنا ، هل ستأتي لتناول الشاي ؟

– ستأتي .

عندما تتكلم كاتيا تبتسم على نحو رقيق للغاية ، باستحياء وصراحة وتنظر من الاسفل الى الاعلى بشكل طروب وبشيء من الصرامة . كل شيء فيها لا يزال غضاً نضيراً : صوتها والزغب على وجهها كله واليدان الورديتان براحتيهما المائلتين الى بياض والكتفان المضغوطتان بالكاد . . . كانت مصطبغة بالاحمرار دوما وكانت تتنفس بصورة متلاحقة سريعة .

التفتت اودينتسوفا الى بازاروف قائلة :

– انك ، يا يفغيني فاسيليفيتش ، تقلّب الصور بحكم اللياقة لا اكثر . فهي لا تثير اهتمامك . الافضل ان تقترب منا ، فلنتجادل في امر ما .

اقترب بازاروف وسأل :

– فيم نتجادل ، يا سيدتي ؟

– في كل ما تريد . واحذرك بأني احب الجدل كثيرا .

– انت ؟

– اجل . هل يدهشك ذلك ؟ لماذا ؟

– لأن طباعك ، ان صح حكمي ، هادئة باردة ، في حين يتطلب الجدل ولعاً وانهماكاً .

– كيف استطعت ان تخبر طباعي بهذه السرعة ؟ انني عنيدة ضعيفة الصبر . ومن الافضل ان تستفسر من كاتيا عن ذلك . هذا اولاً . ثم اني انساق للولع بسهولة كبيرة .

نظر بازاروف الى آنا سيرغييفنا وقال :

– ربما ، فأنت اعرف . وما دمت تريدين المجادلة فتفضلي . كنت اتطلع الى مناظر سويسرا السكسونية في ألبومك ، لكنك قلت لي ان هذا لا يمكن ان يثير اهتمامي . ولقد قلت ذلك لأنك لا تتصورين وجود شعور فني عندي . وبالفعل فهو غير موجود . لكن هذه المناظر يمكن ان تثير اهتمامي من الناحية الجيولوجية ، من حيث تكوّن الجبال ، مثلاً .

– عفواً . انك ، كجيولوجي ، ستلجأ على الاغلب الى الكتب ، الى المؤلفات المتخصصة ، وليس الى الرسوم .

– الرسم يبين لي بوضوح وايجاز ما يتحدث عنه الكتاب في عشر صفحات كاملة .

لزمت آنا سيرغييفنا الصمت لحظة ، ثم قالت بعد ان استندت بكوعها الى الطاولة فقربت وجهها من بازاروف :

– هل يعقل انه ليست لديك ذرة من الشعور الفني . فكيف تستطيع الاستغناء عنه ؟

– اسمحي لي ان اسألك : ما الحاجة اليه ؟

– من اجل اجادة معرفة الناس ودراستهم على الاقل .

ضحك بازاروف بشيء من السخرية وقال :

– توجد لهذا الغرض ، اولاً ، الخبرة الحياتية ، وثانياً ، افيدك بان لا جدوى من دراسة كل فرد على حدة . البشر متشابهون جسدياً وروحياً . ولدى كل منا دماغ وطحال وقلب ورئتان ، وكلها مبنية بشكل واحد . وحتى ما يسمى بالسجايا الخلقية انما هي واحدة لدى الجميع : فالفروق الطفيفة لا تعني شيئاً . يكفي وجود نموذج بشري واحد لكي يمكن الحكم على الآخرين جميعاً . فالبشر كأشجار الغاب ، وما من عالم نباتي يمارس دراسة كل شجرة على حدة .

رفعت كاتيا التي كانت تصف زهرة الى زهرة دون استعجال انظارها متحيرة الى بازاروف فاحتقن وجهها حمرة حتى الاذنين عندما اصطدمت نظرتها بنظرته السريعة المستهينة . اما آنا سيرغييفنا فقد هزت رأسها وقالت :

– اذا كانوا كأشجار الغاب فذلك يعني ، برأيك ، انه لا فرق بين البليد والذكي ، ولا فرق بين الانسان الخيّر والشرير ، أليس كذلك ؟

– كلا ، يوجد فرق ، كما بين المريض والمعافى . فالرئتان لدى المصاب بالتدرن ليستا بمثل حالتهما لدينا ، مع انهما مبنيتان بشكل واحد . ونحن نعرف على وجه التقريب بواعث العلل الجسدية ، اما العلل الاخلاقية فسببها التربية الفاسدة ومختلف التفاهات التي تتحشى بها ادمغة البشر منذ الصغر . سببها ، باختصار ، حالة المجتمع البشعة . فصححوا اوضاع المجتمع ولن تظل هناك علل .

كان بازاروف يتحدث بشكل بدا معه وكأنه يفكر في الوقت ذاته على النحو التالي : «لا فرق بين ما اذا كنت تصدقينني ام

لا !» . مسد فوديه بحركة بطيئة من اصابعه الطويلة ، بينما راحت عيناه تجولان في الانحاء . فقالت آنا سيرغييفنا :

– تتصور انه لن يبقى هناك بلداء ولا اشرار بعد تصحيح المجتمع ؟

– لدى توفر النظام الاجتماعي الصائب سيكون سواء ، على اقل تقدير ، ما اذا كان الانسان بليداً او ذكياً ، شريراً او خيراً .

– اجل ، فهمت . سيكون لدى الجميع نفس الطحال المتماثل .

– بالضبط ، يا سيدتي الجليلة .

فالتفتت اودينتسوفا الى اركادي متسائلة :

– وانت ، يا اركادي نيكولايفيتش ، ما هو رأيك ؟

فأجاب اركادي :

– انني متفق مع يفغيني .

نظرت اليه كاتيا عابسةً . فقالت اودينتسوفا :

– انكما تثيران دهشتي ، ايها السيدان . ولكننا سنواصل الحديث فيما بعد . فان خالتي قادمة لتناول الشاي . وعلينا ان نرأف بحالها .

دخلت الاميرة خ . . . ، خالة آنا سيرغييفنا ، وهي امرأة قميئة نحيلة ذات وجه صغير منقبض وعينين شريرتين جامدتين تطلان من تحت شعر مستعار اشيب . انحنت للضيفين بالكـــاد وارتمت على المقعد المخملي الواسع الذي لا يحق لاحد غيرها ان يجلس عليه . وضعت كاتيا تكية تحت قدمي العجوز فلم تشكرها على ذلك بل ولم تنظر اليها ، سوى انها حركت يديها تحت الوشاح الاصفر الذي يغطي جسمها النحيف كله تقريباً . الاميرة تحب اللون الاصفر . فحتى قلنسوتها مزينة بأشرطة صفراء صارخة .

سألتها اودينتسوفا رافعةً صوتها اكثر من المعتاد :

– كيف قضيتِ ليلتك يا خالتي ؟

– هذه الكلبة هنا ايضاً – دمدمت العجوز بدلاً من الجواب ، وعندما لاحظت ان فيفي قامت بخطوتين مترددتين نحوها صاحـــت بها : – اغربي ! اغربي !

استدعت كاتيا فيفي وفتحت لها الباب :

فاندفعت فيفي الى الخارج فرحةً على امل ان احداً ما سيذهـــب للتنزه معها ، ولكنها عندما ظلت وحدها وراء الباب اخذت تخدشه

وتزعق بخفوت . عبست الاميرة ، زمت كاتيا بالخروج . . .

فقالت اودينتسوفا :

– اظن ان الشاي جاهز ، أليس كذلك ؟ ايها السيدان ، هيا ، يا خالتي تفضلي لتناول الشاي .

نهضت الاميرة صامتةً من مقعدها وخرجت في مقدمة الجميع من غرفة الاستقبال ، فتوجه الآخرون على اثرها الى غرفة الطعام . ازاح وصيف صغير مقعداً محفوفاً بالوسائد عن المائدة وقد اثار صريفاً . هذا المقعد مخصص هو الآخر للاميرة فارتمت عليه . صبت كاتيا الشاي وقدمت اليها اولاً قدحاً مزخرفاً بشعار ملون . وصبت العجوز لنفسها شيئاً من العسل في القدح (فكانت ترى ان احتساء الشاي بالسكر خطيئة وانه يكلف غالياً مع انها لم تنفق كوبيكاً واحداً على اي شيء) . ثم سألت على حين غرة بصوت ابح وبلهجة ملتوية :

– ماذا كتب الامير ايفان ؟

لم يجبها احـــد . وسرعان ما ادرك بازاروف واركادي ان اصحاب البيت لا يعيرونها اهتماماً بالرغم من احترامهم الظاهري لها . وفكر بازاروف في نفسه : «يحتفظون بها من اجل المظاهر لأنها من سلالة الأمراء» . . . اقترحت آنا سيرغييفنا بعد تناول الشاي الذهاب للنزهة . الا ان المطر بدأ يتساقط رذاذاً ، فعاد الجميع الى غرفة الاستقبال ما عدا الاميرة . وصل الجار المحب للعب الورق . واسمه بورفيري بلاتونيتش . وهو شخص بدين اشيب قصير القامة ، مرح ومؤدب للغاية . كانت آنا سيرغييفنا تتحدث مع بازاروف اكثر من غيره فسألته عما اذا كان راغباً في ان ينازلهما في لعبة البريفرانس العتيقة . فوافق بازاروف معلناً انه يتعين عليه ان يتعود على قتل الفراغ بلعب الورق كي يستعد مسبقاً للوظيفة التي تنتظره كطبيب في احد الاقضية . فقالت آنا سيرغييفنا :

– ولكن حذار . فأنا وبورفيري بلاتونيتش سنحطمك . – ثم اضافت قائلة : – امـا انت يا كاتيـا فاعزفي شيئاً لاركادي نيكولايفيتش اذ انه يهوى الموسيقى ، وسوف نستمع اليها نحـن ايضاً .

اقتربت كاتيا من البيانو على مضض . وتبعها اركادي على

مضض ايضاً مع انه يهوى الموسيقى فعلا . فقد خيل اليه ان اودينتسوفا تبعده عنها بينما اجتاح فؤاده ، كما هو شأن اي شاب في عمره ، ذلك الشعور الغامض المتلهف الشبيه ببوادر الحب . رفعت كاتيا غطاء البيانو وسألت بصوت خفيض دون ان تنظر الى اركادي :

– ما الذي تريد ان اعزف ؟

فأجاب اركادي بلا مبالاة :

– ما تشائين .

فكررت كاتيا السؤال دون ان تبدل جلستها :

– اية موسيقى تفضل ؟

فأجاب اركادي بنفس اللهجة :

– الكلاسيكية .

– هل تحب موزارت ؟

– احب موزارت .

احضرت كاتيا نوطات السوناتا الفانطازية لموزارت . وعزفتها على نحو ممتاز وان بشيء من الصرامة والجفاف . جلست باستقامة وبلا حراك دون ان تحيد بنظرها عن النوطات وقد ضمت شفتيها بشدة ، وفي آخر السوناتا احتقن وجهها وتدلت خصلة صغيرة من شعرها المتهدل على حاجبها القاتم .

اعجب اركادي خصوصاً بالقسم الاخير من السوناتا الذي تظهر فيه بغتة ، وسط فرحة النغم المنطلق الآسرة ، انفعالات الكآبة المريرة ، المأساوية تقريباً . . . الا ان افكار اركادي التي اثارتها انغام موزارت لم تكن تحوم حول كاتيا . فعندما نظر اليها لم تخطر على باله غير فكرة واحدة : «هذه الفتاة تعزف على نحو لا بأس به ، وهي نفسها لا بأس بها» .

بعد ان انتهت كاتيا من عزف السوناتا سألت دون ان ترفع يديها عن مفاتيح البيانو : «كفاية ؟» .

فقال اركادي انه لا يجرأ على تكليفها المزيد ، وشرع يتكلم معها عن موزارت ، وسألها عما اذا كانت قد اختارت هذه السوناتا بنفسها ام ان احداً ما نصحها بذلك . الا ان كاتيا كانت تجيبه باختصار . فقد انطوت على نفسها وتقوقعت . عندما تنتابها تلك الحالة يكتسي وجهها بمسحة من العناد الذي يقرب من البلادة . وما

كانت لتخرج الى السطح من قوقعتها الا بعد فترة . لم تكن خجولة ، لكنها كانت مرتابة وعلى شيء من الوجل من اختها التي ربتها ، وما كانت هذه الاخيرة تعرف بذلك طبعاً . وانتهى الامر بأركادي الى ان استدعى فيفي التي عادت واخذ يمسد رأسها بابتسامة ملاطفة بحكم اللياقة لا اكثر . وراحت كاتيا تصفف ازهارها من جديد .

اما بازاروف فكان يتعرض لجزاء تلو آخر . كانت آنا سيرغييفنا تلعب الورق بمهارة ، وكان بورفيري بلاتونيتش ماهراً ايضاً . لذا ظل بازاروف هو المغلوب ولو قليلاً ، الا ان ذلك لم يكن بالامر المريح له تماماً . وخلال العشاء عادت آنا سيرغييفنا الى الكلام عن علم النبات حيث قالت لبازاروف :

– فلنذهب للنزهة غداً منذ الصباح . اريد ان اعرف منك التسميات اللاتينية للنباتات البرية وخواصها .

– وما حاجتك الى التسميات اللاتينية ؟ – سأل بازاروف فأجابته هي :

– ينبغي ان يسود النظام كل شيء .

عندما خلا اركادي بصديقه في الغرفة المخصصة لهما هتف قائلا :

– ما اروعها !

– اجل . آنا سيرغييفنا إمرأة ذكية . لقد رأت ما رأت .

– بأي معنى تقول ذلك ، يا يفغيني فاسيليفيتش ؟

– بمعنى طيب ، يا عزيزي ! وانا واثق من انها تتصرف بضيعتها على افضل ما يكون . الا ان المعجزة ليست هي وانما اختها .

– كيف ؟ تلك السمراء ؟

– اجل ، تلك السمراء . فهي النضارة التي لم يمسها احد . انها الخوف والصمت وكل ما يرغب المرء فيه . وهي تستحق الاهتمام . يمكنك ان تصنع منها ما تشاء . اما تلك فهي امرأة محنكة .

لم يرد اركادي على بازاروف بشيء . رقد كلاهما وفي ذهنه افكاره الخاصة .

كانت آنا سيرغييفنا في ذلك المساء تفكر هي الاخرى بضيفيها . اعجبها بازاروف بعدم تصنعه وبحدة احكامه . وجدت

فيه شيئاً جديداً لم تصادفه من قبل ، في حين لا يعوزها الفضول .

كانت آنا سيرغييفنا كائنا غريب الاطوار لدرجة كبيرة . فهي لا تؤمن بأية خرافات وليس لديها اية معتقدات راسخة ، لكنها لا تتنازل لأحد ولا تتبع احداً . لقد رأت الكثير ، واولعت بالكثير ، ولكن ما من شيء يرضيها بالتمام والكمال ، بل ومن المستبعد انها كانت راغبة فيما يرضيها بالتمام والكمال . كان ذهنها حاداً ولاابالياً في الوقت ذاته : لم تكن شكوكها لتخمد ابداً الى حد النسيان ، كما لم تكن لتتأجج ابداً الى حد القلق . ولو لم تكن ثرية مستقلة لربما انخرطت في المعركة وتذوقت طعم الهوى . . . لكنها كانت تعيش حياتها بيسر رغم الضجر الذي ينتابها احياناً ، وهي تواصل توديع ايامها الواحد تلو الآخر دون استعجال ، ودون تهيج تقريباً . كانت الألوان المستبشرة تلوح احياناً امام ناظريها ، لكنها تشعر بالارتياح لتلاشي تلك الألوان ولا تحس بالأسف لغيابها . كان تصورها يتجاوز حتى حدود ما تعتبره مبادئ الاخلاق المعتادة امراً مسموحاً به ، لكن دمها حتى في تلك الحالة يظل يجري باستقرار كالسابق في بدنها الهادئ القويم الجذاب . ويصادف انها ، عندما تخرج من الحمام المعطر دافئةً رقيقةً كل الرقة ، تأخذ في تأمل تفاهات الحياة وكدحها وشرورها . . . فيمتلئ فؤادها ببسالة مفاجئة ، ويطفح بالمطامح النبيلة ، ولكن آنا سيرغييفنا تنقبض وتتأوه حالما يهب نسيم من النافذة المواربة ، فتكاد تزعل ، ولا تعود بحاجة في تلك اللحظة الا الى شيء واحد هو ان لا يهب هذا النسيم الدنيء عليها .

كانت تريد شيئا ما ، شأنها شأن جميع النساء اللواتى لم يتسن لهن ان يتذوقن طعم الحب ، ولكنها لا تعرف ماذا تريد بالضبط . وفي الواقع فهي لم تكن تريد شيئاً ، بالرغم من توهمها بانها تريد كل شيء . كانت بالكاد تطيق المرحوم اودينتسوف (فقد تزوجت منه لمصلحة ، بالرغم من انها ربما لم تكن لتوافق ان تصبح زوجة له لو لم تعتبره انساناً طيباً) فولد لديها ذلك اشمئزازاً خفياً من جميع الرجال ، فلم تعد تتصورهم الا بشكل كائنات ثقيلة ذاوية متحشفة وملحاحة عاجزة . ذات مرة صادفت في مكان ما في الخارج فتى سويدياً وسيماً بمحيا تكسوه مسحة من الفروسية وعينين زرقاوين طاهرتين تظللهما جبهة عريضة . ترك

فيها هذا الفتى اثراً شديداً ، ولكن ذلك لم يمنعها من العودة الى روسيا .

فكرت آنا سيرغييفنا في نفسها : «يا لهذا الطبيب من شخص غريب الاطوار !» وهي مضطجعة في فراشها الرائع على وسائد مخرمة تحت لحاف حريري خفيف . لقد ورثت عن ابيها بعضا من ميله الى الابهة . وهي تكنّ حباً جماً لأبيها الخاطئ والطيب في الوقت ذاته . وكان هو متيماً بها ، يمزح معها بود كالنـــد للنـــد ، ويثق بها تمام الثقة ويلتمس النصح عندها . لكنها لا تتذكر امها .

وفكرت من جديـــد : «يا لهذا الطبيب من شخص غريب الاطوار !» . تمددت وابتسمت واشبكت يديها تحت رأسها ، ثم جابت بنظراتها على عجل زهاء صفحتين من رواية فرنسية تافهة ، وسقط الكتاب من يديها وغفت نظيفةً باردةً في بياضات نظيفة عاطرة .

في صباح اليوم التالي توجهت آنا سيرغييفنا مع بازاروف فور انتهاء الفطور لدراسة النباتات البرية ولم تعد الا قبيل الغداء . لم يترك اركادي المكان فصرف زهاء ساعة مع كاتيا دون ان يشعر بالملل ، وقد اعربت هي نفسها عن استعدادها لتكرار سوناتا الامس ، لكن قلبه انقبض في الحال عندما عادت اودينتسوفا اخيراً وعندما رآها . . . كانت تسير في البستان بخطوات متعبة بعض الشيء ، وكانت وجنتاها متوردتين وعيناها تلمعان بأسطع من المعتاد تحت قبعة القش المستديرة . كانت اصابعها تداعب عوداً رفيعاً لزهرة برية ، وقد هبطت طرحتها الخفيفة على مرفقيها وتدلت الاشرطة الرمادية العريضة من القبعة فلامست صدرهـــا . كان بازاروف يسير خلفها واثقاً من نفسه وبلا اعتناء ، كما هي عادته دوماً ، الا ان ملامح وجهه لم تعجب اركادي بالرغم من مرحها بل وحتى رقتها . توجه بازاروف الى غرفته بعد ان دمدم : «مرحباً !» . اما اودينتسوفا فقد شدت على يد اركادي شاردة البال ومرت ازاءه هي الاخرى .

ففكر اركادي : «لماذا قال لي مرحباً ، أفلم نلتق اليوم ؟» * .

* من عادات الروس ان يحيوا بعضهم البعض بكلمة «مرحبا» مرة واحدة في اليوم لا اكثر . — **المترجم** .

١٧

الزمن (وهذا امر معروف) يطير كالطير احيانـــاً ويزحف كالسلحفاة احياناً اخرى . الا ان المرء يغدو على احسن حال عندما لا يلاحظ كيف يمر الزمن : سريعاً او بطيئاً . على هذه الحال بالذات صرف اركادي وبازاروف لدى اودينتسوفا زهاء خمسة عشر يوماً . وساعد على ذلك ما اعتادت عليه هي من نظام في دارها وحياتها . كانت متمسكة بهذا النظام تمسكاً صارماً ، وكانت تحمل الآخرين على الانصياع له . فكل شيء في غضون اليوم الواحد يجري في اوقاته المحددة . في تمام الثامنة صباحاً يلتئم الجمع لاحتساء الشاي . وفي الفترة بين الشاي والفطور يفعل كل ما يشاء ، وكانت ربة البيت نفسها آنذاك تسوي الامور مع الوكيل (فلاحو الضيعة يعملون على اساس الجزية) ومع كبير الوصفاء وكبيرة مدبرات المنزل . وقبيل الغداء يلتئم الجمع من جديد لتجاذب اطراف الحديث او للمطالعة . وكانت فترة المساء تخصص للتنزه ولعب الورق والموسيقى . وفي الساعة العاشرة والنصف تتوجه آنا سيرغييفنا الى مضجعها لتنام بعد ان تصدر اوامرها بخصوص يوم غد . لم يرق لبازاروف تنظيم الحياة اليومية الرتيب هذا والمتسم بشيء من المراسيم الاحتفالية . كان يقول : «كأن المرء يتدحرج على سكة حديد» . ويعتبر الخدم ببزاتهم الخاصة والوصفاء الخاشعين بمثابة اهانة لمشاعره الديمقراطية . ويرى انه ما دامت الامور تسير على هذا الشكل فينبغي تناول الغداء على الطريقة الانجليزية اذن : ببزات رسمية وربطات عنق بيضاء . وقد تداول في هذا الموضوع ذات مرة مع آنا سيرغييفنا التي اعتادت ان يعرض كل شخص امامها آراءه بلا مواربة . استمعت اليه ثم قالت : «انت محق من وجهة نظرك . ولربما انني ، في هذه الحالة ، ابدو اقطاعية حقا . لكنه لا يجوز العيش في الريف على نحو مشوش ، فالضجر سيقتلنا آنذاك» . وواصلت العمل على هواها . كان بازاروف يتذمر من ذلك . لكن السبب الذي جعله واركادي يعيشان بيسر وسهولة عند اودينتسوفا هو بالذات ان كل شيء في دارها «كأنما يتدحرج علـى سكة حديد» . ومع ذلك حدث تغير لدى كلا الشابين منذ الايام الاولى لمكوثهما في نيكولسكويه . فان بازاروف الذي مالت اليه

آنا سيرغييفنا ، كما هو واضح ، بالرغم من ندرة اتفاقها معه ، صار يشعر بقلق لم يكن يعرف له اثراً في السابق : غدا سريع الانزعاج ، قليل الرغبة في الكلام ، واخذ ينظر شزراً ، ولا يقر له قرار ، كما لو انه يشعر بوخز خفي . اما اركادي الذي خيل اليـه نهائياً بأنه وقع في غرام اودينتسوفا فقد اخذ ينساق للكآبـة الهادئة . ومع ذلك لم تمنعه هذه الكآبة من التقرب الى كاتيا ، بل وساعدته على ان يقيم معها علاقات ودية رقيقة . فكر اركادي في نفسه : «تلك لا تقدرني ! فليكن ! . . اما هذا الكائن الطيـب فلا يرفضني» ، وتذوق قلبه من جديد حلاوة الاحاسيس المتسامحة . كانت كاتيا تخمن بأنه يبحث عن تهدئة للنفس بمعاشرتها ، فلم تحرمه ولم تحرم نفسها من اللذة العذرية الناجمة عن الصداقة المشوبة بشيء من الخجل والموشحة بشيء من الثقة . وما كان الاثنان ليحادثا بعضهما البعض بحضور آنا سيرغييفنا : كانت كاتيا تنكمش دوماً بتأثير نظرة اختها الثاقبة ، اما اركادي فما كان باستطاعته ، شأنه شأن اي محب ، ان يلتفت الى اي كائن آخر بحضور محبوبته ، ولكنه لم يكن يشعر بالارتياح الا لوجوده مع كاتيا وحدهـــا . كان يدرك بانـــه عاجز عن اثارة اهتمام اودينتسوفا ، ولذا فهو يعاني من الوجل والحيرة عندما يبقى معها وحيداً . ولم تكن هي الاخرى تعرف ماذا ينبغي ان تقول له : فهو لا يزال يافعاً جداً بالنسبة لها . اما مع كاتيا فعلى العكس . كان اركادي يشعر وكأنه مع واحد من اهله ، وكان متساهلاً معها ، فلا يعيقها عن الاعراب عن الانطباعات التي تخلفها في نفسهـــا الموسيقى ومطالعة القصص والاشعار وغير ذلك من التفاهات ، دون ان يلاحظ او يدرك ان هذه التفاهات تشغل باله هو ايضاً . ولم تكن كاتيا ، من ناحيتها ، لتعيقه عن الاستسلام للأحزان . كان اركادي يرتاح لكاتيا ، وكانت اودينتسوفا ترتاح لبازاروف ولذلك جرت العادة على ان يلتقي الاربعة لأمد قصير ثم يفترقوا فيتوجه كل زوج الى جهته ، وخصوصاً اثناء النزهات . كاتيا مغرمة بالطبيعة ، واركادي يحب الطبيعة ايضا بالرغم من انه لم يجرؤ على الاعتراف بذلك . كانت اودينتسوفا ، شأنها في ذلك شأن بازاروف ، غير مولعة بالطبيعة . ولم تمر الفرقة المستمرة تقريباً بين صاحبينا دون ان تترك اثرها : فقد اخذت علاقاتهما تتغير .

كف بازاروف عن التحدث الى اركادي بشأن اودينتسوفا ، بل وكف حتى عن نقد «عاداتها الارستقراطية» ، ولكنه ظل كالسابق يمتدح كاتيا ، سوى انه نصح بتهدئة الميول العاطفية لديها . الا ان مدائحه كانت مستعجلة ونصائحه جافة . وعلى العموم صار يتحدث مع اركادي اقل بكثير من السابق . . . لقد بدا وكأنه يتحاشاه ويخجل منه . . .

لاحظ اركادي ذلك كله ، ولكنه احتفظ بملاحظاته لنفسه .

كان السبب الفعلي لهذا «التغير الطارئ» هو الشعور الذي اوحته اودينتسوفا لبازاروف ، فصار يعذبه ويخرجه عن طوره ، في حين كان بازاروف مستعداً للتخلي عنه في الحال بقهقهة مستهينة وشتائم وقحة لو ان احداً ما لمح مجرد تلميح الى احتمال وقوع ما يعتمل في دخيلته . كان بازاروف من اشد هواة النساء والجمال الانثوي ، ولكنه نعت الحب المثالي ، او الرومانسي على حد تعبيره ، بالهراء وبالحماقة التي لا تغتفر ، واعتبر المشاعر الفروسية بمثابة القبح او المرض ، واعرب اكثر من مرة عن استغرابه من عدم زج توغينبورغ * مع جميع شعراء الفروسية العاطفيين في دار المجاذيب . كان يقول : «اذا اعجبتك امرأة فحاول ان تحصل منها على مبتغاك ، واذا لم يكن هذا ممكناً ، فلا داعي لشيء ، حول وجهك عنها : فالكون غير متوقف عليها» . لقد راقت له اودينتسوفا . وكانت الاشاعات المنتشرة عنها وطلاقة افكارها واستقلالها وميلها دون شك اليه — كل ذلك كان لصالحه حسب الظاهر . لكنه سرعان ما ادرك بانه «لن يحصل منها على مبتغاه» ، وبانه لا يمتلك القوى الكافية ، ويا لدهشته ، لتحويل وجهه عنها . كان دمه يفور حالما يتذكرها . وكان بوسعه ان يكبح دمه بسهولة ، لكن شيئاً آخر اجتاحه ، شيئا ما كان يتوقعه ابداً ، شيئاً كان يسخر هو منه دائماً ، مما اهان كبرياءه اشد اهانة . وصار في احاديثه مع آنا سيرغييفنا يعرب بأكثر من السابق عن احتقاره اللاابالي لكل ما هو رومانسي ، ولكنه عندما يخلو بنفسه يشتاط غضبا لوجود الرومانسي في دخيلته هو . وعند ذاك

* بطل ملحمة شيلر «الفارس توغينبورغ» . — **المترجم** .

يتوجه الى الغابة ويجوبها بخطوات واسعة محطماً الاغصان التي تصادفه ومسلطاً اللوم بصوت خافت على اودينتسوفا وعلى نفسه ، او يرتقي بيدر العشب المجفف في العنبر ثم يغلق عينيه بعناء ليرغم نفسه على النوم ، الامر الذي لا يتيسر له على الدوام بالطبع . وعلى حين غرة يخيل اليه ان هاتين العينين الذكيتين ستحدقان في عينيه برقة ، اجل برقة . . . وعند ذاك ينتابه الدوار ، وينسى نفسه للحظة الى ان يثور الحنق فيه من جديد . كان يلوم نفسه على مختلف انواع الافكار «الشائنة» ، كما لو ان الشيطان هو الذي اغواه . ويخيل اليه احياناً ان تغيراً يطرأ على اودينتسوفا ايضاً ، وان شيئاً ما متميزاً صار يبدو على ملامح وجهها ، لربما . . . ولكنه آنذاك كان يضرب الارض برجله عادة او يصر على اسنانه ويهدد نفسه بقبضته .

والحال فان بازاروف لم يكن على خطأ تماما . لقد ادهش اودينتسوفا وشغل بالها فصارت تفكر فيه كثيراً . لم تكن تشعر بالملل في غيابه ولم تكن تتوق اليه ، لكن ظهوره ينعشها على الفور ، وهي تنفرد به برغبة وتتحدث اليه برغبة حتى عندما يغيظها او ينال من ذوقها ومن عاداتها الرشيقة . كانت كأنما تريد ان تختبره وتختبر نفسها .

ذات مرة اعلن بصوت متجهم وعلى نحو مباغت ، اثناء تجوله معها في البستان ، انه ينوي السفر قريبا الى ابيه في القرية . . . شحب لونها وكأنما تعرض قلبها لوخزة ، وخزة حادة اثارت دهشتها وجعلتها فيما بعد تفكر لأمد طويل فيما يعنيه ذلك . وما كان بازاروف ليعلن لها عن رحيله بغية اختبارها ومعرفة ما يمكن ان يؤول اليه ذلك : فهو لم يكن يلجأ الى الكذب ابداً . اذ انه تقابل في صباح ذلك اليوم مع خادمه السابق تيموفييتش الذي اصبح وكيلاً لأبيه . وهو عجوز ضئيل محنك ورشيق بشعره الاصفر الباهت ووجهه المتورد المسفوع وعينيه المنكمشتين المنطويتين على دمعتين دقيقتين . فعلى حين غرة مثل امام بازاروف تيموفييتش هذا بقفطانه القصير من الجوخ السميك الرمادي المائل الى الزرقة ، وجزمته المطلية بالقطران ، وهو متمنطق بحزام جلدي مقطوع الطرفين . هتف به بازاروف قائلا :

— هيا ، مرحباً يا شيخ !

– مرحباً يا سيدي يفغيني فاسيليفيتش – اجاب العجوز وابتسم منشرحاً ، فاكتسى وجهه فوراً بالتجاعيد والغضون .

– لمَ جئت ؟ ارسلوك لاستدعائي ، أليس كذلك ؟

– معذرة ، يا سيدي ، كيف يجوز ذلك ؟ – تمتم تيموفييتش (وقد تذكر الوصية الصارمة التي تلقاها من سيده الأب قبيل رحيله) – كنت متوجهاً الى المدينة لأداء بعض الشؤون ، فسمعت بوجود حضرتكم ، ولذا عرجت في طريقي ، لأنظر الى طلعتكم البهية . . . فكيف لي ان اقلقكم ؟ !

– لا تكذب – قاطعه بازاروف –فهل يمر الطريق الى المدينة من هنا ؟

انكمش تيموفييتش ولم يحر جواباً .

– كيف حال والدي ؟ هل هو بصحة جيدة ؟

– الحمد لله ، يا سيدي .

– ووالدتي ؟

– ايرينا فلاسيفنا كذلك ، والحمد لله .

– لا بد انهما ينتظرانني ، أليس كذلك ؟

مال العجوز برأسه الضئيل جانباً وقال :

– آه ، يا يفغيني فاسيليفيتش ، كيف لا ينتظران ؟ ! الله شاهد على ما اقول . يتفطر القلب ألماً عندما انظر الى والديكم .

– كفى ، كفى ، لا تبالغ . قل لهما باني سأحضر قريباً .

– سمعاً وطاعةً ، يا سيدي – اجاب تيموفييتش وتنفس الصعداء .

خرج من الدار وهو يرتدي عمرته ويشدها على رأسه بكلتا يديه . صعد الى عربته الخفيفة المزرية التي تركها عند البوابة ، ثم اسرع بها خبباً ، ولكن ليس باتجاه المدينة .

في مساء ذلك اليوم كانت اودينتسوفا جالسةً في غرفتها مع بازاروف ، بينما راح اركادي يجوب القاعة منصتاً الى عزف كاتيا . وقبعت الاميرة في غرفتها في الطابق العلوي ، فهي على العموم لا تطيق الضيوف ، وخصوصاً هذين «الوقحين الجديدين» كما وصفتهما . اعتادت ان تجلس منتفخة الاوداج في سائر غرف المنزل ، ولكنها عندما تختلي في غرفتها تنفجر احيانا امام وصيفتها بشتائم

مقذعة بحيث تهتز قلنسوتها على رأسها مع شعرها المستعار من جراء الانفعال . وكانت اودينتسوفا على علم بذلك .

بدأت كلامها متسائلة :

– كيف عزمت على السفر دون ان تفي بوعدك ؟

انتفض بازاروف :

– اي وعد يا سيدتي ؟

– هل نسيت ؟ لقد اردت ان تقدم لي بضعة دروس في الكيمياء .

– لا حيلة في الامر ! والدي ينتظرني . ولا يجوز ان اتأخر اكثر مما تأخرت . بالمناسبة يمكنك ان تقرأي كتاب («مبادئ الكيمياء العامة» من تأليف بيلوز وفريمي) * فهو كتاب جيد بلغة واضحة . وستجدين فيه كل ما تحتاجين اليه .

– أفلا تتذكر انك اكدت لي ان الكتاب لا يمكن ان يعوض عن . . . نسيت تعبيرك ، ولكنك تعرف ما اريد ان اقول . . . هل تتذكر ؟

– لا حيلة في الامر يا سيدتي ! – كرر بازاروف .

فقالت اودينتسوفا بصوت اوطأ :

– ما الداعي للسفر ؟

القى عليها بنظرة ومالت هي برأسها الى مؤخرة المقعد وصلبت يديها العاريتين حتى المرفقين على صدرها . بدت شاحبة في ضوء المصباح الوحيد المغطى بأباجور من قماش مخرم . وكان فستان ابيض فضفاض يلفعها كلياً بطياته الناعمة ، وبالكاد بدا طرفا رجليها المتصالبتين ايضاً .

اجابها بازاروف بسؤال : وما الداعي للبقاء ؟

التفتت اودينتسوفا :

– كيف ؟ أفلست مسروراً عندي ؟ ام انك تظن بانه لن يأسف عليك احد هنا ؟

– انا واثق من ذلك .

---

* في الاصل بالفرنسية Pelouse et Frémy « Notions générales de Chimie » جول بيلوز (١٨٠٧–١٨٦٧) وادموند فريمي (١٨١٤–١٨٩٤) عالمان فرنسيان صدر كتابهما في باريس عام ١٨٥٣ .



صمتت اودينتسوفا قليلاً ثم قالت :

– عبثاً تفكر هكذا . وبالمناسبة انا لا اصدقك . فليس بامكانك ان تقول ذلك بجد – ظل بازاروف جالساً بلا حراك – لماذا الصمت ، يا يفغيني فاسيليفيتش ؟

– ما الذي يمكنني ان اقوله لك ؟ لا داعي للتأسف على الناس عموماً ، وعليّ خصوصاً .

– لماذا ؟

– انا شخص مستقيم موحش ، ولا اجيد الكلام .

– انك تنشد المديح يا يفغيني فاسيليفيتش .

– ليس ذلك من عاداتي . أفلا تعلمين ان التمتع بالجانب الجميل من الحياة ، ذلك الجانب الذي تعتزين به انت ، ليس في مقدوري ؟

اخذت اودينتسوفا تمضغ طرف منديلها اليدوي ثم قالت :

– فكر ما شاء لك . اما انا فسأشعر بالضجر عندما تسافر .

فقال بازاروف :

– سيظل اركادي عندكم .

هزت اودينتسوفا كتفيها وكررت من جديد :

– سأشعر بالضجر .

– على كل حال لن تضجري لأمد طويل .

– لماذا تفترض ذلك ؟

– لأنك قلت لي ان الضجر لا ينتابك الا عندما يصيب الخلل النظام لديكم . وقد بنيت حياتك على نحو صائب لا خلل فيه ، بحيث لن يبقى فيها مجال لا للضجر ولا للسأم . . . بل ولا لأية مشاعر مريرة .

– هل صحيح ما تقول ؟ هل بنيت حياتي على نحو صائب حقاً ؟

– كيف لا ؟ ! الساعة ، مثلاً ، ستدق العاشرة بعد لحظات ، وانا اعرف مسبقاً انك ستطردينني .

– كلا ، لن اطردك ، يا يفغيني فاسيليفيتش . بوسعك ان تبقى . افتح هذه النافذة . . . فقد ضاقت انفاسي شيئاً .

نهض بازاروف ودفع النافذة فانفتحت مدويةً على مصراعيها . . . لم يكن يتوقع انها ستنفتح بهذه السهولة ، ثم ان

يديه ترتعشان . اطلت على الغرفة ليلة ناعمة حالكة بسماء سوداء تقريباً واشجار ينبعث منها حفيف خفيف ونسيم طلق عليل تفوح منه رائحة طرية .

فقالت اودينتسوفا :

– اسحب الستارة واجلس . اريد ان اثرثر معك قبيل رحيلك . حدثني قليلاً عن شخصك ، فانت لا تتكلم عن نفسك ابداً .

– احاول ، يا آنا سيرغييفنا ، ان اتحدث معك عن اشياء نافعة .

– انت في منتهى التواضع . . . ولكن بودي ان اعرف شيئاً عنك ، عن اسرتك ، عن والدك الذي تتركنا من اجله .

ففكر بازاروف : «لماذا تقول مثل هذا الكلام ؟» ثم نطق بصوت مسموع :

– ليس في ذلك ما يسر ابداً . وخصوصاً بالنسبة لك . فنحن من سواد البشر . . .

– اما انا فارستقراطية برأيك ، أليس كذلك ؟

رفع بازاروف بصره اليها وقال بحدة فيها شيء من المبالغة :

– بلى .

ضحكت بسخرية وقالت :

– يخيل اليّ انك لا تعرفني الا قليلاً ، لاسيما وانك تؤكد ان الناس جميعاً متشابهون ولا داعي لدراستهم . سوف اقص عليك قصة حياتي كاملة في وقت ما . . . ولكن حدثني عن حياتك اولاً .

فقال بازاروف :

– انني لا اعرفك الا قليلاً . ربما انت على حق . ولعل كل انسان لغز في الواقع . فلو تناولناك انت مثلاً ، انك تشعرين بالغربة في المجتمع ، وهو يثقل عليك ، ومع ذلك دعوت طالبين ليسكنا عندك حيناً من الوقت . ثم لماذا تقيمين في الريف ، انت التي تتحلين بالحصافة والجمال ؟

– كيف ؟ ماذا قلت ؟ انا اتحلى . . . بالجمال ؟

سألت اودينتسوفا منتعشة . فعبس بازاروف ثم قال :

— لا فرق ، اردت ان اقول اني لا افهم جيداً لماذا تقيمين في الريف ؟

— انك لا تفهم . . . ولكنك تفسر ذلك لنفسك بشكل ما ، أليس كذلك ؟

— اجل . . . يخيل اليّ انك باقية طوال الوقت في مكان واحد لانك دللت نفسك ولانك تحبين اسباب الراحة حباً جماً ، ولا تبالين بأي شيء آخر .

ضحكت اودينتسوفا من جديد :

— انت لا تريد قطعاً ان تصدق بأني يمكن ان اولع ؟ . .

فنظر اليها بازاروف عابساً :

— بحب الاستطلاع ، ربما . ولكن ليس بشيء آخر .

— حقاً ؟ ها انا افهم لماذا تآلفنا . ان الطيور على اشكالها تقع .

— تآلفنا . . . — دمدم بازاروف بصوت مكتوم .

— آه ! لقد نسيت بانك تنوي السفر .

نهض بازاروف . كان المصباح ينور بخفوت وسط الغرفة المنعزلة العاطرة التي اكتنفها الظلام بعض الشيء . وكانت طراوة الليل المستثيرة تتسرب عبر الستارة التي تتموج بين الفينة والفينة ، ويتهادى الهمس الليلي السحري . لم تحرك اودينتسوفا ساكناً ، لكن اضطراباً خفياً اخذ يدب فيها تدريجياً . . . وانتقل هذا الاضطراب بالتدريج الى بازاروف الذي ادرك اخيراً انه اختلى بامرأة شابة رائعة . . . سألت متباطئةً : — الى اين انت ؟

لم يحر جواباً وارتمى على الكرسي . فواصلت كلامها بنفس الصوت دون ان تحيد ببصرها عن النافذة :

— انت تعتبرني انسانة هادئة منعمة مدللة . بينما انا واثقة من انني في منتهى التعاسة .

— التعاسة ! ما سببها ؟ هل تستحق تلك الاقاويل الدنيئة ان تعيريها ادنى اهتمام ؟

عبست اودينتسوفا ، واحزنها ان بازاروف فهمها على هذا النحو فقالت :

— هذه الاقاويل عاجزة حتى عن اثارة الضحك ، يا يفغيني فاسيليفيتش . وانا اربأ بنفسي عن ان اجعلها تقلقني . انني

تعيسة لأنني . . . لست راغبـة في العيش . انت تنظر اليّ بارتياب ، وتفكر ان التي تتكلم معك «ارستقراطية» غارقة في الدانتيلا والثياب الفاخرة وجالسة على مقعد مخملي . لا انكر اني اهوى ما وصفته بأسباب الراحة ، ومع ذلك لا ارغب كثيرا في العيش . حاول ان توفق بين هذين الضدين كما يحلو لك . ولكن ذلك كله في نظرك ، رومانسية .

فهز بازاروف رأسه وقال :

— انك انسانة حرة ثرية معافاة ، فما الذي يعوزك ؟ وماذا تريدين بعد ؟

فكررت اودينتسوفا قوله وتنهدت :

— ماذا اريد ! انا مرهقة للغاية ، ولقد شخت ، حتى خيل اليّ انني اعيش من زمان بعيد جداً . اجل ، لقد شخت — اضافت وهي تسحب بهدوء اطراف الطرحة فتغطي بها يديها العاريتين . تقابلت عيناها مع عيني بازاروف ، فاحمر محياها بعض الشيء :

— خلفت الكثير من الذكريات : الحياة في بطرسبورغ ، والثراء ، ثم الفقر ، ثم وفاة ابي ، والزواج ، ثم الرحلة الى الخارج . . . الذكريات كثيرة ، ولكن لا قيمة لها . وامامي طريق طويل ، طويل للغاية ، بينما ليس لديّ هدف . . . ولذا فأنا لست راغبة في السير .

— هل خابت آمالك الى هذه الدرجة ؟ — سألها بازاروف ، فاجابته متمهلة :

— كلا . ولكني لست قانعة . يخيل اليّ لو اني استطعت ان اتعلق بشيء ما تعلقاً شديداً . . .

فقاطعها بازاروف :

— بودك ان تحبي ، لكنك لا تستطيعين . وهذا هو مبعث تعاستك .

انشغلت اودينتسوفا بتفقد ردني طرحتها ، ثم تساءلت :

— ألا استطيع ان احب ؟

— امر مستبعد . ولكن عبثاً وصفتُ حالتك بالتعاسة . على العكس فالذي يحدث له ذلك يستحق الشفقة على الاكثر .

— من تعني ؟

— الذي يحب .

– ومن اين لك ان تعرف ؟
– بالسماع – اجاب بازاروف حانقاً ، وفكر في نفسه : «انك تتغنجين . انك ضجرة وتتحرشين بي لعدم انشغالك بشيء ، بينما انا . . .» وكاد قلبه يتفطر حقاً . فقال وقد مال بجسمه كله الى امام وهو يتلاعب باهداب المقعد :
– ثم انك متشددة جداً ، على ما اعتقد .
– ربما . في رأيي : اما كل شيء ، واما لا شيء . حياة بحياة . فاذا استأثرت بحياتي هبني حياتك ، وعند ذاك لن يكون هناك مجال للاسف ولن يكون هناك خط رجعة . والا فلا داعي لشيء .
فقال بازاروف :
– حقاً . هذا شرط مشروع . لكن ما يدهشني هو انك حتى الآن . . . لم تعثري على ما ترغبين .
– وهل تظن ان من السهل الاستسلام كلياً لأي شيء مهما كان ؟
– ليس ذلك بالامر السهل اذا اخذ المرء يتأمل ، وينتظر ، بل ويقيم نفسه بنفسه ، اي يعتز بها . اما الاستسلام بدون تفكير فهو في منتهى البساطة .
– كيف لا يعتز المرء بنفسه ؟ فاذا لم تكن لي اية قيمه فمن ، يا ترى ، بحاجة الى اخلاصي ؟
– ليس من شأني ، بل من شأن الانسان الآخر ، ان يقدر قيمتي . الامر الرئيسي هو اجادة الاستسلام .
مالت اودينتسوفا الى الامام قليلاً فابتعد ظهرها عن مؤخرة المقعد ، وقالت :
– انك تتكلم وكأنما قد جربت ذلك كله .
– اقول هذا الكلام للمناسبة فقط . فأنت تعرفين ، يا آنا سيرغييفنا ، ان ذلك كله ليس من اختصاصي .
– ولكن بوسعك انت ان تستسلم ، أليس كذلك ؟
– لا ادري . لا اريد التباهي .
لم تقل اودينتسوفا شيئاً ، فلزم بازاروف الصمت .
تهادت اليهما اصوات البيانو من غرفة الاستقبال . فقالت اودينتسوفا :
– ما الذي جعل كاتيا تعزف في هذا الوقت المتأخر ؟ !

فنهض بازاروف وقال :
– اجل ، الوقت متأخر بالفعل ، وقد حان موعد نومك .
– تمهل ، ما الداعي للعجلة ؟ . . اريد ان اقول لك كلمة واحدة .
– ما هي ؟
– تمهل – قالت اودينتسوفا همساً .
تجمدت نظرتها على بازاروف وكأنما هي تتفحصه باهتمام .
جاب الغرفة بعض الشيء ثم اقترب منها على حين غرة وقال باستعجال «وداعاً» وشد على يدها بقوة كادت تجعلها تصرخ ، ثم خرج . رفعت اصابعها المتلاصقة الى شفتيها ونفخت عليها ، ثم نهضت من المقعد بقفزة على الفور وتوجهت الى الباب بخطوات سريعة وكأنما تريد اعادة بازاروف . . . دخلت الى الغرفة في تلك اللحظة وصيفة تحمل دورقاً زجاجياً على صينية فضية . توقفت اودينتسوفا واشارت على الوصيفة بالانصراف ثم جلست مجدداً وغرقت في التفكير من جديد . انفكت ضفيرتها وتهدلت كأفعى سوداء على كتفها . ظل المصباح ينير غرفتها لامد طويل ، وظلت هي لامد طويل بلا حراك ، سوى انها كانت تمسد باصابعها بين الفينة والفينة ذراعيها اللتين مسهما برد الليل .
اما بازاروف فقد عاد بعد زهاء ساعتين الى غرفة نومه منكمشاً متجهماً وقد تبللت جزمته بالندى . وجد اركادي جالساً قرب الطاولة وبيده كتاب وسترته مشدودة الازرار حتى العنق . فسأله بازاروف وكأنما في صوته نأمة زعل :
– ألم تنم بعد ؟
فقال اركادي دون ان يجيب على سؤاله :
– جلستَ طويلاً اليوم مع آنا سيرغييفنا .
– اجل ، جلست معها عندما كنتما ، انت وكاتيا ، تعزفان على البيانو .
– انا لم اعزف . . . – اراد اركادي ان يواصل كلامه ، ولكنه لزم الصمت . لقد احس بان الدموع ستنهمر من عينيه ، ولكنه لا يريد البكاء امام صديقه الساخر .

١٨

عندما حضرت اودينتسوفا لتناول الشاي قبيل الافطار في صباح اليوم التالي ظل بازاروف جالساً لامد طويل وقد انحنى على قدحه . ثم نظر اليها فجأة . . . فالتفتت اليه وكأنما تلقت دفعة منه . خيل اليه ان وجهها قد شحب شيئاً خلال الليل . وسرعان ما انزوت في غرفتها حتى حان موعد الافطار . كان الطقس ممطراً منذ الصباح ، ولم يكن بالامكان التنزه . فالتأم الجمع كله في غرفة الاستقبال . احضر اركادي آخر عدد من احدى المجلات واخذ يقرأه بصوت مسموع . فبدت الدهشة على وجه الاميرة ، كما هي العادة ، في بادئ الامر ، وكأنما اقترف هو جريرة معيبة ، ثم ركزت انظارها الحاقدة عليه ، ولكنه لم يعبأ بها .

فقالت آنا سيرغييفنا لبازاروف :

– فلنذهب الى مكتبي . . . يا يفغيني فاسيليفيتش . . . اريد ان اسألك شيئاً . . . لقد ذكرت امس اسم كتاب . . .

نهضت وتوجهت الى الباب . فتلفتت الاميرة حواليها ولسان حالها يقول : «انظروا ، انظروا ، ما اشد دهشتي !» ثم ركزت انظارها من جديد على اركادي ، ولكنه رفع صوته وتبادل النظرات مع كاتيا الجالسة قربه وواصل القراءة .

ادركت اودينتسوفا مكتبها بخطوات سريعة . وتبعها بازاروف بخفة دون ان يرفع بصره ، ولكنه كان يتلقف بمسمعه الحفيف الرقيق المنبعث من الفستان الحريري السائر امامه . جلست اودينتسوفا في نفس المقعد الذي جلست عليه بالامس ، وشغل بازاروف المكان الذي شغله بالامس .

فقالت هي بعد فترة صمت قصيرة :

– ما اسم ذلك الكتاب ؟

فاجاب بازاروف :

– «مبادئ الكيمياء العامة» من تأليف بيلوز وفريمي) * . ويمكن ان اوصيك كذلك بدراسة : «المنهج الاولي في الفيزياء

---

* في الاصل بالفرنسية .

التجريبية» من تأليف غانو) * . فالرسوم في هذا الكتاب اكثر وضوحاً ، وعلى العموم فان هذا المنهج . . .

مدت اودينتسوفا يدها وقالت :

– معذرة ، يا يفغيني فاسيليفيتش ، فقد دعوتك الى هنا ليس بقصد مناقشة المناهج الدراسية . بودي ان نستأنف حديث البارحة . فقد انصرفت انت على نحو مفاجئ . . . هل يزعجك ذلك ؟

– انا في خدمتك ، يا آنا سيرغييفنا . ولكن عم تحدثنا البارحة يا ترى ؟

صوبت اودينتسوفا نظرة منحرفة الى بازاروف :

– يخيل اليّ اننا تحدثنا عن السعادة . حدثتك انا عن نفسي . وبالمناسبة فقد ذكرت كلمة «السعادة» . فاخبرني ما الذي يجعلنا ، حتى عندما نتمتع بالموسيقى ، مثلاً ، او بأمسية جيدة او بحديث مع اناس طيبين ، نتصور ذلك كله مجرد اشارة الى سعادة لا حدود لها ، سعادة موجودة في مكان ما ، غير السعادة الفعلية ، اي السعادة التي نتمتع بها نحن ؟ ما السبب في ذلك ؟ ام انك ربما لا تشعر بشيء من هذا القبيل ؟

فاعترض بازاروف :

– انت تعرفين المثل القائل «الحال افضل في ديار الآخرين» . ثم انك نفسك قلت البارحة بانك غير قانعة . اما انا فلا تتبادر الى ذهني مثل هذه الافكار .

– ربما تبدو لك مضحكة ؟

– كلا ، ولكني لا افكر بها .

– حقاً ؟ أتعلم باني تواقة جداً الى معرفة ما تفكر به **انت** ؟

– كيف ؟ انني لا افهمك .

– تصور ، لقد اردت ان نتصارح من زمان . ولا داعي لان اقول لك انك لست من الناس العاديين . فانت تعرف ذلك بنفسك . انك لا تزال في طور الشباب والحياة كلها امامك . فالامَ تعد نفسك؟ وما هو المستقبل الذي ينتظرك ؟ اقصد : اي هدف تنوي تحقيقه ؟ والى اين تسير ؟ وما الذي تنطوي عليه جوانحك ؟ وباختصار : فمن انت ؟ وما هي هويتك ؟

---

* في الاصل بالفرنسية Ganot, «Traité élémentaire de physique expérimentale» ادولف غانو عالم فيزياوي ورياضي (١٨٠٤–١٨٨٧) .

– انك تثيرين دهشتي ، يا آنا سيرغييفنا . انت تعلمين بأني ادرس العلوم الطبيعية . اما من انا . . .

– اجل ، من انت ؟

– لقد اخبرتك بأني سأكون طبيباً في احد الاقضية .

ندت عن آنا سيرغييفنا حركة غير متأنية :

– لماذا تقول ذلك ؟ انك لا تؤمن بما تقول . بوسع اركادي ان يجيبني على هذا النحو ، وليس انت .

– فهل اركادي أسوأ . . .

– كفاك . هل يجوز ان تقتنع بمثل هذا العمل المتواضع ؟ أولست انت الذي اكدت دوماً ان الطب غير موجود بالنسبة لك ؟ كيف لك ، بأنفتك المعروفة ، ان تصبح طبيباً في احد الاقضية ؟ ! انك تجيبني على هذا النحو لكي تتخلص مني لانك لا تثق بي قيد شعرة . ولكن هل تعلم ، يا يفغيني فاسيليفيتش ، بانني يمكن ان افهمك : كنت بنفسي فقيرة انوفا مثلك ، ولربما اجتزت نفس المحن التي تجتازها .

– كل ذلك شيء طيب ، يا آنا سيرغييفنا ، ولكن معذرة . . . فأنا على العموم لم اعتد الحديث عن نفسي . ثم ان الهوة بينك وبيني سحيقة . . .

– اية هوة ؟ ستقول لي من جديد اني ارستقراطية ، أليس كذلك ؟ كفاك ، يا يفغيني فاسيليفيتش ! اظن اني اثبتّ لك . . .

– ثم – قاطعها بازاروف – ثم ما الداعي للكلام والتفكير في مستقبل لا يعتمد علينا بقسمه الاعظم ؟ فاذا حدث وعملت شيئاً مفيداً فذلك امر رائع ، واذا لم يحدث فسأكون ، على الاقل ، قانعاً باني لم اثرثر عبثاً قبل الاوان .

– انت تنعت الحديث الودي بالثرثرة . . . ام انك ربما لا تعتبرني ، كامرأة ، انساناً يستحق ثقتك ؟ فأنت تحتقرنا جميعاً .

– انني ، يا آنا سيرغييفنا ، لا احتقرك بالذات ، وانت تعرفين ذلك .

– كلا ، لا اعرف شيئاً . . . ولكن فلنفترض اني افهم عدم رغبتك في الكلام عن عملك المرتقب ، بيد ان ما يعتمل فيك الآن . . .

– يعتمل ! فهل انا دولة او مجتمع ؟ ! على كل حال ليس ذلك امراً هاماً . ثم هل يستطيع المرء ان يتكلم بصوت جهوري دوماً عن كل ما «يعتمل» فيه ؟

– انا لا افهم المانع في الافصاح عن كل ما يشعر به المرء .

– وهل تستطيعين ذلك **انت** ؟ – سألها بازاروف ، فأجابت بعد تردد قصير :

– استطيع .

طأطأ بازاروف رأسه ، وقال :

– انت اسعد مني .

فألقت عليه آنا سيرغييفنا نظرة متسائلة ، وواصلت كلامها :

– فليكن . ومع ذلك هناك شيء يقول لي اننا لم نتآلف عبثاً ، واننا سنكون صديقين حميمين . انا واثقة من ان توترك هذا ، ان صح القول ، او تحفظك سيتلاشى في آخر المطاف .

– هل لاحظت لديّ تحفظاً . . . او توتراً على حد تعبيرك ؟

– اجل .

نهض بازاروف واقترب من النافذة .

– وتريدين ان تعرفي سبب هذا التحفظ ، وتعرفي ما يعتمل في دخيلتي ؟

– اجل – كررت اودينتسوفا بخوف غامض .

– ألن تزعلي مني ؟

كلا .

– كلا ؟ – كان بازاروف واقفاً وظهره اليها – فاعلمي اذن اني احبك بغباء وجنون . . . هذا ما فعلته بي .

مدت اودينتسوفا كلتا يديها الى الامام ، بينما التصقت جبهة بازاروف بزجاج النافذة . كان يتنفس بعسر ، وكان بدنه يرتعش كلياً على ما يبدو . لكن ما انتابه لم يكن هو ارتعاشة وجل الشباب ولا الذعر اللذيذ من الاعتراف الاول . لقد نبض في دخيلته هوى شديد مرهق ، هوى شبيه بالغيظ ، ولربما هو الغيظ ذاته . . .

ارتعبت اودينتسوفا من ذلك وشعرت بالعطف على بازاروف فقالت بصوت رنت فيه نغمة عفوية رقيقة :

– يفغيني فاسيليفيتش .

استدار بسرعة والقى عليها نظرة نهمة ، ثم امسك بكلتا يديها واحتضنها بغتة .

لم تتخلص من احضانه فوراً . لكنها بعد لحظه صارت تقف بعيداً في الركن وتنظر الى بازاروف من هناك . وهرع هـــو اليها . . .

فقالت برعب واستعجال :

– لم تفهمني .

وخيل اليهـــا انه لو خطا خطوة اخرى لصرخت . . . عض بازاروف شفته وانصرف .

بعد نصف ساعة سلمت الخادمة تذكرة من بازاروف الى آنا سيرغييفنا . كان فيها سطر واحد لا غير : «هل يتعين عليّ السفر اليوم ، ام يمكنني البقاء الى غد ؟» فأجابته آنا سيرغييفنا : «ما الداعي للسفر ؟ لم اكن افهمك وانت لم تفهمني» وفكرت : «انني لم اكن افهم نفسي ايضاً» .

لم تغادر غرفتها حتى الغداء . كانت تجوبها جيئة وذهاباً ، وقد اشبكت يديها خلف ظهرها . لم تكن تتوقف الا نادراً امام النافذة تارةً وامام المرآة تارةً اخرى ، لتمسح بالمنديل على نحو بطيء بقعة ساخنة خيل اليها انها ظهرت على جيدها . كانت تسائـــل نفسها عما حدا بها الى ان «تسعى» ، على حد تعبير بازاروف ، الى جعله يصارحها ، وعما اذا كانت تتوقع شيئاً . . . فقالت بصوت مسموع : «انا المذنبة . ولكنني لم اكن اتوقع ذلك» . غرقت في تأملاتها واحتقنت بصبغة حمراء حين تذكرت وجه بازاروف الذي بدا متوحشاً تقريباً عندما هرع اليها . . .

«ام ان . . . – نطقت بذلـــك فجأة ثم توقفت ، فنفضت شعرها . . . وشاهدت نفسها في المرآة . بدا رأسها المائل الى الوراء ، بابتسامة خفية في عينيها وشفتيها المنفرجتين بالكاد ، وكأنما يشير عليها في تلك اللحظـــة بشيء خجلت منه هي نفسها . . .

فقررت في آخر الامر : «كلا . الله يعلم إلامَ سيقودنا ذلك . لا تجوز المخاطرة . فالهدوء ، مع ذلك ، هو افضل ما في الكون» .

لم يتزعزع هدوؤها . ولكن الغم اعتراها حتى انها بكت مرة دون ان تعلم السبب . بيد انها لم تبك للشعور بالاهانة ، فهي لم

تشعر بانها قد اهينت ، وانما تتصور نفسها ، على الاكثـــر ، مذنبة . فبتأثير مختلف المشاعر الغامضة والاسف على الحياة الآفلة والرغبة في التجديد حملت نفسهـــا على الوصول الى خط معين وارغمتها على التطلع الى ما وراءه ، فرأت وراءه ليس هوة سحيقة ، بل خواء . . . او ما هو ابشع من الخواء .

١٩

مهما بلغت قدرة اودينتسوفا على ضبط نفسها وتجاوز مختلف الاباطيل ، فقد شعرت بعدم الارتياح عندما حضرت للغداء في غرفة الطعام . وبالمناسبة فقد مضى الغداء بصورة مرضية نوعاً ، حيث وصل بورفيري بلاتونيتش واورد مختلف الاخبار المضحكة ، اذ كان قد عاد من المدينة لتوه . وقال ، فيما قال ، ان المتصرف امر معاونيه الخاصين ان يرتدوا المهاميز تحوطاً لما اذا كان سيرسلهم راكبين الى مكان ما على جناح السرعة . وكان اركادي يتحدث مع كاتيا بصوت خافت ويداري الاميرة بتصنع . بينما لزم بازاروف الصمت متجهماً متعنتاً . نظرت اودينتسوفا مرتين على نحو مباشر وبدون مواربة الى وجهه السوداوي الصارم بعينيه الخفيضتين واثر التصميم الانوف باد في كل ملامحـــه ، وفكرت في نفسها : «كلا . . . ثم كلا . . .» بعد الغداء توجهت مع الجميع الى البستان . وعندما لاحظت ان بازاروف يريد التحدث معها خطت بضع خطوات الى الجانب وتوقفت . فاقترب منها وقال بصوت مكبوت دون ان يرفع اليها انظاره هنا ايضاً :

– يتعين عليّ ان اعتذر منك ، يا آنا سيرغييفنا ، فأنت غاضبة عليّ ولا بدّ .

فأجابته اودينتسوفا :

– لست غاضبة عليك ، يا يفغيني فاسيليفيتش ، ولكنني متكدرة .

– وهذا اسوأ . على كل حال فقد عوقبت انا بما فيه الكفاية . اذ ليس هناك اكثر حماقـــة من موقفي ، وانت ، على ما اظن ،

توافقينني في ذلك . لقد كتبت لي : ما الداعي للسفر ؟ بينما لا استطيع البقاء ولا اريده . ولن اكون هنا غداً .

— يا يفغيني فاسيليفيتش ، لماذا . . .

— لماذا اسافر ؟

— كلا ، ليس هذا ما اردت ان اقوله .

— الماضي لا يعود ، يا آنا سيرغييفنا . . . وذلك شيء يجب ان يحدث عاجلاً ام آجلاً . وبالتالي على ان اسافر . انني اعرف شرطاً واحداً يمكنني ان ابقى اذا تحقق ، ولكن ذلك الشرط لن يتحقق ابداً . فأنت ، ومعذرة على تجاسري ، لا تحبينني ولن تحبيني ابداً ، أليس كذلك ؟

لمعت عينا بازاروف للحظة من تحت حاجبيه القاتمين .

لم تجبه آنا سيرغييفنا ، وخطرت على بالها فكرة : «انا اخشى هذا الانسان» . فقال بازاروف وكأنما حزر فكرتها :

— وداعاً .

وتوجه نحو الدار .

تبعته آنا سيرغييفنا بهدوء ، ونادت كاتيا فاصطحبتها ممسكة بساعدها . لم تفارقها حتى المساء . كما لم تلعب الورق ، بل اخذت تضحك ساخرة ، الامر الذي لم يناسب محياها الشاحب المرتبك . تحير اركادي وصار يراقبها كما يفعل الشبان عادة ، فيسائل نفسه على الدوام : ما الذي يعنيه ذلك ؟ انزوى بازاروف في غرفته ، ولكنه عاد لاحتساء الشاي . ارادت آنا سيرغييفنا ان تقول له كلمة طيبة ، ولكنها لم تكن تعرف كيف تبدأ الكلام معه . . .

بيد ان حادثاً غير متوقع اخرجها من المأزق . فقد اعلن كبير الوصفاء عن قدوم سيتنيكوف .

يصعب على الكلمات ان تعبر عن السرعة الخرقاء التي اقتحم بها الغرفة داعية التقدم الشاب هذا . فبعد ان صمم ، باللجاجة الملازمة له ، على التوجه الى القرية ، الى امرأة لا يعرفها الا بالكاد ولم تكن قد دعته لزيارتها ابداً ، ولكنها تستضيف ، حسب المعلومات التي وردته ، شخصين ذكيين عزيزين عليه ، فانه مع ذلك شعر بالوجل ينتابه حتى العظام ، وبدلاً من ان ينطق عبارات الاعتذار والتحية التي حفظها عن ظهر قلب مسبقاً دمدم سخافة وهذراً حيث زعم ان يفدوكسيا كوكشينا بعثته ليستفسر عن صحة آنا

سيرغييفنا وان اركادي نيكولايفيتش كان يثني دوماً اعظم الثناء . . .

تلعثم عندما لفظ هذه الكلمة ونسي نفسه حتى انه جلس على قبعته . بيد ان احداً لم يطرده ، بل قدمته آنا سيرغييفنا الى خالتها واختها ، ولذا سرعان ما التقط انفاسه واسترسل في الهذر . غالباً ما يصبح ظهور الابتذال امراً نافعاً في الحياة : فهو يخفف من حدة الاوتار المشدودة جداً كما يخفف من المشاعر المتعالية او المنفلتة ، اذ تتجلى صلة القربى التي تربط بينها وبينه . بوصول سيتنيكوف اصبح كل شيء اكثر بلادة واكثر بساطة على نحو ما ، حتى ان الجميع تناولوا طعام العشاء بشهية اكبر وتفرقوا للنوم قبل نصف ساعة من المعتاد .

قال اركادي وهو مضطجع على الفراش لبازاروف الذي خلع ملابسه هو الآخر :

— بوسعي ان اكرر لك الآن ما قلته لي انت ذات مرة : «لماذا انت حزين الى هذا الحد وكأنما اديت واجباً مقدساً ؟»

منذ امد غير طويل ساد العلاقات بين الشابين نوع من المداعبة المغالية في عدم التكلف ، الامر الذي يدل دوماً على التذمر الخفي او على الشكوك التي لم تجد لها متنفساً .

فقال بازاروف :

— ساسافر غداً الى والدي .

فنهض اركادي قليلاً واستند الى مرفقه . لقد دهش وفرح لسبب ما . وقال :

— آها ! هذا هو مبعث حزنك ؟

فقال بازاروف متثائباً :

— من يعرف المزيد تداهمه الشيخوخة قبل الاوان .

فواصل اركادي كلامه :

— وآنا سيرغييفنا ، ما هو رأيها ؟

— وما شأن آنا سيرغييفنا ؟

— اقصد هل ستسمح لك ؟

— لست اجيراً عندها .

تأمل اركادي بعض الشيء ، بينما رقد بازاروف ووجهه الى الجدار .

مرت عدة دقائق في صمت . فهتف اركادي على حين غرة :
– يفغيني !
– ماذا ؟
– سأسافر غداً معك .
لم يجب بازاروف بشيء ، فواصل اركادي كلامه :
– غير انني سأذهب الى اهلي . سنتوجه معاً الى قرية خوخلوفو ، وهناك نأخذ خيولاً من فيدوت . يسرني جداً ان اتعرف على والديك ، ولكني اخشى ان اضيق عليهما وعليك . ثم انك ستعود الينا فيما بعد ، أليس كذلك ؟
فقال بازاروف دون ان يستدير نحوه :
– تركت حاجياتي عندكم .
فكر اركادي في نفسه : «لِمَ لا يسألني عن السبب في سفري على هذا النحو المفاجئ مثل سفره ؟» . وواصل تأملاته : «حقاً لماذا اسافر انا ولماذا يسافر هو ؟» . ولم يستطع ان يجد جواباً مرضياً على اسئلته ، بينما طفح قلبه بشيء ما لاذع . واحس بانه سيكون من العسير عليه مفارقة هذه الحياة التي اعتاد عليها . غير ان بقاءه لوحده امر فيه شيء من الغرابة . فصار يحاجج نفسه : «لقد حدث بينهما شيء ما . فما الداعي لان اثقل عليها بعد سفره ؟ سوف تمل مني نهائياً ، وسأفقد آخر ما لدي» . وأخذ يتصور آنا سيرغييفنا ، ويتصور وجهاً آخر يلوح قليلاً من وراء محيا الارملة الشابة المليح .
«أسفي لكاتيا ايضاً !» – همس اركادي للوسادة التي سقطت عليها دمعة . . . ثم نفض شعره بغتة وقال بصوت عال :
– اي شيطان جاء بسيتنيكوف البليد هذا ؟
تحرك بازاروف في سريره ، ثم قال :
– لا تزال انت ، يا اخي ، غبياً على ما اعتقد . ان امثال سيتنيكوف يلزموننا . فأنا بحاجة الى امثال هؤلاء البلداء ، وعليك ان تفهم ذلك . هل يتعين على الآلهة ان ينشغلوا بالتفاهات ؟ . .
«عجباً !» – فكر اركادي وانفرجت امامه فجأة هوة كبرياء بازاروف سحيقة لا قرار لها . «ذلك يعني اننا من عداد الآلهة ، او على الاصح انت إله ، وانا من البلداء ، أليس كذلك ؟» .
– اجل ، لا تزال انت غبياً – كرر بازاروف متجهماً .

لم تبد اودينتسوفا دهشة كبيرة عندما اعلن اركادي في اليوم التالي عن عزمه على السفر مع بازاروف . لقد بدت متعبة شاردة البال . وجهت اليه كاتيا نظرة صامتة جادة ، بينما رسمت الاميرة شارة الصليب تحت وشاحها ، وكان لا بد له ان يلاحظ ذلك . بيد ان سيتنيكوف بالذات اصبح في اشد الانزعاج . كان قد حضر تواً لتناول الفطور في بدلة جديدة انيقة للغاية ، وليست هذه المرة مما يرتديه انصار النزعة السلافية . وفي يوم امس دهش الشخص الذي عين لخدمته من كثرة الملابس التي جلبها معه . وها ان رفيقيه يغادرانه على حين غرة ! تخطر بعض الشيء بخطوات متقاربة ، ثم اندفع كأرنب مطارد في طرف الغابة ، واعلن فجأة بشيء من الذعر وبصوت يكاد يقرب من الصراخ انه عازم على السفر ايضاً . ولم تحاول اودينتسوفا اقناعه بالبقاء .
قال الشاب التعيس مخاطباً اركادي :
– عندي عربة مكشوفة مريحة جداً ، وبوسعي ان اصطحبك ، اما يفغيني فاسيليفيتش فيمكن ان يستقل عربتك ، وسيكون ذلك افضل .
– كيف ؟ طريقك غير طريقي . والمسافة الينا بعيدة .
– لا بأس ، لا بأس ، لدي متسع من الوقت ، ثم على ان ادبر بعض الشؤون في تلك الناحية .
– شؤون تجارة المسكرات ؟ – سأله اركادي بمنتهى الازدراء .
بيد ان سيتنيكوف كان في حالة من اليأس والقنوط حتى انه لم يقهقه هذه المرة خلافاً لعادته . فكرر القول :
– اؤكد لك ان العربة مريحة للغاية ، وفيها مكان لنا جميعاً .
فقالت آنا سيرغييفنا :
– لا تكدر المسيو سيتنيكوف بالممانعة .
نظر اليها اركادي وطأطأ رأسه بمهابة .
سافر الضيوف بعد الفطور . وودّع بازاروف اودينتسوفا فمدت له يدها قائلة :
– سنلتقي مرة اخرى ، أليس كذلك ؟
فأجاب بازاروف :
– كما تأمرين .

– اذن سنلتقي .

كان اركادي اول من حرج من الدار ، فصعد الى عربة سيتنيكوف . وساعده كبير الوصفاء في ذلك بكل اجلال ، في حين كان بود اركادي ان يصفعه او ينتحب . واستقل بازاروف العربة الاخرى . عندما وصلوا الى قرية خوخلوفو انتظر اركادي حتى شد صاحب الخان فيدوت الخيول ، فاقترب من عربة بازاروف وقال له بابتسامته المعهودة :

– يفغيني . خذني معك ، اريد ان اذهب اليكم .

فتمتم بازاروف :

– اصعد .

كان سيتنيكوف وهو يتمشى حول عجلات مركبته ويصفر بحماس ، قد فغر فمه عندما سمع تلك الكلمات ، بينما سحب اركادي ببرود حاجياته من عربة ذاك وصعد الى عربة بازاروف فجلس قربه وحنى رأسه انحناءة تبجيل لسيتنيكوف وصاح : «هيا بنا !» . تحركت العربة وسرعان ما اختفت عن الانظار . . . تطلع سيتنيكوف المرتبك اشد ارتباك الى حوذيه ، بيد ان ذاك كان يتلاعب بسوطه فوق ذيل الفرس . وعند ذاك قفز سيتنيكوف الى عربته ، زعق صارخاً على فلاحَيْن مرا قربه : «لبسا قبعتيكما ايها الاحمقان !» ، وتوجه الى المدينة حيث وصلها في ساعة متأخرة . وفي اليوم التالي انهال ، لدى كوكشينا ، وابل من اللوم المقذع على ذينك «المتكبرين الوقحين الكريهين» .

عندما صعد اركادي الى عربة بازاروف شد على يده بقوة ولم يقل شيئاً لامد طويل . وبدا وكأن بازاروف قد فهم وقدر هذه الالتفاتة من رفيقه . لم يكن قد ذاق طعم النوم ولا التدخين في الليلة المنصرمة ، ولم يكن قد تناول طعاماً يذكر منذ بضعة ايام . ونتأت صفحة وجهه من تحت طاقيته مكفهرة متجهمة . ثم قال اخيراً :

– ماذا ، يا اخي ، هلا اعطيتني سيجاراً . . . ثم انظر : أليس لساني اصفر ؟

– اصفر .

– هكذا . . . حتى السيجار غير لذيذ . تفككت الماكنة .

– تغيرت حقاً في الآونة الاخيرة .

– لا بأس ، سنتعافى . هناك شيء واحد محزن . فان امي رقيقة القلب الى درجة ، حتى انها تتألم اشد الالم اذا لم ينتفخ بطني ولم آكل عشر مرات في اليوم . اما ابي فلا بأس . لقد رأى ما رأى ، وغربل الامور ونخلها . كلا ، لا يمكن التدخين – قال ذلك وقذف السيجار وسط غبار الطريق .

فسأله اركادي :

– المسافة الى ضيعتك خمسة وعشرون كيلومتراً ؟

– اجل . ولكن اسأل هذا الحكيم عنها .

واشار الى الفلاح الجالس على مقعد الحوذي ، وهو من العاملين لدى فيدوت .

بيد ان الحكيم اجاب بلهجة محلية : «من يدري ؟ لم يقس احد المسافة هنا» . وواصل شتائمه بصوت خافت على فرس المقدمة التي كانت تهز رأسها بتشنج .

وطفق بازاروف يتكلم :

– اجل ، اجل ، يا صديقي الفتي ، انه لدرس فيه عبرة لك . الشيطان وحده يعرف هذه الحماقة ! كل شخص معلق بشعرة ، ويمكن ان تنفرج تحته هوة سحيقة في كل لحظة ، بينما يبتدع هو لنفسه مختلف المشاكل ويفسد حياته .

فسأله اركادي :

– الامَ تلمح ؟

– ليس في ذلك تلميح . فأنا اقول صراحة انني واياك تصرفنا تصرفاً احمق . الامر واضح تماماً . وقد لاحظت في المستشفى ان الذي يغضب على ألمه لا بد وان يقهره .

فقال اركادي :

– لا افهمك تماماً . يخيل اليّ انه لم يكن هناك ما يمكن ان تشتكي منه .

– ما دمت لا تفهمني تماماً فأنا احيطك علماً بما يلي : برأيي ان قلع البلاط من الشارع اهون من السماح لامرأة بان تمتلكك قيد انملة . فذلك كله مجرد . . . – كاد بازاروف يتلفظ كلمته المحببة «رومانسية» ، ولكنه امتنع وقال : – سخافة صرف . وسوف لن تصدقني اذا قلت لك الآن : لقد كنا في معشر نسائي ، وكان ذلك امراً مسراً ، لكن ترك مثل هذا المعشر كالاستحمام بماء

بارد في يوم قائظ . فليس لدى الرجل وقت لممارسة هذه التفاهات . على الرجل ان يكون شرساً ، كما يقول المثل الاسباني الرائع . فأنت مثلاً – اضاف بازاروف مخاطباً الفلاح الجالس في مقعد الحوذي – انت ، ايها الحصيف ، هل لديك زوجة ؟

التفت الفلاح الى الصديقين بوجهه المسطح الاعشى :

– زوجة ؟ طبعاً ، فكيف يمكن بدونها ؟

– وهل تضربها ؟

– من ، زوجتي ؟ يصادف . فنحن لا نضرب بدون سبب .

– حسناً . وهي هل تضربك ؟

هز الفلاح الاعنة :

– ما هذا الكلام ، ايها السيد . ليس كل شيء يصلح للمزاح . . . – زعل الفلاح على ما يبدو .

– هل انت سامع يا اركادي نيكولايفيتش ؟ اما نحن فقد ضربونا . . . ذلك ما يعنيه ان يكون المرء مثقفاً .

ضحك اركادى بتكلف ، بينما اشاح بازاروف بوجهه ، ولم ينبس ببنت شفة طوال ما تبقى من الطريق .

بدت الخمسة والعشرون كيلومتراً لاركادي بقدر خمسين . واخيراً لاحت على صفحة هضبة منحدرة القرية الصغيرة التي يقطنها والدا بازاروف . والى جانبها بدت وسط اجمة من صغار البتولا دار غير كبيرة من دور النبلاء وسقفها مغطى بالقش . وعند اول بيت قروي كان فلاحان مهندمان يتشاجران . فقد قال احدهما للآخر «انت خنزير كبير ولكنك اسوأ من الخِنوّص الصغير» ، فقال الثاني «وزوجتك سحارة» .

فقال بازاروف لاركادي :

– يمكنك الحكم من صيغة المخاطبة غير المتكلفة ومن لهجة الكلام بان فلاحي ابي لا يتعرضون لمضايقة شديدة . وبالمناسبة فها هو نفسه يخرج الى باحة الدار . لا بد وانه سمع جرس العربة . انه هو ، هو طبعاً ، عرفته من قوامه . ولكن ، يا للعجب كيف شاب ، المسكين ، الى هذا الحد !

٢٠

اطل بازروف من العربة ، واشرأب اركادي بعنقه من وراء ظهر رفيقه فرأى في مدخل الدار رجلاً نحيفاً فارع القامة بشعر اشعث وانف دقيق كمنقار الصقر ، وهو يرتدي سترة عسكرية عتيقة مفتحة الازرار . كان واقفاً منفرج الساقين ، يدخن غليوناً طويلاً ، ويضيق عينيه بسبب اشعة الشمس .

توقفت الخيول .

فقال بازاروف الاب ، وهو يواصل تدخينه مع ان الغليون يتراقص بين اصابعه : – ها قد وصلت اخيراً . هيا انزل ، انزل ، فلنتعانق .

عانق ابنه . . . فارتفع صوت نسائي مرتعش : «ينيوشا»* ، ينيوشا» . فتح الباب على مصراعيه وظهرت على عتبته عجوز متكورة قصيرة القامة في قلنسوة بيضاء وبلوزة زاهية قصيرة . تأوهت وتمايلت وكادت تسقط لولا ان اسندها بازاروف . طوقت يداها الممتلئتان عنقه على الفور والتصق رأسها بصدره ، وساد الصمت كل شيء ، ما عدا نشيجها المتقطع .

كان العجوز بازاروف يتنفس بصعوبة ، وصار يضيق عينيه اكثر من السابق . ثم قال بعد ان التقت نظرته بنظرة اركادي ، في حين اشاح الفلاح الجالس على مقعد الحوذي بوجهه :

– كفاك ، كفاك يا آرينا ! لا داعي لذلك ! ارجوك .

فتمتمت العجوز :

– آه يا فاسيلي ايفانوفيتش ! منذ متى لم ار حبيب قلبي وقرة عيني ينيوشا . . . – وابعدت وجهها المتيم المدعوك المبلل بالدموع عن بازاروف دون ان ترفع يديها عن عنقه ، ونظرت اليه بعينين مغتبطتين ، مضحكتين بعض الشيء ، ثم التصقت به من جديد . فقال فاسيلي ايفانوفيتش :

– كل ذلك في طبيعة الاشياء . ولكن من الافضل ان ندخل البيت . فقد وصل ضيف مع يفغيني . – ثم اضاف مخاطباً اركادي ، وحف برجله قليلاً – عفوا ، انت تعرف هذه الامور . تلك هي نقطة ضعف المرأة . يا لقلب الام . . .

* صيغة التحبيب من اسم يفغيني . – **المترجم** .

قال ذلك وارتعشت شفتاه وحاجباه ، وكان ذقنه يهتز اهتزازاً . . . بيد انه كان ، على ما يبدو ، راغباً في ضبط مشاعره والتظاهر بشيء من اللامبالاة . فانحنى له اركادي . وقال بازاروف :

– فعلاً ، فلندخل يا ماما .

واقتاد الى الدار العجوز التي خارت قواها اجلسها في مقعد مريح ، وعانق اباه من جديد على عجل وقدم له اركادي .

فقال فاسيلي ايفانوفيتش :

– يسعدني من صميم القلب ان نتعارف ، ولكن لا تلمني ، فكل شيء هنا بسيط على الطراز العسكري . يا آرينا فلاسيفنا ، اعملي معروفاً ، وروّحي عن نفسك . فما هذا الخور ؟ لا بد وان السيد الضيف يلومك على ذلك .

فقالت العجوز والدموع تنهمر من عينيها :

– يا عزيزي . . . لم اتشرف بعد بمعرفة اسمك واسم ابيك . . .

فقال فاسيلي ايفانوفيتش بصوت خافت له وزنه :

– اركادي نيكولايفيتش .

فقالت العجوز بعد ان تمخطت ومالت برأسها ذات اليمين وذات الشمال ومسحت عيناً بعد اخرى بكل عناية :

– اعذرني انا الغبية . اعذرني . كنت افكر باني سأموت دون ان يطول بي العمر لأرى قر . . . قرة عيني .

فقال فاسيلي ايفانوفيتش :

– ها قد رأيته ، يا سيدتي .

ثم التفت الى بنت حافية القدمين في حوالي الثالثة عشرة من العمر ترتدي فستاناً قطنياً احمر صارخاً ، وهي تتطلع بخوف من شق الباب ، وناداها قائلاً :

– تانيوشا . احضري للسيدة قدحاً من الماء بالصينية ، هل انت سامعة ؟ – ثم اضاف بشيء من المداعبة العتيقة الطراز : اما انتما ايها السيدان فاسمحا لي ان ادعوكما الى مكتب المحارب القديم المتقاعد .

وأنّت آرينا فلاسيفنا متنهدةً :

– تعال لاعانقك مرة اخرى يا ينيوشا . – انحنى اليها بازاروف –كم اصبحت جميلاً !

فقال فاسيلي ايفانوفيتش :

– لست واثقاً من جماله ، ولكنه غدا رجلاً من خيرة الرجال ، كما يقال . اما الآن فآمل ، يا آرينا فلاسيفنا ، انك بعد ان اشبعت قلب الامومة سوف تهتمين باشباع ضيفيك العزيزين ، فالبلبل ، كما تعرفين ، لا يقتات على الحكايات .

نهضت العجوز من المقعد وقالت :

– في الحال ، يا فاسيلي ايفانوفيتش ، ستكون المائدة جاهزة . سأذهب بنفسي الى المطبخ وسآمر باعداد السماور . سيكون كل شيء على ما يرام . منذ ثلاث سنوات لم اره ولم اطعمه ولم اسقه ، فهل ذلك بالامر الهين ؟

– ارجوك يا ربة البيت ، ابذلي جهدك ، فلا تجلبي الملامة على نفسك . اما انتما ايها السيدان فارجوكما ان تتبعاني . وها هو تيموفييتش جاء ليحييك يا يفغيني . فهو ايضاً قد سر ، ولا بد ، أليس كذلك ايها العجوز ؟ اتبعوني رجاء .

سار فاسيلي ايفانوفيتش في المقدمة حركاً متململاً وهو يحف ويخشخش بحذائه البالي .

كانت داره تضم ست غرف صغيرة لا غير . وكانت احداها ، وهي الغرفة التي اقتاد اليها صاحبينا ، تسمى بالمكتب . كانت طاولة بقوائم سميكة تحتل كل الفسحة بين النافذتين . وعلى الطاولة اكداس اوراق اسودت من الغبار والقدم حتى بدت كالمشوية بالدخان . وعلى الجدران بنادق ومجالد تركية وسيف وخريطتان جغرافيتان وبعض الرسوم التشريحية وصورة هوفيلاند (٨٢) وطغراء مصنوعة من الشعر في اطار اسود ودبلوما مزججة . وكانت هناك اريكة جلدية مخسوفة في ناحية وممزقة في ناحية اخرى بين صوانين هائلين من خشب البتولا الكاريلية . وكانت الرفوف غاصة ، على غير انتظام ، بالكتب والعلب والطيور المحنطة والقناني والزجاجات الصغيرة . وفي احد الاركان ماكنة كهربائية معطبة .

بدأ فاسيلي ايفانوفيتش كلامه :

– ذكرت لك يا زائري العزيز اننا نعيش هنا كما في المخيمات العسكرية المكشوفة . . .

فقاطعه بازاروف :

– كفاك ، علامَ تعتذر ؟ اركادي يعرف جيداً بانك لست

قارون وانك لا تمتلك قصراً . ولكن اين سيقيم ؟ تلـــك هي المشكلة .

— كيف يا يفغيني ؟ لدينا في الجناح غرفة ممتازة . وسيرتاح فيها كلياً .

— ماذا ؟ هل بنيت جناحاً ؟

فتدخل تيموفييتش قائلاً :

— كيف لا يا سيدي ؟ هناك في مبنى الحمام .

— اي قرب الحمام — اضاف فاسيلي ايفانوفيتش على عجل — فالوقت صيف . . . ساذهب الى هناك في الحال لاعطـــي بعض التعليمات . هلا احضرت ، يا تيموفييتش ، حاجياتهما ! اما انت ، يا يفغيني ، فاترك لك مكتبي طبعاً (لكلٍ ما له) * .

فقال بازاروف حالما خرج فاسيلي ايفانوفيتش :

— يا له من عجوز ظريف . انه في منتهى الطيبة . وهو غريب الاطوار مثل ابيك ، ولكن على طراز آخر . انه كثير الثرثرة .

فقال اركادي :

— وامك ايضاً امرأة رائعة على ما يبدو .

— اجل ، انها طيبة القلب . وسوف ترى اي غداء ستقدم لنا .

فقال تيموفييتش وقد دخل لتوه حاملاً حقيبة بازاروف :

— لم نتوقع وصولكـــما اليوم ، يا عزيزيّ ، فلم نحضر لحم البقر .

— سنستغني عن لحم البقر ما دام غير موجود . فالفقر ليس عيباً كما يقال .

فسأل اركادي على نحو غير متوقع :

— كم نسمة يمتلك ابوك ؟

— الضيعة ليست له ، فهي ملك لوالدتي ، وعدد الفلاحين ، على ما اتذكر ، خمسة عشر .

— بل اثنان وعشرون — قال تيموفييتش بعدم ارتياح .

تهادى حفيف حذاء ، وظهر فاسيلي ايفانوفيتش من جديد ، واعلن كالمنتصر :

— بعد بضع دقائق ستكون غرفتك جاهزة يا اركادي . . . نيكولايفيتش . هذا هو اسم ابيك على ما اعتقد ، أليس كذلك ؟ —

* في الاصل باللاتينية Suum cuique .

ثم اضاف مشيراً الى غلام قصير الشعر في قفطان ازرق ممزق عند المرفقين وفي جزمة ليست له : — هذا خادمك . واسمه فيدكا . اعتذر مرة اخرى ، مع ان ولدي لا يسمح بالاعتذار . فالصبي يجيد ، على الاقل ، شحن الغليون . انت تدخن ، أليس كذلك ؟

— انا ادخن السجائر اكثر . — اجاب اركادي .

— ذلك في منتهى الحكمة . وانا شخصياً افضل السجائر ، ولكن من الصعب جداً الحصول عليها في بقاعنا النائية هذه .

فقاطعه بازاروف من جديد :

— كفاك مسكنة . من الافضل ان تجلس هنا على الاريكة لاستطيع التطلع اليك .

ضحك فاسيلي ايفانوفيتش وجلس . كان وجهه يشبه وجه ابنه لدرجة كبيرة ، سوى ان جبهته اوطأ واضيق ، وفمه اوسع قليلاً . كان دائم الحركة ، يهز كتفيه بلا كلل وكأنما الثوب ضيق تحت ابطيه . ويطرف كثيراً ويسعل بين الفينة والفينـــة ويحرك اصابعه ، في حين يتميز ابنه بشيء من الهدوء اللاابالي .

تحدث فاسيلي ايفانوفيتش :

— تقول ، يا يفغيني اني اتمسكن ! كلا ، لا تظن باني كأنما اريد ان اتشكى لضيفنا من عيشتنا في طرف منعزل بعيد . فأنا على العكس أرى انه لا يوجد طرف بعيد بالنسبة للانسان المفكر . وانا ، على الاقل ، احاول ، قدر الامكان ، ان اواكب العصر ، فلا اترك الطحالب تغطيني ، كما يقال .

اخرج فاسيلي ايفانوفيتش من جيبه منديلاً حريرياً اصفر جديداً ، كان قد اخذه عندما ذهب لترتيب غرفة اركادي ، وواصل كلامه وهو يلوح بالمنديل :

— ناهيك عن اني ، مثلاً ، حولت الفلاحين للعمل حسب الجزية واعطيتهم ارضي مناصفـــة في المحصول ، بالرغم من الاضرار المحسوسة التي اتكبدها نتيجة لذلك . فقد اعتبرت هذا واجباً علي ، فالعقل السليم نفسه يتطلب ذلك ، مع ان الكثيرين من الملاك الآخرين لا يفكرون به . وانا اهتم بالعلوم والتعليم .

فقال بازاروف :

— اجل ، أرى لديك «صديق العافية» (٨٣) لعام الف وثمانمئة وخمسة وخمسين .

فقال فاسيلي ايفانوفيتش باستعجال :

– يرسلها لي احد اصدقائي القدامى . – ثم اضاف موجهاً كلامه الى اركادي على الاكثر ، واشار الى رأس صغير من الجبس انتصب على الصوان وقسم الى مستطيلات مرقمة وقال : – نحن ، مثلاً ، نعرف ما هي فراسة الدماغ * . ولم يبق شينلين (٨٤) وراديماخير (٨٥) مجهولين لدينا .

فسأل بازاروف :

– أفلا يزالون في هذا اللواء يصدقون راديماخير ؟

سعل فاسيلي ايفانوفيتش وقال :

– في اللواء . . . انتم اعرف طبعاً ، ايها السادة . فمن اين لنا ان نلحق بكم ؟ سوف تحلون انتم بالذات محلنا . حتى في زماني بدا هوفمان (٨٦) ونظريته للاخلاط وبراون (٨٧) ومذهبه الحيوي شخصين مضحكين للغاية ، ولكن صيتهما ذاع ايضاً في حينه . وحل شخص ما جديد لديكم محل راديماخير وانتم تطأطئون رؤوسكم امامه ، لكنه ربما سيكون هو الآخر مثاراً للسخرية بعد عشرين عاماً .

فقال بازاروف :

– ازيدك علماً باننا الآن نسخر من الطب عموماً ولا نطأطئ رؤوسنا امام احد .

– كيف ؟ أفلا تريد ان تصبح طبيباً ؟

– بلى ، فليس في ذلك تعارض .

دس فاسيلي ايفانوفيتش اصبعه الوسطى في غليونه ، فلا يزال هناك شيء من الرماد الساخن . وقال :

– ربما ، ربما . لن اجادل في ذلك . فمن انا ؟ مجرد طبيب عسكري متقاعد . وقد تحولت الآن الى مهندس زراعي . – ثم وجه كلامه الى اركادي من جديد : – خدمت في لواء جدك . اجل رأيت في حياتي الكثير . فما اكثر المجتمعات التي حضرتها والشخصيات التي صادفتها ! انني ، انا الذي تراني الآن امامك ، قد جسست نبض الامير فيتغينشتين (٨٨) وجوكوفسكي (٨٩) ! وكنت اعرف فرداً فرداً جميع الذين كانوا في الجيش الجنوبي (٩٠) ، هل

* نظرية غير علمية للتدليل على السجايا الشخصية والملكات الذهنية من دراسة شكل الجمجمة . – **المترجم** .

انت فاهم ؟ (وهنا زمّ فاسيلي ايفانوفيتش شفتيه متباهياً) . ولكن عملي ثانوي لا شأن له . فلا يطلب مني غير اجادة المبضع وكفى ! اما جدك فكان عسكرياً حقيقياً وانساناً مبجلاً للغاية .

فقال بازاروف متكاسلاً :

– قل الحقيقة : كان في منتهى الحماقة .

– آه يا يفغيني ! اية الفاظ تنطق ؟ ! ارحم حالي . . . بالطبع ، لم يكن الجنرال كيرسانوف في عداد اولئك . . .

فقاطعه بازاروف :

– اتركه وشأنه . عندما اقتربت من هنا سررت لاجمتك ، اجمة البتولا . لقد شهقت وارتفعت كثيراً .

انتعش فاسيلي ايفانوفيتش وقال :

– هل لاحظت كيف ازدهر البستان ؟ ! غرست بنفسي كل شجرة فيه . وتوجد فاكهة وثمار واعشاب طبية . ومهما كان رأيكم ايها السادة الشباب فان العجوز باراتسيلس (٩١) نطق بالحقيقة عينها حينما قال : (بالاعشاب والكلمات والاحجار . . . *) . تخليت عن ممارسة التطبيب ، كما تعلم . غير اني مضطر الى العودة اليه مرتين في الاسبوع . فعندما يلتمس الناس المشورة لا يمكن طردهم . ويصادف ان يحتاج الفقراء الى اسعاف ، بينما لا يوجد هنا اطباء على الاطلاق . تصور ان احد الجيران ، وهو رائد متقاعد ، يمارس التطبيب ايضاً . وعندما سألت عما اذا كان قد درس الطب ام لا ، قيل لي : كلا ، لم يدرسه . انما يمارسه عملاً بالمعروف . . . ها – ها ، عملاً بالمعروف ! أرأيت ؟ ها – ها ! ها – ها !

فقال بازاروف متجهماً :

– فيدكا ! املأ غليوني !

ثم واصل فاسيلي ايفانوفيتش كلامه بشيء من الاسف :

– ذات مرة وصل طبيب لعيادة مريض ولكن هذا الاخير (التحق بالاجداد **) فلم يسمح الوصيف للطبيب بالدخول وقال

* في الاصل باللاتينية in herbis, verbis et lapidibus لعله يقصد امكان المعالجة بها . – **المترجم** .

** في الاصل باللاتينية ad patres .

له : لا حاجة . ولم يكن الطبيب يتوقع ذلك فسأله مرتبكاً : «ماذا ؟ هل فاق السيد قبيل الوفاة ؟» – «اجل» . – «وهل فاق كثيراً ؟» – «كثيراً» – . «ذلك شيء حسن» . وعاد ادراجه . ها – ها – ها !

ضحك العجوز لوحده . وارتسمت ابتسامة متكلفة على محيا اركادي ، بينما اكتفى بازاروف بان اخذ نفساً من غليونه . استمر الحديث على هذا النحو زهاء ساعة . وتيسر وقت لاركادي كي يذهب الى غرفته ويعود ، فاتضح له انها غرفة ملابس الاستحمام ، ولكنها مريحة ونظيفة للغاية . واخيراً دخلت تانيوشا واعلنت ان الغداء جاهز .

نهض فاسيلي ايفانوفيتش اولاً ، وقال :

– فلنذهب ايها السادة ! معذرة اذا كنت قد اضجرتكما ، ولعل ربة بيتي تلبي حاجتكما اكثر مني .

كان الغداء فاخراً ، بل وسخياً ، بالرغم من الاستعجال في اعداده . غير ان النبيذ لم يكن على المستوى المطلوب ان صح القول . كان طعم نبيذ الهيريس القاتم الذي اشتراه تيموفييتش من بائع يعرفه في المدينة شبيهاً بطعم النحاس او صمغ الصنوبر . وكان الذباب قد لعب دوره ايضاً . في الاوقات العادية كان الخادم الصغير يطرد الذباب بغصن اخضر كبير ، الا ان فاسيلي ايفانوفيتش ابعده هذه المرة كي لا يتعرض للملامة من قبل الجيل الفتي . وتسنى لآرينا فلاسيفنا ان تتزين ، فقد ارتدت قلنسوة عالية بأشرطة حريرية ووشاحاً ازرق موشى . انتحبت من جديد حالما وقع نظرها على ابنها ينيوشا ، غير ان زوجها لم يضطر الى تهدئتها ، فقد عجلت هي نفسها بمسح دموعها كي لا يبتل الوشاح . تناول الشابان الطعام وحدهما ، اذ ان اهل البيت تغدوا قبل حين . وسهر على الخدمة فيدكا الذى بدا مرهقاً بالجزمة غير المعتادة ، وعاونته في ذلك انفيسوشكا وهي امرأة عوراء ذات ملامح تنم عن البسالة ، تؤدي وظائف مدبرة المنزل ومربية الدواجن والغسالة . اخذ فاسيلي ايفانوفيتش طوال الغداء يتمشى في الغرفة ويتحدث بسرور بل وبغبطة عن المخاوف الوخيمة التي اوحت بها اليه سياسة نابليون والمسألة الايطالية المشوشة (٩٢) . ولم تكن آرينا فلاسيفنا لتلتفت الى اركادي ولم تستحثه على تناول الطعام ، فقد اسندت بقبضتها وجهها المستدير الذي اضفت عليه شفتاها

المنتفختان القرمزيتان والشامات على وجنتيها وفوق حاجبيها مسحة من الطيبة المتناهية ، وركزت انظارها على ابنها وراحت تتنهد طوال الوقت . كانت تتحرق الى معرفة المدة التي سيقضيها بين ظهرانيهم ، ولكنها تخشى ان تسأله عن ذلك . فكرت في نفسها : «ماذا لو قال يومين ؟ !» – وكاد قلبها يتوقف عن الوجيب . بعد تناول المقليات اختفى فاسيلي ايفانوفيتش لحظة ، ثم عاد يحمل قنينة شمبانيا مفتوحة وهتف قائلاً : «مع اننا نعيش في الريف البعيد فلدينا ما نسلي انفسنا به في المناسبات !» . صب الشمبانيا في ثلاث كؤوس كبيرة وقدح صغير ورفع نخب «الزائرين الكريمين» وتجرع كأسه دفعة واحدة كما يفعل العسكريون وارغم آرينا فلاسيفنا على احتساء القدح حتى الثمالة . وعندما جاء دور المربى رأى اركادي الذي لا يطيق اي شيء سكري ان من واجبه ان يتذوق اربعة انواع مختلفة كانت قد اعدت مؤخراً ، لاسيما وان بازاروف رفض المربى رفضاً قاطعاً ودخن سيجارة في الحال . ثم ظهر على المائدة الشاي مع القشدة والزبدة والبسكويت . وبعد ذلك اقتاد فاسيلي ايفانوفيتش الجميع الى البستان للتمتع بجمال المساء . وعندما مروا بأحد المقاعد همس لاركادي :

– في هذا المكان اهوى التفلسف واتمتع بغروب الشمس كما يليق بالنساك . وهناك ، على مسافة ابعد ، غرست عدداً من الاشجار المحببة الى هوراس (٩٣) .

فسأل بازاروف الذي انصت اليه :

– اية اشجار تلك ؟

– انها بالطبع . . . الاقاصيا .

بدأ بازاروف يتثاءب ، فقال فاسيلي ايفانوفيتش :

– اعتقد انه حان الوقت للرحالتين كي يعانقا مورفيوس * .

فقال بازاروف على الفور :

– اي حان الوقت للنوم ! هذا رأي صائب . فقد حان الوقت حقاً .

ودع امه فقبلها في جبينها وعانقته هي ايضاً ، ثم رسمت علامة الصليب خلسة ، من وراء ظهره ، ثلاث مرات . رافق

---

* اله الاحلام في الميثولوجيا اليونانية . – **المترجم** .

فاسيلي ايفانوفيتش اركادي الى غرفته وتمنى له «استجماماً هنيئاً كالذي تذوقته انا عندما كنت في عمركم السعيد» . وبالفعـــل فقد غط اركادي في نوم هادئ في غرفة الملابس التي تفوح فيها رائحة النعناع وكان جدجدان يتناوبان الصرير على نحو منوم وراء المدفأة . ترك فاسيلي ايفانوفيتش اركادي وتوجه الى مكتبه فأتكأ على الاريكة عند رجلي ابنه . كان ينوي التحدث معـه ، ولكن بازاروف ابعده على الفور وقال انه راغب في النوم ، بينما لم يغمض له جفن حتى الصباح . فتح عينيه باتساع وصار يحدق في الظلمة حانقاً : فلم تكن لذكريات الطفولة سلطة عليه ، زد على ذلك انه لم يتخلص بعد من الانطباعات المريرة الاخيرة . وصلّت آرينا فلاسيفنا وابتهلت في البداية ما شاءت ، ثم تحدثت لامد طويل جداً مع انفيسوشكا التي وقفت متسمرة امام سيدتها وغرزت فيها عينها الوحيدة وعرضت عليها بهمس سحري كل ملاحظاتهـا وآرائهـا بخصوص يفغيني فاسيليفيتش . المّ الدوار برأس العجوز مـن الفرحـة والنبيـذ ودخان السجائر ، وحاول زوجها ان يتكلم معها ، ولكنه صرف النظر عن ذلك فلوح بيده يائساً .

آرينا فلاسيفنا نبيلة روسية حقاً من نبيلات الماضي . وكان ينبغي ان تعيش قبل مائتي عام في عهود موسكو القديمة . فهي متدينة للغاية ورقيقة الشعور ، تؤمن بكل انواع الفأل والعرافة والتعاويـذ والاحلام ، وتؤمن بالدراويش والجن والعفاريت ، وبمصادفات السوء وعين الحسود والادوية الشعبية وملح الخميس ، وبقرب حلول نهاية العالم ، وتعتقد ان محصول الحنطة السوداء يكون جيداً اذا لم تطفأ الشموع اثناء صلاة الليل في عيد الفصح ، وان الفطر لا ينمو بعد ان تراه عين الانسان ، وان الشيطان يحوم حول المياه ، وان هناك بقعة من الدم على صدر كل يهودي . كانت تخشى الفئران والافاعي والضفادع والعصافير والعلق والرعد والماء البارد وهبوب الريح ، والجياد والماعز والاشخاص المغر والقطط السود ، وتعتبر الجداجد والكلاب حيوانات نجسة ، ولا تأكل لحم العجول والحمام والارنب والسرطان والجبن والبطيخ الاحمر ، لان البطيخ المفتوح يذكرها برأس يوحنا المعمدان (٩٤) . وما كانت لتستطيع الكلام عن المحار بدون ارتعاش . كانت نهمة أكولاً ،

ولكنها تلتزم بالصيام كل الالتزام . وكانت تنام عشر ساعات في اليوم ، ولا تنام مطلقاً اذا داهم الصداع فاسيلي ايفانوفيتش . ولم تقرأ اي كتاب ما عدا «الكسيس ، او كوخ في الغاب» (٩٥) . وكانت تحبر رسالة واحدة او رسالتين لا اكثر في العام . لكنها تجيد تدبير الامور المنزلية وتجفيف الفاكهة واعداد المربى ، مع ان يدها لم تمس شيئاً ، ومع انها لا تتحرك من مكانها عموماً الا بشق الانفس . كانت آرينا فلاسيفنا في منتهى الطيبة ، ولم تكن غبية ابداً على طريقتها الخاصة . فهي تعرف ان في الكون اسياداً يجب ان يأمروا واناساً بسطاء يجب ان يخدموا ، ولذلك لا تستنكف عن التزلف ولا عن الركوع لحد ملامسة الارض ، ولكنها تعامل مرؤوسيها بلطف ووداعة ، ولا تترك اي متسول دون ان تتصدق عليه ، ولا تلوم احداً على الاطلاق ، مع انها تحب الخوض في مناقشة سلوك الناس . كانت في شبابها مليحة للغاية ، وكانت تعزف على الكلافيكورد * وتتكلم الفرنسية بعض الشيء ، ولكنها اصبحت بدينة ونسيت الموسيقى واللغة الفرنسية خلال الرحلات طوال سنين عديدة مع فاسيلي ايفانوفيتش الذي تزوجته مرغمة . وهي تحب ابنها حباً جماً وتخشاه كل الخشية . وقد تخلت عن ادارة الضيعة لزوجها ، فلم تعد تهتم بشيء فيها ، سوى انها صارت تتأوه وتنش بمنديلها وترفع حاجبيها اعلى فأعلى مرتعبة كلما شرع عجوزها يتحدث عن التحويلات المرتقبة وعن مشاريعه . كانت متريّبة تتوقع على الدوام شراً مستطيراً ، وسرعان ما تنهمر دموعها حالما تتذكر شيئاً محزناً . . . ان عدد امثال هؤلاء النسوة يتضاءل الآن . والله وحده يعلم ما اذا كان يجب ان نفرح لذلك ام لا !

٢١

نهض اركادي من الفراش وفتح النافذة على مصراعيها . واول ما وقعت عليه انظاره هو . . . فاسيلي ايفانوفيتش . كان العجوز في جبة شرقية ، مما يرتديه اهالي بخارى ، وراح يجهد في البستنة

* آلة موسيقية وترية مزودة بلوحة مفاتيح . تعتبر الاصل الذي تطورت عنه البيانو . — المترجم .

متمنطقاً بمنديل . وعندما لمح ضيفه الشاب بادره مستنداً الى الرفش :

– عم صباحاً ! كيف قضيت ليلتك ؟

– على اروع ما يكون .

– اما انا فكما ترى ، مثل شنشنسيناتوس (٩٦) ، اعد جنينة للشلجم الافلي المتأخر . لقد حل الآن ، والحمد لله ، زمان يتعين فيه على كل شخص ان يهيئ الاغذية لنفسه بيديه ، فلا مجال للتعويل على الآخرين : ينبغي للمرء ان يعمل بنفسه . ويعني ذلك ان جان جاك روسو محق (٩٧) . كان بوسعك ، يا سيدي ، ان تراني قبل نصف ساعة بهيئة اخرى تماماً . فقد تشكت احدى الفلاحات من الزحار – كما يسمونه ، اي من الدزنتري – كما نسميه نحن ، ففعلت لها . . . كيف لي ان اجد التعبير الافضل ؟ ! حقنتها بالافيون ، ثم اقتلعت سن امرأة اخرى . واقترحت عليها استخدام الاثير . . . لكنها رفضت . انني افعل ذلك كله (مجانا) * كهاو . وبالمناسبة ليس في ذلك ما يثير العجب ، فأنا (انسان جديد) ** من الدهماء ولست ، كزوجتي الكريمة ، من النبلاء اباً عن جد . . . هلا تفضلت الى هنا ، في الظل ، لتنشق النسيم العليل قبيل شاي الصباح ؟ !

خرج اركادي اليـــه فقال فاسيلي ايفانوفيتش رافعاً يده بالتحية ، على الطريقة العسكرية ، الى الطاقية العتيقة المتسخة التي تغطي رأسه :

– اهلاً وسهلاً بك مرة اخرى ! لقد تعودت انت ، كما اعلم ، على الابهة واسباب الراحة ، ولكن حتى عظماء العالم لا يستنكفوز من قضاء بعض الوقت تحت سقف كوخ .

فقال اركادي بصوت مرتفع :

– عفواً ، اين انا من عظماء العالـــم ؟ ثم اني لم اتعود على الابهة .

فاعترض فاسيلي ايفانوفيتش بتأدب :

– كلا ، كلا . فمع اني محال الآن الى الارشيف ، ولكنني

* في الاصل باللاتينية gratis .

** في الاصل باللاتينية homo novus .

عشت في المجتمع الراقي ايضاً ، وانا اعرف الطير من تحليقه . انا نفساني وسيمائي على طريقتي الخاصة . واتجاسر على القول باني لو لم املك هذه الموهبة لانتهى امري من زمان ، ولسحقت انا الانسان الصغير . واقول لك بلا محاباة ان الصداقة التي الحظها بينك وبين ولدي تبعث السرور حقاً في نفسي . لقد رأيته الآن . فهو ، كعادته ، وهذا امر معروف لك ولا بد ، قد نهض مبكراً وراح يجوب الاطراف . اسمح لي ان استفسر منك : هل تعرفت على ابني يفغيني من زمان ؟

– منذ الشتاء المنصرم .

– هكذا اذن . اسمح لي ان أسألك مرة اخرى ، ولكن ألا نجلس ؟ اسمح لي كأب ان اسألك : ما هو رأيك بابني يفغيني ؟

فأجاب اركادي بحماس :

– ابنك واحد من اروع الناس الذين تيسر لي ان اقابلهم في اي وقت .

اتسعت عينا فاسيلي ايفانوفيتش فجأة ، واحمرت وجنتاه بعض الشيء . وسقط الرفش من يديه . ثم واصل كلامه :

– هكذا اذن ، تتصور . . .

فعاجله اركادي :

– انا واثق ان مستقبلاً عظيماً ينتظر ابنك ، وانه سيرفع رأسك . تأكدت من ذلك منذ لقائنا الاول .

– كيف . . . كيف كان ذلك ؟ – نطق فاسيلي ايفانوفيتش هذه الكلمات بالكاد . وانفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة معجبة لم تفارقهما بعد ذلك .

– تريد ان تعرف كيف التقينا ؟

– نعم . . . وعلى العموم . . .

راح اركادي يتحدث عن بازاروف بحماس واعجاب اكبر مما في ذلك المساء عندما رقص المازوركا مع اودينتسوفا .

استمع اليه فاسيلي ايفانوفيتش واطال الاستماع ، ثم تمخط ولف المنديل بكلتا يديه وسعل ، ونفش شعره ، واخيراً لم يتمالك نفسه فانحنى على اركادي وقبله في كتفه . ثم قال دون ان تفارقه ابتسامته :

– افرحتني جداً . وعليّ ان اقول لك باني . . . أؤله ابني ،

ناهيك عن عجوزي ، فهي ام ، وهذا امر معروف ، لكنني لا أجرؤ بحضوره على ان اعرب عن مشاعري لانه لا يحب ذلك . فهو خصم لكل العواطف ، حتى ان الكثيرين يلومونه على تصلب الطباع هذا ويرون فيه علامة الغرور او انعدام الشعور ، الا ان امثاله لا يمكن ان يقاسوا بالمعيار المعتاد ، أليس كذلك ؟ وعلى سبيل المثال فان شخصاً غيره لا بد وان ينفق اموال والديه بلا انقطاع ، اما هو فلم يأخذ منّا ، والله ولا كوبيكاً زائداً ، هل تصدق ؟

فقال اركادي :

– انه انسان نزيه غير اناني .

– غير اناني بالفعل . وانا ، يا اركادي نيكولايفيتش ، لا أؤلهه فحسب ، بل افتخر به . ومن دواعي اعتزازي ان ترد ضمن سيرة حياته بمر الزمن الكلمات التالية : «ابن طبيب عسكري بسيط ولكن اباه استطاع ان يكتشف مواهبه مبكراً ولم يبخل بشيء من اجل تربيته . . .» – قال العجوز ذلك بصوت متقطع .

فشد اركادي على يده .

وبعد فترة صمت سأل فاسيلي ايفانوفيتش :

– ماذا ترى ؟ سيبلغ الشهرة التي تتنبأ بها له ليس في مجال الطب ، أليس كذلك ؟

– ليس في مجال الطب طبعاً ، مع انه سيكون في هذا الميدان ايضاً واحداً من المع العلماء .

– ففي اي مجال ، يا اركادي نيكولايفيتش ؟

– من الصعب التكهن بذلك حالياً ، ولكنه سيكون شهيراً .

– سيكون شهيراً ! – كرر العجوز وغرق في تأملاته .

مرت انفيسوشكا ازاءهما حاملة طبقاً كبيراً من توت العليق اليانع وقالت:

– امرتني آرينا فلاسيفنا ان ادعوكما لاحتساء الشاي .

فانتفض فاسيلي ايفانوفيتش وقال :

– هل سيقدم التوت مع القشدة الباردة ؟

– اجل ، يا سيدي .

– فلتكن باردة حقاً . لا تعبأ بالرسميات ، يا اركادي نيكولايفيتش ، خذ المزيد . لماذا لم يحضر يفغيني بعد ؟

– انا هنا – دوى صوت بازاروف الذي اطل من غرفة اركادي .

التفت فاسيلي ايفانوفيتش على عجل وقال :

– أها ! اردت ان تزور رفيقك ، ولكنك تأخرت (يا صديقي) * ، فقد كانت لنا معه محادثة طويلة . اما الآن فينبغي ان نذهب لاحتساء الشاي : امك تدعونا . وبالمناسبة فأنا اريد ان اتحدث معك .

– عم ؟

– في القرية فلاح يعاني من اليرقان . . .

– اي داء الصفر ، أليس كذلك ؟

– بلى ، انه يعاني من يرقان مزمن يكاد يكون عضالاً . وقد نصحته بتناول حشيشة القنطريون وعشبة القديس يوحنا وارغمته على اكل الجزر واعطيته شيئاً من الصودا ، ولكن ذلك كله مجرد ادوية مسكنة ، يجب اعطاؤه شيئاً ناجعاً . ومع انك تسخر من الطب فأنا واثق من انك يمكن ان تقدم لي نصيحة حصيفة . لكننا سنتكلم عن ذلك فيما بعد ، اما الآن فهيا لتناول الشاي .

نهض فاسيلي ايفانوفيتش نشيطاً من المصطبة وانشد بيتين من «روبرت» (٩٨) :

سنشرّع لنا قانونا ، قانوناً
لعيشة سعي . . . سعي . . . سعيدة !

فعلق بازاروف مبتعداً عن النافذة :

– يا لها من قدرة رائعة على الحياة ؟

انتصف النهار . وبدت الشمس لافحة من وراء حجاب رقيق من الغيوم البيضاء . كان الصمت يلفع كل شيء ، ما عدا الديكة التي تتصايح بحماسة في القرية مثيرة في فؤاد كل من يسمعها احساساً غريباً بالنعاس والضجر . وفي مكان ما في اعالي الاشجار رن ، كهتاف متباك ، نعيق نسر فتيّ لجوج . اضطجع اركادي

* في الاصل باللاتينية amice .

وبازاروف في ظل كومة غير عالية من الاعشاب المجففة ، بعد ان افترشا حزمتين من حشيش يابس مخشخش احتفظ بشيء من خضرته وعبقه .

قال بازاروف :

— شجرة الحور تلك تذكرني بطفولتي . فهي تنمو على طرف الحفرة التي تبقت من المستودع القرميدي . كنت آنذاك واثقاً من ان لدى الحفرة والشجرة طلسماً خاصاً : فلم اشعر بالضجر ابداً قربهما . ولم اكن افهم آنذاك انني لم اشعر بالضجر لاني كنت طفلاً . اما الآن فأنا انسان راشد ولا يؤثر علي الطلسم .

فسأله اركادي :

— كم من الوقت قضيت هنا ؟

— زهاء عامين متتاليين . وفيما بعد صرنا نأتي الى هنا بين حين وآخر . فقد عشنا حياة الترحل ، اذ كنا نجوب المدن اكثر من غيرها .

— وهل الدار مبنية من زمان ؟

— نعم . بناها جدي ، والد امي .

— ومن هو جدك هذا ؟

— الشيطان وحده يعلم . كان رائداً على ما اعتقد ، خدم عند سوفوروف (٩٩) ، وكان يتحدث دوماً عن عبور الألب . كان يكذب ولا بد .

— ولذلك علقت صورة سوفوروف في غرفة الاستقبال لديكم . انني احب الدور الصغيرة العتيقة والدافئة مثل داركم ، ثم ان لها رائحة خاصة متميزة .

فقال بازاروف متثائباً :

— يفوح منها زيت القناديل والحندقوق . اما عن الذباب في هذه الدور الجميلة . . . فحدّث ولا حرج !

بعد فترة قصيرة سأل اركادي :

— قل لي هل كنت تتعرض لمضايقات في الطفولة ؟

— انت ترى والديّ . انهما ليسا متشددين .

— انت تحبهما يا يفغيني ، أليس كذلك ؟

— طبعاً ، يا اركادي !

— انهما متيمان بك !

لاذ بازاروف باذيال الصمت ، ثم دس يديه تحت رأسه وقال اخيراً :

— هل تحزر بم افكر ؟

— كلا . بم ؟

— افكر ان والديّ يعيشان بهناء ! فأبي في الستين وهو مشغول باشغاله ويتحدث عن الادوية «المسكنة» ويعالج الناس ويتسامح مع الفلاحين ، وباختصار ، فهو يعيش حياة مرحة . وامي تعيش بهناء ايضاً . فيومها مشحون بالمشاغل والتأوهات والتحسرات الى درجة لا تترك لها متسعاً من الوقت لالتقاط النفس . اما انا . . .

— وانت ؟

— اما انا فأفكر : ها انا ذا اضطجع هنا في ظل الكومة . . . والمحل الضيق الذي اشغله هنا ضئيل جداً بالمقارنة مع ما تبقى من المكان حيث انا غير موجود ولا شأن لاحد بي ، ثم ان ذلك القسم من الزمن الذي سأعيشه ضئيل جداً بالمقارنة مع الخلود حيث لم اكن موجوداً ولن اوجد . . . في حين ان هذه الذرة ، هذه النقطة الهندسية ، يدور فيها دم ويعمل فيها دماغ يريد شيئاً ما . . . فيا للفظاعة ! ويا للسخف !

— عفواً ! ان ما ذكرته ينطبق عموماً على جميع البشر . . .

فعاجله بازاروف قائلاً :

— انت على حق . اردت ان اقول انهما ، اعني والديّ ، مشغولان ولا يفكران بتفاهتهما ، وهي لا تزكم انفيهما . . . اما انا . . . فلا احس بغير الضجر والغضب .

— الغضب ؟ لماذا الغضب ؟

— لماذا ؟ كيف لماذا ؟ فهل نسيت ؟

— انني اتذكر كل شيء . ومع ذلك لا اعترف بحقك في لغضب . انت تعيس ، لا اجادل في ذلك ، ولكن . . .

— آ ! يبدو لي انك ، يا اركادي نيكولايفيتش ، تفهم الحب مثل جميع الشباب العصريين : تعالي ، تعالي يا دجاجة ! ولكن حالما تبدأ الدجاجة بالاقتراب تطلق انت ساقيك للريح ! لست من هذا الطراز . ولكن كفانا كلاماً عن ذلك . فمن العيب الكلام عما نحن عاجزون عنه . — استدار على جنبه — أها ! يا لشجاعة هذه

النملة التي تجر ذبابة محتضرة . واصلي عملـــك ، يا اختي ، واصليه ! فبالرغم من مقاومتها انتهزي فرصة كونك ، كحيوان ، تتمتعين بحق عدم الاعتراف بمشاعر المؤاساة ، خلافاً للانسان الذي يحطم نفسه بنفسه !

— لا يليق بك هذا الكلام يا يفغيني ! فمتى حطمت انت نفسك ؟

رفع بازاروف رأسه وقال :

— انني افتخر بذلك . فما دمت لم احطم نفسي بنفسي ، فلن تحطمني امرأة . هذا هو القول الفصل ! خلاص ! ولن تسمع مني كلمة واحدة عن ذلك بعد الآن .

ظل الصديقان صامتين بعض الوقت .

ثم طفق بازاروف يتكلم :

— اجل ، الانسان كائن غريب الاطوار . عندما تلقى نظرة جانبية ، عن بعد ، على الحياة الصماء التي يعيشها «الآباء» هنا يخيّل اليك انه لا افضل منها ! فيكفي ان تأكل وتشرب حتى تتصور بانك تسلك السلوك الاصوب والاكثر تعقلاً . كلا ! الضجر سيستولى عليك . وبود المرء ان يعاشر الناس ، ولو اضطر الى لومهم ، فلا بد من المعاشرة .

فقال اركادي متأملاً :

— ينبغي تنظيم الحياة بحيث تكون لكل لحظة فيها اهمية .

— لا اعتراض على ذلك . فالشيء المهم حلو بالرغم من الزيف الذي يرافقه احياناً . ويمكن التسامح حتى مع الاشياء التافهة . . . ولكن المشاحنات . . . المشاحنات هي الطامة الكبرى .

— المشاحنات غير موجودة بالنسبة للانسان اذا كان لا يريد الاعتراف بها طبعاً .

— احم . . . لقد قلت الآن عبارة مبتذلة مضادة

— ماذا ؟ ما الذي تقصده بهذه التسمية ؟

— اليك ما اقصده : اذا قلنا ، مثلاً ، ان التعليم نافع ، فتلك عبارة مبتذلة ، واذا قلنا ان التعليم ضار ، فتلك عبارة مبتذلة مضادة ، فهي ، حسب الظاهر ، اكثر اناقة ، ولكنها نفس الشيء في الواقع .

— ولكن اين الحقيقة ؟ وفي اي جانب هي ؟

— اين ؟ سأجيبك كالصدى : اين الحقيقة ؟

— مزاجك سوداوي اليوم يا يفغيني .

— حقاً ؟ لا بد وان الشمس قد لفحتني ، ثم انني اكلت الكثير من توت العليق .

— اذن فلا بأس بان نغفو قليلاً .

— اجل . ولكن لا تنظر اليّ : فان وجه اي انسان يبدو بليداً اثناء النوم .

— هل تعير بالاً لما يفكر به الآخرون عنك ؟

— لا ادرى بماذا اجيبك . فالانسان الحقيقي لا ينبغي ان يفكر بذلك . والانسان الحقيقي ليس هو الذي يفكر فيه الآخرون ، بل هو الذي يخضعون له او يكرهونه .

— يا للغرابة ! فأنا لا اكره احداً — قال اركادي بعد ان تفكر قليلاً .

— اما انا فأكره كثيرين . انت شخص رقيق رخو العود ، فأين منك الكره ؟ ! انك خجول لا تعول على نفسك كثيراً . . .

— وانت ؟ — قاطعه اركادي — هل تعول على نفسك ؟ وهل تقدر نفسك كثيراً ؟

لزم بازاروف الصمت فترة . ثم قال متمهلاً :

— عندما اقابل شخصاً لا يستسلم لي فسوف اغير رأيي عن نفسي . اما الكره فانك ، مثلاً ، قلت اليوم حينما مررنا ببيت مختار القرية فيليب — وهو بيت ابيض جميل — قلت ان روسيا ستبلغ الكمال عندما تكون لدى ابسط فلاح مثل هذه البناية ، وان على كل منا ان يساعد في ذلك . . . عند ذاك كرهت انا هذا الفلاح البسيط ، فيليب او سيدور ، الذي يتعين عليّ ان ابذل جهدي من اجله ، اما هو فلن يقدم اليّ حتى كلمة شكر . . . ثم ما حاجتي الي شكره ؟ حسناً ، سيعيش هو في بيت ابيض ، وسينبت على قبري الشوك ، وماذا بعد ؟

— كفاك يا يفغيني . . . من يستمع اليك اليوم يتفق مرغماً مع اولئك الذين يلوموننا على انعدام المبادئ .

— انت تتكلم مثل عمك . ليست هناك مبادئ اطلاقاً ، بل هناك الاحساسات ، وكل شيء متوقف عليها . وانت لم تدرك ذلك حتى الآن .

— كيف ذلك ؟
— انه كذلك بالذات . خذني مثلاً : انني اتمسك باتجاه الرفض ، وذلك بحكم الاحساسات . فالرفض يبعث السرور في نفسي ، ودماغي مبنى على هذا الاساس ، ذلك كل شيء ! فما الذي يجعل الكيمياء تعجبني ؟ وما الذي يجعلك تحب التفاح ؟ — ذلك ايضاً بحكم الاحساسات . فالامر سواء . ولن يتغلغل البشر الى اعمق من ذلك ابداً . ولن يقول ذلك اي كان . وحتى انا لن اقوله لك مرة اخرى .
— والنزاهة هل هي احساس ايضاً ؟
— كيف لا ؟ !
— يفغيني ! — شرع اركادي يتكلم بصوت حزين . فقاطعه بازاروف :
— آ ؟ ماذا ؟ لم يعجبك ذلك ؟ كلا ، يا أخي ! فطالما قررت ان تحش كل شيء فحش رجليك ايضاً ! . . عليّ وعلى اعدائي يا رب ! ولكننا تمادينا في التفلسف . قال بوشكين «الطبيعة تبعث صمت الكرى» .
فاعترض اركادي :
— لم يقل بوشكين شيئاً من هذا القبيل مطلقاً .
— لم يقل . كان باستطاعته وكان يتعين عليه كشاعر ان يقول ذلك . وبالمناسبة فقد ادى الخدمة العسكرية ولا بد .
— لم يكن بوشكين عسكرياً ابداً !
— كيف لا ؟ فعلى كل صفحة لديه تجد «الى المعركة ! الى المعركة ! دفاعاً عن كرامة روسيا !» (١٠٠) .
— ما هذه الاساطير التي تبتدعها ؟ ! ذلك افتراء .
— افتراء ؟ فليكن ! أبهذه الكلمة تريد ان تخيفني ؟ ! مهما افترينا على الانسان فهو في الواقع يستحق اكثر من ذلك بعشرين مرة .
— من الافضل ان ننام ! — قال اركادي بزعل .
فأجاب بازاروف :
— بكل سرور .
بيد ان النعاس لم يراودهما . واجتاح فؤاديهما شعور يكاد

يكون عدائياً . وبعد خمس دقائق فتحا عيونهما وتبادلا النظرات صامتين .
ثم قال اركادي فجأة :
— انظر ! انفصلت ورقة اسفندان جافة وها هي تسقط على الارض بشكل يشبه كل الشبه تحليق الفراشة . أفليس ذلك غريباً ؟ ان اكثر الامور كآبة وموتاً شبيه بأكثرها مرحاً وحياة .
فهتف بازاروف :
— يا صديقي اركادي نيكولايفيتش ! ارجو منك شيئاً واحداً : لا تتكلم على نحو جميل .
— انني اتكلم بقدر استطاعتي . . . ثم ان ذلك تعسف في آخر الامر . تبادرت الى ذهني فكرة فما الذي يمنعني من ان اعرب عنها ؟
— هكذا اذن . فما الذي يمنعني انا ايضاً من ان اعرب عن فكرتي ؟ انني أرى ان الكلام على نحو جميل امر معيب .
— فما هو الامر غير المعيب ؟ الشتائم ؟
— هه ! يبدو لي انك تنوي ان تقتفي حقاً اثار عمك العزيز . فما اشد فرحة ذلك الابله لو انه سمعك !
— بم وصفت عمي بافل بتروفيتش ؟
— وصفته بما يستحق : بالابله .
— ذلك امر لا يطاق ! — هتف اركادي .
فقال بازاروف بهدوء :
— أها ! ثارت فيك مشاعر القربى . لقد لاحظت انها راسخة في الناس بتصلب وعناد . فالانسان مستعد للتخلي عن كل شيء ، ولمفارقة كل الاوهام ، ولكن الاعتراف ، مثلاً ، بان اخاه الذي يسرق مناديل الغير لص انما هو فوق طاقته . وبالفعل ، فهل يمكن ان لا يكون أخي عبقرياً اذا كان هو **أخاً لي** بالذات ؟ . .
فاعترض اركادي منفعلاً :
— ان ما ثار فيّ هو شعور العدالة البسيط ، وليس مشاعر القربى ، ولكنه طالما انك لا تفهم هذا الشعور وليس لديك هذا **الاحساس** ، فليس باستطاعتك ان تحكم عليه .
— وبعبارة اخرى : ان اركادي كيرسانوف فوق مستوى فهمي . لذا اطأطئ رأسي والوذ بالصمت .
— كفاك ، ارجوك يا يفغيني . سوف نتشاجر في آخر الامر .

– آه يا اركادي ! اعمل معروفاً ، فلنتشاجر مرة كما يرام ، حتى النفس الاخير ، حتى الابادة .

– يخيّل اليّ اننا ، على هذا النحو ، سننتهي الى . . .

فعاجله بازاروف :

– . . . ان نتلاكم ؟ أليس كذلك ؟ لا بأس ان نتلاكم هنا ، على العشب ، في هذا الجو الشاعري بعيداً عن العالم وعن انظار الناس . ولكنـــك لن تقوى علي . فسوف اتشبث بنحرك على الفور . . .

نشر بازاروف اصابعه الطويلة المتصلبة . . . واستدار اركادي واستعد للمقاومة مازحاً . . . لكن وجه صديقه بدا له شريراً للغاية وخيل اليه ان خطراً فعلياً يتهدده في ابتسامة شفتيه الساخرة المصطنعة وفي عينيه المتوقدتين ، مما جعله يحس بوجل لاارادي . . .

– أها ! هنا اختفيتما ! – دوى في تلك اللحظة صوت فاسيلي ايفانوفيتش . جاء الطبيب العسكري العجوز مرتدياً سترة قطنية بيتية الصنع وقبعة من القش بيتية الصنع ايضاً – بحثت عنكما طويلاً . . . ولكنكما اخترتما مكاناً ممتازاً وانشغلتما بعمل رائع ، حيث تتطلعان الى «السماء» راقدين على «الارض» . . . أفلا ينطوي ذلك على اهمية خاصة ؟ !

فقال بازاروف :

– انني لا انظر الى السماء الا عندما تنتابني عطسة . – ثم التفت الى اركادي واضاف همساً : – من المؤسف انه حال بيننا .

فهمس اركادي وشد على يد صديقه خلسةً :

– كفاك . فان اية صداقـــة لن تصمد طويلاً لمثل هذه الاشتباكات .

فقال فاسيلي ايفانوفيتش آنذاك وهو يهز رأسه وقد استند بيديه المتصالبتين على عصا معقوفة بتفنن صنعها بنفسه ووضع مقبضاً لها بشكل رأس تركي معمم .

– انني اتطلع اليكما يا عزيزي ولا اشبع منكما . فكم فيكما من قوة وشباب مزدهر وقابليات ومواهب ! انكما . . . مثـــل كاستوروس وبولوكس * بالضبط !

* ابنا زيوس ، توأمان . – **المترجم** .

فقال بازاروف :

– ها قد استشهدت بالميثولوجيا ! واضح تماماً انك كنت في حينه متضلعاً في اللاتينية ! فلقد فزت ، على ما اتذكر ، بالميدالية الفضية لقاء الانشاء ، أليس كذلك ؟

– توأمان بالضبط ! – قال فاسيلي ايفانوفيتش .

– ولكن كفاك رقة ، يا ابتي .

فقال العجوز :

– ذلك مسموح به مرة في العمر . وبالمناسبة فقد بحثت عنكما ايها السيدان لا لاعبر لكما عن المجاملات ، بل لاخبركما ، اولاً ، باننا سنتناول طعام الغداء قريباً ، وثانياً ، اردت ان احذرك يا يفغيني . . . فأنت انسان ذكي تعرف الناس ، والنساء كذلك ، لذا فسوف تتسامح . . . ارادت امك ان تؤدي مراسيم الصلاة بمناسبة مجيئك . ولا تتصور باني ادعوك لحضور هذه المراسيم ، فقد انتهت ، ولكن الاب الكسي . . .

– خوري ؟

– اجل . الخوري سوف . . . يتغدى عندنا . . . لم اكن اتوقع ذلك ، حتى اني نصحته بعدم . . . ولكني لم انجح . . . فهو لم يفهمني . . . ثم ان آرينا فلاسيفنا . . . علماً بانه انسان متعقل وفي منتهى الطيبة .

فسأل بازاروف :

– لن يأكل حصتي من الغداء ، أليس كذلك ؟

فقال فاسيلي ايفانوفيتش ضاحكاً :

– كيف ؟

– انا لا اطالب ، اذن ، بأكثر من ذلك . وانا مستعد للجلوس الى المائدة مع اي كان .

عدّل فاسيلي ايفانوفيتش قبعته ، وقال :

– انا واثق مسبقاً من انك اعلى مستوى من جميع الخرافات . فحتى انا العجوز في سني الثانية والستين اخلو من تلك الخرافات . (لم يتجرأ فاسيلي ايفانوفيتش على الاعتراف بانه نفسه رغب في اداء الصلاة . . . كان متديناً لا اقل من زوجته .) اما الاب الكسي فقد كان راغباً اشد الرغبة في التعرف عليك . وسوف يعجبك ،

سترى ذلك بنفسك . وهو لا يعتذر عن لعب الورق . . . حتى انه . . . وهذا سر بيننا . . . يدخن غليوناً .

— ما العمل ؟ سنلعب القمار بعد الغداء وسوف اغلبه .

— هيه ، من يعش ير ! فتلك مسألة فيها نظر .

— ماذا ؟ هل تستعيد ذكريات الماضي ؟ — سأل بازاروف بنبرة متعمدة .

فاحمرت وجنتا فاسيلي ايفانوفيتش البرنزيتان على نحو مبهم وقال :

— عيب عليك يا يفغيني . . . ما فات فات . نعم ، انا مستعد للاعتراف امام اركادي نيكولايفيتش بانني كنت مولعاً بذلك في فتوتي . نعم . ولكنني دفعت الثمن ! ما اشد حرارة الجو . اسمحا لي ان اجلس قربكما . فلن اثقل عليكما ، أليس كذلك ؟

— مطلقاً — اجاب اركادي .

ارتمى فاسيلي ايفانوفيتش على العشب متأوهاً ، ثم طفق يتكلم :

— مضجعكما الحالي ، يا سيديّ الجليلين ، يذكرني بحياتي في المخيمات العسكرية ومراكز التضميد في مكان ما قرب اكوام العشب . وكان ذلك في احسن الاحوال — وندت عنه تنهدة — فلقد اجتزت كثيراً من المحن في حياتي . وعلى سبيل المثال احدثكما ، اذا سمحتما ، عن وباء الطاعون في بيسارابيا .

فعاجله بازاروف قائلاً :

— ذلك الذي منحت وسام فلاديمير من اجله ؟ نعرف ذلك جيداً . . . وبالمناسبة فلماذا لا تحمل الوسام ؟

— قلت لك بانـــي لا اعبـــأ بالخرافات — دمدم فاسيلي ايفانوفيتش (وهو الذي امر يوم امس فقط بانتزاع شريط الوسام الاحمر من سترته) ، وراح يتحدث عن وباء الطاعون . ثم همس لاركادي بغتة وهو يشير الى بازاروف وقد غمز بطيبة قلب : — لقد غفا — ثم اضاف بصوت عال : — يفغيني ! انهض ! فلنذهب لتناول الغداء . . .

اتضح ان الاب الكسي ، وهو رجل مكتنز مرموق بشعره الكثيف الممشط بدقة وزناره المطرز على غفّارته الحريرية البنفسجية ، يتحلى بقدر كبير من المهارة والفطنة . فقد بادر الى مصافحة اركادي وبازاروف وكأنه يدرك مسبقاً بانهما ليسا بحاجة الى تبريكاته ، وقد تصرف عموماً بلا تكلف . فلم يفضح نفســـه ولم يمس الآخرين . وقد سخر على نحو مناسب من اللغة اللاتينية المدرسية ودافع عن اسقفه ، وارتشف قدحين من النبيـــذ ورفض القدح الثالث . وتناول من اركادي سيجاراً ولكنه لم يدخنه ، بل قال انه سيأخذه معه الى البيت . كان شيء واحد لا يبعث على الارتياح فيه ، وهو انه يرفع يده ببطء وحذر بين حين وآخر ليتصيد الذباب على وجهه ، ثم يهرسه احياناً . وقد جلس الى المائدة الخضراء معبراً عن ارتياحه باعتدال ، وانتهـــى الى ان غلب بازاروف روبلين وخمسين كوبيكاً ورقية : فان عائلة آرينا فلاسيفنا لم تكن تعرف الحساب بالنقود الفضية . . . جلست الام كعادتها ازاء ابنها (ولم تساهم في لعب الورق) فاسندت خدها بقبضتها كالسابق ، ولم تكن تنهض الا لكي تأمر باحضار صنف جديد من اصناف الطعام . كانت تخشى مداراة بازاروف الذي لم يبدر منه ما يشجعها على المداراة ، ثم ان فاسيلي ايفانوفيتش نصحها هو الآخر بان لا «تزعج» ابنها كثيراً .واكد لها «ان الشباب لا يرغبون في ذلك» (ولا داعي للكلام عن غداء ذلك اليوم : فقد ارتحل تيموفييتش بنفسه منذ الفجر لكي يقتني لحم بقر من نوع تشيركاسي خاص ، وتوجه مختار القرية الى جهـــة اخرى لاقتناء سمـــك البربوط والراف والسرطان ، وتسلمت الفلاحات اثنين واربعين كوبيكاً نحاسياً لقاء الفطر وحده) . بيد ان عيني آرينا فلاسيفنا المتطلعتين الى بازاروف على الدوام لم تعبرا عن الولاء والحنان وحدهما : فقد لاحت فيهما كآبة ممزوجة بالفضول والرعب ، ولاح فيهما شيء من العتاب الوادع .

وبالمناسبة فقد كان بازاروف في شغل شاغل عن تفحص ما تعبر عنه عينا امه . فكان نادراً ما يخاطبها ويطرح عليها سؤالاً ما موجزاً . طلب منها ان تقدم له يدها «كفأل حسن» في لعب الورق ، فوضعت يدها الرقيقـــة بهدوء على راحته الواسعـــة المتصلبة .

وبعد قليل سألته :

— ماذا ؟ هل اعانك ذلك ؟

فأجاب بابتسامة ساخرة مستهينة :

– اصبح الامر اسوأ .
فقال الاب الكسي متظاهراً بالتأسف ومسد لحيته الجميلة :
– انه يجازف كثيراً .
فتدخل فاسيلي ايفانوفيتش الذي لعب بالآس قائلاً :
– تلك قاعدة نابليونية ، يا ابانا ، قاعدة نابليون .
فقال الاب الكسي وهو يغطي الآس بورقة القشوش الرابحة :
– انها هي التي قادته الى جزيرة سانت هيلانة * .
وسألت آرينا فلاسيفنا :
– الا ترغب في عصير عنب الثعلب ، يا ينيوشا ؟
فاكتفي بازاروف بان هز كتفيه .
وفي اليوم التالي قال لأركادي :
– كلا ! سارتحل غداً . لقد ضجرت . اريد ان اعمل ولكن العمل هنا مستحيل . سأذهب الى قريتكم من جديد ، فقد تركت جميع مستحضراتي عندكم . هناك يمكنني ان انفرد على الاقل . اما هنا فان ابي يؤكد لي : «مكتبي تحت تصرفك ، ولن يشوش عليك احد» ، ولكنه هو بالذات لا يفارقني لحظة . ثم ان انفرادي عنه امر لا يليق . وامي هي الاخرى . . . فأنا اسمعها تتنهد من وراء الجدار ، وعندما اخرج اليها لا اجد ما اقوله لها .
فقال اركادي :
– سوف تتألم هي كثيراً ، وهو ايضاً
– سأعود اليهما مرة اخرى .
– متى ؟
– في طريقي الى بطرسبورغ .
– انني متأسف لامك خصوصاً .
– ماذا ؟ هل اشترتك بالثمار ؟
غض اركادي بصره .
– انت لا تعرف امك جيداً يا يفغيني . فهي ليست امرأة رائعة فقط ، بل هي ذكية جداً في الواقع . تحدثت معي زهاء نصف ساعة صباح اليوم ، وكان حديثها حصيفاً ممتعاً .
– لا بد وانها تحدثت عني طوال الوقت ، أليس كذلك ؟

* منفى نابليون . – المترجم .

– لم يكن الحديث عنك وحدك .
– ربما . انت اعرف . وما دامت المرأة تستطيع ان تتجاذب اطراف الحديث طوال نصف ساعة فتلك دلالة حسنة . ومع ذلك سأرتحل .
– لن يكون سهلاً عليك ان تخبرهما بهذا النبأ . فهما يتحدثان دوماً عما سنفعله هنا بعد اسبوعين .
– ليس سهلاً . كيف اغواني الشيطان ان اتحرش بأبي هذا اليوم ؟ ! كان قد امر مؤخراً بضرب احد فلاحيه العاملين بالجزية ، وحسناً فعل . اجل ، اجل ، لا تنظر اليّ مستفظعاً ، حسناً فعل ، فذاك الفلاح لص وسكير رهيب ، لكن ابي لم يكن يتوقع مطلقاً باني سأسمع بذلك . لقد ارتبك اشد الارتباك ، اما انا فسوف اضطر الى ايلامه زيادة على ذلك . . . ولكن لا بأس ! هذا امر يمكن تحمله .
قال بازاروف «لا بأس !» ، ولكنه لم يتجرأ على اشعار فاسيلي ايفانوفيتش بنيته الا بعد مرور يوم كامل . فبعد ان ودعه اخيراً في المكتب قال بتثاؤبة متصنعة :
– آ . . . كدت انسى ان اقول لك . . . فليرسلوا خيولنا غداً الى فيدوت لتستريح عنده * .
دهش فاسيلي ايفانوفيتش :
– ماذا ؟ هل يغادرنا السيد كيرسانوف ؟
– اجل ، وانا معه .
تبدلت سحنة فاسيلي ايفانوفيتش في الحال :
– انت تنوي السفر ؟
– اجل . . . عليّ ان ارحل . ارجوك ان تأمرهم بخصوص الخيول .
فقال العجوز متلعثماً :
– حسناً . . . سنرسل الخيول لتستريح . . . حسناً . . . ولكن ، ولكن . . . كيف ذلك ؟
– عليّ ان ارحل اليه لوقت قصير . وسأعود الى هنا فيما بعد .

* بغية استخدامها فيما بعد بدلا من الخيول المتعبة في منتصف الطريق . – **المترجم** .



– اجل ! لوقت قصير . . . حسنـــاً – اخرج فاسيلـــي ايفانوفيتش منديله وتمخط منحنياً حتى كاد يلامس الارض – ما العمل ؟ سيكون ذلك . . . جاهزاً . ظننت انك ستبقى عندنا . . . امداً اطول . فان ثلاثة ايام . . . بعد ثلاث سنوات . . . شيء قليل ، قليل ، يا يفغيني !

– اقول لك اني سأعود قريباً . من الضروري ان ارحل .

– ما دام ذلك ضرورياً . . . فما العمل ؟ ينبغي اداء الواجب قبل كل شيء . . . اذن سنرسل الخيول ، أليس كذلك ؟ حسناً . بديهي اننا ، انا وآرينا ، لم نتوقع ذلك . فهي قد طلبت زهوراً من جارتها وارادت ان تزين غرفتك . (لم يذكر فاسيلي ايفانوفيتش شيئاً عن انه كان ينهض مع بزوغ الفجر كل صباح ويجتمع الى تيموفييتش ، وقوفاً ، ورجلاه في حذائه دون جوارب ، ويخرج باصابعه المرتعشة ورقة نقدية بالية اثر اخرى ، فيكلفه باقتناء مختلف المشتريات ، مؤكداً بصورة خاصة على الاطعمة والنبيذ الاحمر الذي اعجب به الشابان اشد الاعجاب كما يبدو .) الحرية اهم شيء . وتلك هي قاعدتي . . . فلا ينبغي التضييـــق على احد . . . لا . . .

وصمت فجأة ثم اتجه نحو الباب .

– سنلتقي قريباً ، يا ابني ، اعدك .

الا ان فاسيلي ايفانوفيتش لوح بيده يائساً وخرج دون ان يلتفت . عاد الى غرفة النوم فوجد زوجته في الفراش ، واخذ يصلي همساً كيلا يوقظها . لكنها استيقظت ، وسألته :

– هذا انت ، يا فاسيلي ايفانوفيتش ؟

– نعم ، ايتها الام !

– هل انت قادم من ينيوشا ؟ أتدري ؟ اخشى ان لا ينام نوماً هادئاً على الاريكة . طلبت من انفيسوشكا ان تفرش له حشيتك السفرية ووسائد جديدة . وبودي ان اعطيه حشيتنا الريش ، ولكنه ، على ما اتذكر ، لا يحب الفراش الوثير .

– لا تقلقي ، ايتها الام ، فهو مرتاح . يا الهي ، امح خطايانا واعف عنا . – واصل صلاته بصوت خفيض . لقد رأف فاسيلي ايفانوفيتش بعجوزه فلم يخبرها في الليل بالمصيبة التي ستلم بها .

سافر بازاروف واركادي في اليوم التالي . خيمت الكآبة على كل من في الدار منذ الصباح . كانت صحون قد تساقطت من يدي انفيسوشكا ، وحتى فيدكا تحير وانتهى الى ان خلع جزمته . كان فاسيلي ايفانوفيتش مضطرباً اكثر من اي وقت مضى : كان يتمالك نفسه على ما يبدو ، ويتكلم بصوت مرتفع ويطقطق برجليه ، لكن وجهه قد ذبل وذوى ، وصارت نظراته تتجنب ولده . انتحبت آرينا فلاسيفنا بخفوت ، وكادت تستسلم للحيرة وعدم ضبط النفس لدرجة اكبر لولا ان صرف زوجها في الصباح الباكر ساعتين كاملتين في اقناعها وتهدئتها. وبعد ان تخلص بازاروف ، اخيراً ، من اليدين اللتين طوقتاه ، وقطع وعوداً متكررة بانه سيعود في وقت لا يتجاوز الشهر مطلقاً ، وصعد الى العربة ، وتزحزحت خيولها ودق جرسها الصغير وتحركت عجلاتها ، ولم يعد هناك داع لملاحقتها بالنظرات ، فسكن الغبار الذي اثارته ، وعاد تيموفييتش محني الظهر كلياً يجر قدميه مترنحاً في مشيته الى غرفته الصغيرة ، وبعد ان ظل العجوزان وحيدين في دارهما التي بدت ، هي الاخرى ، منكمشة هرمة على نحو مباغت ، ارتمى فاسيلي ايفانوفيتش الذي كان قبل بضع لحظات يلوح بمنديله متماسكاً في مدخل الدار ، على الكرسي وتدلى رأسه على صدره وتمتم : «تركنا ، تركنا ، ضجر منا وبقي الآن وحيداً ، وحيداً ، كالاصبع !» — كرر هذا القول مراراً ، وكان كل مرة يدفع بيده الى الامام وسبابته منتصبة . وعند ذاك اقتربت منه آرينا فلاسيفنا ومالت برأسها الاشيب الى رأسه الاشيب ايضاً وقالت : «ما العمل يا فاسيلي ! الابن كسرة مقطوعة من رغيف . وهو كالصقر يحط متى شاء ويحلق متى شاء ، اما نحن فمثل نبتتين من الفطر عند تجويف في جذع شجرة ، نجلس جنباً الى جنب ولا نتزحزح من مكاننا . لكنني سأظل مخلصة لك الى الابد ، مثلما انت مخلص لي» .

رفع فاسيلي ايفانوفيتش يديه عن وجهه وعانق زوجته ورفيقة حياته بشدة لم يعانقها بمثلها حتى في زمن الشباب : فقد خففت عليه احزانه .

وصل صاحبانا الى فيدوت صامتين ، فلم يتبادلا الا كلمات لا شأن لها بين الحين والآخر . لم يكن بازاروف راضياً عن نفسه تماماً . وما كان اركادي راضياً عنه . زد على ذلك انه احس بكآبة لا مبرر لها تعتصر قلبه . وهي كآبة لا يعرفها الا من هم في ريعان الصبا . استبدل الحوذي الخيول وصعد الى مقعده وسأل : الى اليمين ام الشمال ؟

ارتعش اركادي . الطريق الى اليمين يؤدي الى المدينة ومنها الى داره . اما الطريق الى الشمال فيؤدي الى اودينتسوفا

التفت الى بازاروف وسأله :

– يفغيني ، الى الشمال ؟

فاشاح بازاروف بوجهه ودمدم :

– ما هذه الحماقة ؟

فاجاب اركادي :

– انا اعرف انها حماقة . لا ضير في ذلك . فهل هذه هي حماقتنا الاولى ؟

خفض بازاروف عمرته حتى غطت جزءاً من جبهته ، ثم قال اخيراً :

– كما تشاء .

فصاح اركادي :

– الى الشمال !

اسرعت العربة باتجاه نيكولسكويه . الا ان الصديقين اللذين قررا اقتراف تلك **الحماقة** قد صمتا بعناد اشد من السابق حتى لكأنهما حانقان .

ادركا من كيفية استقبال كبير الوصفاء لهما في مدخل دار اودينتسوفا انهما تصرفا بغير حكمة عندما انصاعا لفكرة راودتهما على حين غرة . فمن الواضح ان احداً ما لم يكن يتوقع قدومهما . انتظرا طويلا في غرفة الاستقبال واكتسى وجهاهما بمسحة من البلادة . واخيراً حضرت اودينتسوفا . رحبت بهما بلطفها المعتاد ، لكنها دهشت لعودتهما السريعة ، ولم تكن ، كما بدا من تباطؤ حركاتها ولهجتها ، في غاية السرور لذلك . واسرع الشابان للاعلان

بانهما عرجا عليها في طريقهما الى المدينة التي سيتوجهان اليها بعد زهاء اربع ساعات . فاكتفت هي بان تأوهت متعجبة بعض الشيء ورجت اركادي ان ينقل تحياتها الى ابيه وبعثت في طلب خالتها . حضرت الاميرة ناعسة ، مما اضفى مزيداً من الحنق على ملامح وجهها الهرم المتغضن . وكانت كاتيا متوعكة فلم تغادر غرفتها . احس اركادي فجأة بانه راغب في رؤية كاتيا كما في رؤية آنا سيرغييفنا سواء بسواء على اقل تقدير . انقضت الساعات الاربع في احاديث لا أهمية لها عن كيت وكيت ، وكانت آنا سيرغييفنا تستمع وتتكلم دون ان تبتسم . ولم تتحرك المشاعر الودية السابقة في فؤادها ، على ما يبدو ، الا خلال الوداع ، حيث قالت :

– انتابتني الكآبة في الآونة الاخيرة ، ولكن لا تهتما بذلك ، تعالا اليّ معاً بعد حين من الزمن .

رد عليها بازاروف واركادي بانحناءة صامتة ، وصعدا الى مركبتهما واتجها الى البيت في مارينو دون ان يتوقفا في ايما مكان . وصلا بسلام في مساء اليوم التالي . وطوال الطريق كله لم يذكر لا هذا ولا ذاك حتى اسم اودينتسوفا . ولم يفتح بازاروف على الخصوص فمه طوال الوقت تقريباً حيث راح يتطلع بقساوة متوترة الى جانبي الطريق .

سر الجميع في مارينو لوصولهما غاية السرور . فان غياب اركادي ذلك الامد الطويل اخذ يقلق نيكولاي بتروفيتش الذي هتف وطبطب برجليه وتقافز على الاريكة عندما ركضت اليه فينيتشكا بعينين براقتين واعلنت عن وصول «السيدين الشابين» . وحتى بافل بتروفيتش احس ببعض الاضطراب المفرح وابتسم متسامحاً وهو يشد على يدي الجوالين العائدين . وبدأت الاحاديث والتساؤلات . وتكلم اركادي اكثر من غيره وخصوصاً اثناء العشاء الذي استمر لامد طويل بعد منتصف الليل . امر نيكولاي بتروفيتش بتقديم بضع قنان من جعة البورتر المركزة التي جلبت لتوها من موسكو . وافرط هو في الشراب حتى غدت وجنتاه قرمزيتين وراح يضحك بقهقهة فيها شيء من ضحك الاطفال او الضحك العصبي . واجتاحت الفرحة الخدم ايضاً . فكانت دونياشا تتراكض الى هنا وهناك كالمهووسة ، وهي تصفق الابواب بين الحين والآخر . وحاول بيوتر ، حتى في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، ان

يعزف فالس القوزاق على القيثارة . كانت الاوتار تنوح بلطف في الجو الجامد ، ولكن الوصيف المتعلم لم يعزف اي شيء على ما يرام ما عدا بعض النغمات الاولية القصيرة : فالطبيعة لم تمنحه موهبة موسيقية ولا اية موهبة اخرى .

بيد ان الحياة في مارينو لم تكن تجري على نحو طيب تماما . كانت حالة نيكولاي بتروفيتش المسكين تسوء احياناً . وكانت الهموم في المزرعة تزداد من يوم لآخر ، وهي هموم مشوشة لا تبعث على السرور . وغدا التعامل مع الاجراء امراً لا يطاق . فالبعض منهم يطالبون بتصفية الحساب او زيادة الاجور ، بينما يترك البعض الآخر العمل مستأثرا بالعربون . كانت الخيول عرضة للامراض ، وعدتها تتلف بلمح البصر . كانت الاعمال تنفذ بدون اتقان ، واتضح ان الآلة الدارسة التي جلبت من موسكو غير صالحة بسبب ثقلها . اما الآلة الاخرى فقد اصابها العطب منذ تشغيلها للمرة الاولى . واحترق نصف حظيرة الماشية لان عجوزاً عمياء من الخدم خرجت اثناء هبوب الريح تحمل جذوة «لتدخين» بقرتها . . . غير ان هذه العجوز نفسها اكدت بان سبب المصيبة هو نية السيد في استحداث اجبان وألبان لا مثيل لها . وعلى حين غرة انتاب الكسل وكيل المزرعة حتى انه اخذ يترهل كما يترهل كل روسي يعيش في بحبوحة . وحالما يرى نيكولاي بتروفيتش قادماً من بعيد يلقي بخشبة على خنوص يمر راكضا قربه او يهدد غلاما شبه عار ، وذلك ليبين له جده واجتهاده ، لكنه فى الواقع كان ينام اكثر الاوقات . ولم يكن الفلاحون العاملون بالجزية يدفعون النقود في الموعد المحدد ، وكانوا يسرقون الاخشاب . وفى كل ليلة تقريبا كان الحرس يتصيدون خيول الفلاحين ترعى في مروج «المزرعة» ، واحيانا كانوا يقتادونها منهم بعراك . وقد فرض نيكولاي بتروفيتش غرامة نقدية على اتلاف المزروعات ، لكن الامور تنتهي عادة بان تصرف تلك الخيول يوما او يومين في حظيرة السيد ثم تعاد الى اصحابها . زد على ذلك ان الفلاحين اخذوا يتشاجرون فيما بينهم : صار الاخوة يطالبون بالتقسيم ، ولم تستطع زوجاتهم ان يتعايشن في منزل واحد ، وكان العراك ينشب بينهم فجأة ، فيعم هرج ومرج على حين غرة كما لو ان احداً قد امر بذلك ، ويهرع الجميع الى مدخل المكتب مندفعين الى السيد مخمورين

بوجوه مخدشة في الغالب وهم يطالبون بمحاكمة وعقاب . وترتفع ضجة وعويل وتختلط صأصأة النسوة المنتحبات بشتائم الرجال . كان يتعين الفصل بين الاطراف المتعادية ، ولا بد من الصياح حتى يبح الصوت مع ان الصائح يعلم مسبقاً انه لا يمكن التوصل الى حل صائب . لم تكن الايدي العاملة كافية لجمع الغلة : فالفلاح الغني الوسيم المجاور وعد بان يحضر الحصادين مقابل روبلين عن كل هكتار ، ولكنه خدع نيكولاي بتروفيتش بدناءة . وطلبت فلاحات السيد اجوراً مرتفعة للغاية ، بينما اخذ القمح يتناثر من السنابل . اخفق الحصاد ، في حين صار مجلس الوصاية يهدد ويطالب بدفع الفائدة المئوية بالتمام والكمال فوراً . . .

كان نيكولاي بتروفيتش يكرر بقنوط :

— خارت قواي ! ليس بوسعي ان اعارك ، ولا استطيع الاستنجاد بالشرطة ، فالمبادئ تحول دون ذلك . بينما لن ينجز احد شيئا بدون الخوف من العقاب !

— (هدوءا ، هدوءا) * — كان بافل بتروفيتش يجيبه ، ولكنه هو نفسه يدمدم ويعبس وينتف شاربيه .

اما بازاروف فكان بعيداً عن هذه «المشاحنات» ، بل وما كان مضطراً ، كضيف ، ان يتدخل في شؤون الغير . فمنذ اليوم التالي لوصوله الى مارينو انهمك بمعالجة ضفادعه ونقاعياته ومستحضراته الكيمياوية وصرف الوقت كله في ذلك . في حين رأى اركادي ، على العكس ، ان من واجبه ان يساعد اباه او ان يتظاهر على الاقل بالاستعداد لمساعدته . كان يستمع اليه بصبر ، وقدم له ذات مرة نصيحة لا لكي يعمل بها احد ، بل لكي يعلن عن مساهمته بشكل ما . ولم يكن تدبير امور المزرعة ليثير اشمئزازه : فهو يحلم ، بارتياح ، بممارسة النشاط الزراعي . بيد ان افكارا اخرى شغلت باله آنذاك . كانت افكار اركادي ، ويا لدهشته هو ، تحوم طوال الوقت حول نيكولسكويه . كان في السابق يكتفي بهز الكتفين لو ان احدا قال له بانه يمكن ان يشعر بالضجر من العيش مع بازاروف تحت سقف واحد ، ناهيك عن سقف الوالدين . اما الآن فقد غدا ضجرا حقا ، وصار شيء

* في الاصل بالفرنسية Du calme, du calme .

ما يدعوه الى بعيد . قرر ان يتمشى حتى الارهاق ، لكن ذلك لم يجده نفعاً . تحدث مع ابيه نيكولاي بتروفيتش ذات مرة فعلم ان لديه بضع رسائل ممتعة جدا كانت قد بعثت بها ام اودينتسوفا الى المرحومة زوجته منذ زمان بعيد ، ولم يتركه وشأنه الا بعد ان تسلم منه تلك الرسائل التي اضطر نيكولاي بتروفيتش على التفتيش عنها في زهاء عشرين من الادراج والصناديق المختلفة . وعندما غدا اركادي مالكا لهذه الوريقات البالية استقر بعض الشيء كما لو تراءى له الهدف الذي يتعين عليه بلوغه . وصار يهمس بلا كلل «لقد قالت بنفسها : تعالا الي معـــا . . . سأسافر ، سأسافـــر ، وليكن ما يكون !» . لكنـــــه يتذكر الزيارة الاخيرة والاستقبال الفاتر وارتباكه السابق فيعتريه الوجل . واخيرا سيطرت عليه «عسى ولعل» ورغبة الشباب الخفية في تذوق طعم سعادته وتجربة قواه على انفراد بدون اية وصاية مهمـــا كان مصدرها . لم تمض على عودته الى مارينو عشرة ايام حتى عاد من جديد الى المدينة ، بحجة دراسة نظام مدارس الآحاد (١٠١) ، ومن هناك عرج على نيكولسكويه . كان يستعجل الحوذى بلا انقطاع وهو ينهب الدرب الى هناك كضابط شاب توجه الى المعركة : كان مرتعبا مرحا . وهو ينتظر الوصول بفارغ الصبر . ويؤكد لنفسه «الامر الاهم هو ان لا افكر بشيء» . وقد وقع اختياره على حوذى مغوار ، كان يتوقف امام كل حانـــة قائلا : «هل نتجرع ؟» او «فلنتجرع !» ، ولكنه بعد ان «يتجرع» لا يعود يرأف بالجياد . وها قد لاح اخيرا السقف العالي لتلك الدار المعروفة . . . وفكر اركادي على الفور : «ماذا فعلت ؟ ولكن لا مجال للعودة !» . وراحت الخيول الثلاث تنهب الدرب بوئام والحوذي يستحثها بصفيره . ها هو الجسر الصغير قد جلجل تحت السنابك والعجلات ، وها هو ممشى اشجار الشوح الحليقة المقلمة . . . ومرق فستان نسائي وردي وسط الخضرة الداكنة وتطلع وجه فتي من تحت اهداب مظلة خفيفة . . . انها كاتيا ، عرفها وعرفته . امر اركادي الحوذى بوقف الخيول المنطلقة ، فقفز من المركبة واقترب منها . فقالت بعد ان احتقن وجهها كله بالتدريج : «هذا انت ! فلنذهب الى اختي ، انها هنا ، في البستان . وسوف تسر لرؤيتك»» .

اقتادت كاتيا اركادي الى البستان . وكان اللقاء معها فألا

حسنا جدا كما خيل اليه ، فقد سر لها كما لو كانت من اهله . وجرت الامور على اروع ما يكون : بدون كبير الوصفاء وبدون مراسيم . ففي منعطف الممشى لمح آنا سيرغييفنا التي كانت واقفة وظهرها اليه . وعندما سمعت الخطى استدارت بهدوء .

كاد اركادي يرتبك من جديد ، الا ان اولى الكلمات التي فاهت بها جعلته يهدأ في الحال . «مرحبا ، ايها الهارب !» — قالت بصوتها المتناسق الحنون وتوجهت للقائه باسمة بعينين شبه مغمضتين من الشمس والريح : «اين عثرت عليه يا كاتيا ؟» . فبدأ هو كلامه :

— جئت اليك ، يا آنا سيرغييفنـــا ، بشيء لا تتوقعينـــه ابدا . . .

— جئت اليّ بنفسك ، وهذا افضل شيء .

٢٣

كان بازاروف قد ودع اركادي متأسفا متهكما ولمح له بانه لا يمكن ان يخدع قيد انملة بخصوص الهدف الحقيقي لهذه الزيارة ، ثم اعتكف نهائيا ، حيث انتابته حمى العمل . لم يعد يتجادل مع بافل بتروفيتش ، لاسيما وان هذا صار يتخذ بحضوره هيئـــة ارستقراطية مفرطة ويعرب عن آرائه باصوات متقطعة اكثر مما بكلمات . ومرة واحدة فقط كاد بافل بتروفيتش ينخرط في مساجلة مع النهلستي بصدد المسألة الشائعة آنذاك عن حقوق نبلاء منطقة البلطيق (١٠٢) ، لكنه توقف فجأة وقال بتأدب فاتر :

— على كل حال ، ليس بوسعنا ان نفهم بعضنا بعضا . فانا ، على اقل تقدير ، عاجز عن ان اتشرف بفهمك .

— كيف لا ؟ ! — هتف بازاروف — الانسان قادر على فهم كل شيء حتى اختلاج الاثير وما يحدث على الشمس ، لكنه عاجز عن ان يفهم كيف يتمخط انسان آخر بشكل يختلف عن تمخطه هو .

فقال بافل بتروفيتش متسائلا :

— هل هذا شيء ظريف ؟ — وانزوى جانبا . بيد انه كان في بعض الاحيان يستأذن من بازاروف لحضور تجاربه . حتى انه

ذات مرة قرّب وجهه المعطر والمضمخ بعقاقير ممتازة من المجهر لكي يرى كيف التهمت نقاعية شفافة ذرة خضراء وانشغلت بمضغها بواسطة قبضات صغيرة ورشيقة جدا موجودة في حلقومها . الا ان نيكولاي بتروفيتش اكثر من اخيه ترددا على بازاروف . كان بوده ان يحضر كل يوم «للتعلم» ، على حد تعبيره ، لو لا مشاغل المزرعة التي تلهيه . ولم يكن يضايق الباحث الشاب ، فهو ينزوي في احد اركان الحجرة ويتطلع بانتباه ، ونادرا ما يسمح لنفسه بطرح سؤال متهيب . وكان يسعى اثناء تناول طعام الغداء والعشاء الى توجيه الكلام نحو الفيزياء والجيولوجيا والكيمياء ، وذلك لان جميع الامور الاخرى ، حتى ما يتعلق منها بشؤون المزرعة ، ناهيك عن المسائل السياسية ، يمكن ان تؤدي الى عدم ارتياح الطرفين ، ان لم نقل الى الصدامات بينهما . وقد خمن نيكولاي بتروفيتش ان حقد اخيه على بازاروف لم يتقلص قيد شعرة . ثم ان حادثة تافهة ، من بين الحوادث العديدة الاخرى ، قد اكدت تخمينه هذا . اخذت الكوليرا تظهر في بعض الاماكن المجاورة ، بل و«انتزعت» اثنين من سكان مارينو نفسها . وذات ليلة تعرض بافل بتروفيتش لنوبة شديدة . تعذب حتى الصباح ولكنه لم يلجأ الى خدمات بازاروف . وعندما رآه في اليوم التالي وسأله بازاروف «لماذا لم يرسل في طلبه ؟» اجابه ، وهو لا يزال شاحبا كليا ، ولكنه تنظف جيدا وحلق ذقنه : «الم تقل بنفسك ، على ما اتذكر ، انك لا تؤمن بالطب ؟» . مرت الايام على هذا المنوال . وكان بازاروف يعمل بمثابرة وتجهم . . . في حين تضم دار نيكولاي بتروفيتش كائنا بوسعه ان يروح عن بازاروف همومه ، وعلى الاصح ان يتجاذب معه اطراف الحديث بسرور . . . وهذا الكائن هو فينيتشكا .

كان يتقابل معها في اغلب الحالات اثناء الصباح الباكر في البستان او في الباحة . لم يكن يتردد على غرفتها . ولم تكن هي تقترب من غرفته الا مرة واحدة سألته فيها عند الباب عما اذا كان يتعين عليها ان تغسل ميتيا ام لا ؟ كانت تثق به ، ولا تخشاه ، بل كانت تتصرف بحضوره دون تكلف وبطلاقة اكثر مما بحضور نيكولاي بتروفيتش نفسه . ومن الصعب معرفة السبب في ذلك . لعلها كانت تحس بصورة لاشعورية ان بازاروف خال مما

يميز النبلاء ، من كل ما هو رفيع يستهويها ويخيفها في الوقت ذاته . لقد كان هو في انظارها طبيبا ممتازا وانسانا بسيطا سواء بسواء . كانت لا تشعر بالضيق من وجوده وهي تدارى طفلها . ذات مرة اخذ الدوار برأسها فجأة واصابها الصداع فتلقت من يده ملعقة الدواء . كانت ، بحضور نيكولاي بتروفيتش ، كالغريبة على بازاروف : ولم تكن تفعل ذلك بسبب الدهاء بل بشعور من اللياقة لا اكثر . وصارت تخشى بافل بتروفيتش اكثر من اي وقت مضى . فقد اخذ منذ حين يراقبها ويظهر بغتة وراء ظهرها كما لو انفطرت عنه الارض ببدلته الانجليزية ووجهه العبوس الجامد ويديه المخبأتين في جيبيه . ولقد تشكت فينيتشكا الى دونياشا قائلة : «تنتابني الرجفة منه» . فاجابت دونياشا بتنهدة وراحت تفكر بانسان آخر «خال من العواطف» . لقد غدا بازاروف ، دون علم منه ، طاغية قاسيا سيطر على فؤادها .

كانت فينيتشكا معجبة ببازاروف ، وكان هو معجبا بها ، حتى ان سحنة وجهه تتغير عندما يتحدث اليها : فتكتسب تعبيرا صافيا يكاد يكون طيبا ، ويختلط باهماله المعتاد شيء من الاهتمام الملفع بالفكاهة . كانت فينيتشكا تزداد جمالا من يوم لآخر . ففي حياة النساء الشابات تصادف مرحلة يبدأن فيها بالازدهار والتفتح كورود الصيف . وقد حلت هذه المرحلة بالنسبة لفينيتشكا . فكل شيء يساعد على ذلك ، حتى قيظ يوليو الذي خيم آنذاك . كانت ترتدي فستانا خفيفا ابيض تبدو فيه اكثر بياضا وخفة . ولم تكن السمرة لتعلق ببشرتها ، في حين صبغ الحر الذي لم تستطع ان تحتمي منه وجنتيها واذنيها بالحمرة ، واضفى على جسدها كله سكونا هادئا وصار ينعكس في عينيها الجميلتين بشكل فتور ناعس . لم تعد قادرة على ممارسة ايما عمل تقريبا ، كانت يداها تكادان تلتصقان بركبتيها . وكادت تكف عن المشى ، فصارت تتأوه وتتشكى بعجز لعوب .

كان نيكولاي بتروفيتش يقول لها :

— من الافضل ان تستحمي كثيرا .

انشأ مسبحا واسعا فوقه ظلة من قماش سميك في واحدة من بركه التي لم ينضب ماؤها بعد .

— آه ، يا نيكولاي بتروفيتش ! يموت الانسان قبل ان يصل

الى البركة ، وعندما يعود منها يموت ايضا . فالبستان خال من الظلال .

– حقا ، ليست هناك ظلال – يجيبها نيكولاي بتروفيتش ويمسح حاجبيه .

ذات مرة ، عاد بازاروف من جولته في الساعة السابعة صباحا فوجد فينيتشكا في تعريشة الليلاك التي ذوت زهورها من زمان ، لكنها ظلت كثيفة خضراء . كانت جالسة على المصطبة وقد لفت رأسها ، كعادتها ، بمنديل ابيض ، وقربها حزمة كبيرة من ورود حمراء وبيضاء لا تزال ندية . حياها فقالت :

– آ ! يفغيني فاسيليفيتش !

ورفعت طرف منديلها لكي تلقي نظرة عليه فتعرت يدها حتى المرفق .

– ماذا تفعلين هنا ؟ تضفرين باقة ؟ – سأل بازاروف وجلس قربها .

– اجل ، باقة لمائدة الفطور . نيكولاي بتروفيتش يحب ذلك .

– الفطور لا يزال بعيدا . ما اكثر هذه الورود !

– قطفتها الآن ، لان من الصعب الخروج فيما بعد بسبب الحر . فالآن فقط يمكن ان نتنسم الهواء . اصابني ضعف شديد من هذا الحر . واخشى ان امرض بسببه .

– ما هذه الاوهام ؟ ! دعيني اجس نبضك – التقط بازاروف يدها وبحث عن العرق فوجده يدق بانسجام حتى انه لم يحسب دقاته . ثم قال :

– ستعيشين مائة عام .

– آه ، الله يستر ! – هتفت فينيتشكا .

– لماذا ؟ الا تريدين ان تعيشي طويلا ؟

– مائة عام ! هذا كثير ! جدتنا بلغت الخامسة والثمانين ، فما كان اعظم آلامها ! غدت سوداء صماء حدباء تسعل طوال الوقت . كانت عالة على نفسها . فما نفع هذه الحياة ؟ !

– تفضلين البقاء شابة ، أليس كذلك ؟

– والا فما الداعي لذلك ؟

– ما هي افضلية الشباب ؟ خبريني !

– كيف ؟ فأنا الآن شابة استطيع ان افعل كل شيء بنفسي ،

اروح واغدو واحضر ما يلزم ولا احتاج الى طلب المعونة من احد . . . فهل هناك افضل من ذلك ؟

– اما انا فسيان لدي شابا كنت ام شيخا .

– كيف تقولون سيان ؟ ما تقولونه امر مدهش .

– احكمي بنفسك يا فينيتشكا ، ما نفع فتوتي ؟ انني اعيش وحيدا ، اعزب . . .

– ذلك يتوقف عليكم دوما .

– ليس عليّ . . . تلك هي القضية ! حبذا لو رأف احد بحالي .

القت فينيتشكا نظرة جانبية على بازاروف ولم تقل شيئا . وبعد فترة صمت سألته :

– ما هذا الكتاب الذي معكم ؟

– هذا ؟ كتاب علمي معقد .

– هل تدرسون طوال الوقت ؟ الا يضجركم ذلك ؟ يخيل اليّ انكم تعرفون كل شيء .

– ليس كل شيء ، على ما يبدو . هاك ، اقرأي قليلا .

– لن افهم من ذلك ذرة . هل هو كتاب روسي ؟ – سألت فينيتشكا وهي تتلقى بيديها المجلد الثقيل – ما اثقله !

– روسي .

– لن افهم منه شيئاً مع ذلك .

– لا اقصد بان تفهمي . اريد فقط ان اتطلع اليك عندما تقرأين . فاثناء ذلك تتحرك ارنبة انفك بشكل لطيف جدا .

ضحكت فينيتشكا وتركت الكتاب بعد ان كانت قد تهيأت لتقرأ بصوت خافت المقالة التي فتحته عليها وهي عن «خلاصة القطران» . . . فانزلق الكتاب من المصطبة الى الارض . فقال بازاروف :

– يعجبني كذلك ان اراك تضحكين .

– ماذا تقولون ؟

– ويعجبني ان اسمعك تتكلمين ، كخرير جدول .

اشاحت فينيتشكا بوجهها . ثم قالت وهي تمس الورود باصابعها :

— ما حاجتكم الى الاستماع اليّ ؟ لقد دارت احاديث بينكم وبين نساء نبيلات ذكيات .

— آه ، يا فينيتشكا ، صدقيني ان كل النبيلات الذكيات في العالم لا يساوين مرفقك .

— ماذا تقولون ؟ — همست فينيتشكا وضغطت يديها الى بدنها .

رفع بازاروف الكتاب من الارض .

— هذا كتاب طبي ، لماذا القيت به ؟

— طبي ؟ — سألت فينيتشكا واستدارت نحوه — هل تعلمون ؟ ميتيا ينام نوما هانئا منذ ان اعطيتموني تلك القطرات ، هل تذكرون ؟ لا ادري كيف اشكركم على ذلك . ما اطيبكم !

فقال بازاروف ساخرا :

— في الحقيقة ينبغي الدفع للاطباء . فهم ، كما تعلمين ، اناس نفعيون .

رفعت فينيتشكا الى بازاروف عينيها فبدتا اكثر سوادا بسبب الانعكاس الضارب الى البياض والذي وقع على القسم العلوى من وجهها . ولم تكن تعرف ما اذا كان جادا ام مازحا .

— اذا اردتم فنحن على كل استعداد . . . ساطلب من نيكولاي بتروفيتش . . .

— تظنين باني اريد نقودا ؟ — قاطعها بازاروف — كلا ، انني اريد منك شيئا غير النقود .

— ماذا اذن ؟ — سألت هي .

— ماذا ؟ احزري — قال بازاروف .

— كيف لي ان احزر ؟ !

— اذن فسأقول لك . انني اريد . . . واحدة من هذه الورود

ضحكت فينيتشكا من جديد حتى انها ضربت كفا على كف . فقد بدت لها امنية بازاروف مسلية للغاية . كانت تضحك وتشعر في الوقت نفسه بان ذلك اطراء لها . وكان بازاروف يحدق فيها . وقالت اخيرا بعد ان انحنت على المصطبة وراحت تنتقي الورود :

— تفضلوا ، تفضلوا ، اية وردة تريدون حمراء ام بيضاء ؟

— حمراء وغير كبيرة جدا .

عدلت من قامتها وقالت :

— خذوا .

ولكنها سرعان ما سحبت يدها الممدودة وعضت على شفتيها ونظرت الى مدخل التعريشة ثم اخذت تتسمع . فسأل بازاروف :

— ماذا ؟ هل هو نيكولاي بتروفيتش ؟

— كلا . . . ذهب الى الحقل . . . ثم انني لا اخشاه . . . ولكن بافل بتروفيتش . . . خيل اليّ . . .

— ماذا ؟

— خيل اليّ انه هو الذي يتمشى هنا . كلا . . . لا احد . خذوا — سلمت فينيتشكا الوردة الى بازاروف .

— لماذا تخافين من بافل بتروفيتش ؟

— انه يخيفني دوما . لا يقول شيئا ولكنه ينظر اليّ بغموض . ثم انكم ايضا لا تحبونه . هل تذكرون كيف كنتم في السابق تتجادلون معه . لا ادرى عم كنتم تتجادلون ولكني رأيت كيف تتلاعبون به هكذا ، ثم هكذا . . .

اومأت فينيتشكا بيديها الى كيفية تلاعب بازاروف ببافل بتروفيتش ، كما خيل اليها .

ضحك بازاروف ثم سألها :

— لو فرضنا انه تفوق عليّ فهل كنت ستدافعين عني ؟

— كيف لي ان ادافع عنكم ؟ كلا ، لن يقوى عليكم احد .

— حقا ؟ اما انا فاعرف يدا تستطيع ان تقهرني باصبع واحد اذا ارادت .

— اية يد هذه ؟

— الا تعرفينها ؟ شمي هذه الوردة التي اعطيتنيها .

اشرأبت فينيتشكا وقربت وجهها من الوردة . . . انزلق المنديل من رأسها على الكتفين ، ولاح خضم ناعم من الشعر الاسود اللامع المشعث بعض الشيء .

— تمهلي ، اريد ان اشمها معك — قال بازاروف وانحنى عليها فطبع قبلة شديدة على شفتيها المتفتحتين . ارتعدت ، وانشبت كلتا يديها في صدره ، لكن مقاومتها كانت ضعيفة فتسنى له ان يكرر قبلته ولامد اطول .

تعالى سعال جاف من وراء الليلاك . ابتعدت فينيتشكا الى طرف المصطبة الآخر بلمح البصر . وبان بافل بتروفيتش فانحنى قليلا

وقال بكآبة حاقدة «انتما هنا» ، ثم ابتعد . التقطت فينيتشكا كل الورود في الحال وخرجت من التعريشة هامسة : «حرام يا يفغيني فاسيليفيتش» . ورنت في همسها ملامة غير منفعلة .

تذكر بازاروف المشهد الاخر مع اودينتسوفا فأنبه ضميره وشعر بكآبة وبشيء من الاحتقار . لكنه نفض رأسه على الفور وهنأ نفسه ساخرا «على الانتماء الرسمي الى سلك العشاق» وتوجه الى غرفته .

اما بافل بتروفيتش فقد خرج من البستان ووصل الى الغابة بخطاه المتباطئة . ظل هناك امدا طويلا ، وعندما عاد لتناول الفطور سأله نيكولاي بتروفيتش بكل اهتمام عن صحته . فقد غدا وجهه في غاية القتامة . واجاب بافل بتروفيتش بهدوء :

– انت تعلم باني اعانى احيانا من داء الصفراء .

٢٤

بعد زهاء ساعتين طرق بافل بتروفيتش باب بازاروف .

– استميحك عذرا لاني الهيك عن مشاغلك العلمية – قال وجلس على كرسي قرب النافذة واستند بكلتا يديه الى عصا ذات مقبض من العاج (وهو يتمشى عادة بدون تلك العصا) – لكنني مضطر لاستعطافك بان تخصص لي من وقتك خمس دقائق . . . لا اكثر .

– وقتي كله في خدمتك – اجاب بازاروف وقد تبدلت سحنته حالما اجتاز بافل بتروفيتش عتبة بابه .

– تكفيني خمس دقائق . جئت لاطرح عليك سؤالا .

– عم ، يا ترى ؟

– تفضل واستمع . اول ما حللت انت في دار اخي ، عندما لم اكن قد حرمت نفسي من متعة التحدث معك ، تعين عليّ ان استمع الى محاججاتك بشأن العديد من الاشياء ، ولكن الكلام ، بقدر ما اتذكر ، لم يتناول بيننا ولا بحضوري ابدا مسألة المنازلات ، والمبارزة عموما . فاسمح لي ان اعرف رأيك بهذا الخصوص .

كان بازاروف الذي نهض لاستقبال بافل بتروفيتش في

البداية قد جلس على طرف الطاولة وكتّف يديه . فقال :

– اليك رأيي . المبارزة سخافة من الناحية النظرية . ولكنها شيء آخر من الناحية العملية .

– يعني تريد ان تقول ، اذا كنت قد فهمتك جيدا ، انك لن تسمح لاحد في الواقع بان يهينك دون ان تطالب بمبارزته بالرغم من رأيك النظري بهذا الخصوص ، اليس كذلك ؟

– لقد حزرت فكرتي تماما .

– حسنا جدا يا سيدي . يسرني كل السرور ان اسمع ذلك منك . كلماتك تنقذني من المجهول .

– تريد ان تقول : من التردد .

– الامر سيان يا سيدي . انني اتكلم بالشكل الذي يفهمني به الآخرون . فأنا . . . لست من جرذان المدارس والكليات . كلماتك تحررني من بعض الضروريات المحزنة . لقد صممت على ان اتبارز معك .

جحظت عينا بازاروف :

– معى انا ؟

– معك بالذات .

– معذرة ، لأي سبب ؟

فواصل بافل بتروفيتش كلامه :

– بوسعي ان اوضح لك السبب ، ولكنني افضل السكوت عليه . انك برأيي ، شخص نافل هنا . وانا لا اطيق وجودك ، انني احتقرك . واذا كان ذلك لا يكفيك . . .

لمعت عينا بافل بتروفيتش . . . والتهبت عينا بازاروف ايضا ، فقال مدمدما :

– حسنا جدا يا سيدي . لا داعى للمزيد من التوضيح . لقد راودك وهم بان تجرب عليّ فروسيتك . وبوسعي ان ارفض منحك هذه المتعة ، ولكن لا بأس ، فليكن !

– انني ممتن لك كل الامتنان . – اجاب بافل بتروفيتش – ويمكنني الآن ان آمل بانك تتقبل التحدي دون ان تحملني على اللجوء الى اجراءات العنف .

– اي اللجوء الى هذه العصا ، اذا تكلمنا بدون مجاز ، اليس كذلك ؟ – سأل بازاروف ببرود – ذلك عين الصواب .

فليس هناك مطلقا ما يدعوك الى اهانتي . ثم ان ذلك ليس بدون مخاطر . بوسعك ان تظل جنتلمانا . . . وانا اتقبل تحديك كما يفعل الجنتلمان ايضاً .

– حسناً – قال بافل بتروفيتش ووضع العصا في ركن الغرفة – سنذكر الآن بضع كلمات بشأن شروط مبارزتنا ، ولكن بودي ان اعرف اولا ما اذا كنت ترى ضرورة للجوء الى شكليات الخصام البسيط الذي يمكن ان يغدو حجة للتحدى .

– كلا . الافضل بدون شكليات .

– وانا من هذا الرأي ايضاً . ويخيل اليّ كذلك ان لا داعي للتعمق في الاسباب الحقيقية لنزاعنا . فنحن لا نطيق بعضنا البعض . فهل من داع الى المزيد ؟ !

– حقا ، هل من داع الى المزيد ؟ ! – كرر بازاروف متهكما .

– اما بخصوص شروط المبارزة ، فبحكم عدم وجود شاهدين لدينا . . . من اين لنا العثور عليهما ؟

– اجل ، من اين لنا العثور عليهما ؟

– . . . فانني اتشرف بان اقترح عليك ما يلي : نتبارز غدا في وقت مبكر ، في السادسة مثلا ، وراء الاجمة ، بمسدسين وعلى مسافة عشر خطوات . . .

– عشر خطوات ؟ يعني اننا نحقد على بعضنا البعض بقدر هذه المسافة .

– من الممكن ثماني خطوات – قال بافل بتروفيتش .

– ممكن . لم لا ؟ !

– نطلق الرصاص مرتين ، وتحوطا للطوارئ يضع كل منا في جيبه رسالة يلقي فيها على نفسه مسؤولية وفاته .

– ذلك ما لا اوافق عليه تماما – قال بازاروف – انه يشبه الروايات الفرنسية . ولا يطابق الواقع .

– ربما . ولكن ليس من المريح التعرض لتهمة القتل ، اليس كذلك ؟

– اجل . ولكن هناك وسيلة لتلافى هذه الملامة الكئيبة . لن يكون لدينا شاهدان رسميان ، ولكن من الممكن احضار شاهد عادي واحد .

– من هو يا ترى ؟

– بيوتر .

– اي بيوتر هذا ؟

– وصيف اخيك . انه شخص ارتقى الى مستوى التعلم العصري ، وهو يؤدي واجبه بكل ما تتطلبه هذه الحالات من لياقة .

– يخيل اليّ انك تمزح يا سيدي الجليل .

– ابدا . اذا ناقشت اقتراحي ستتأكد من انه اقتراح وجيه وبسيط . فتلك مسألة لا يمكن اخفاء آثارها . اما بيوتر فأتعهد باعداده بالشكل اللازم وايصاله الى ساحة المعركة .

– انك لا تزال تمزح – قال بافل بتروفيتش ناهضا – ولكن بعد الاستعداد الذي ابديته متفضلا لا يحق لي ان اعترض عليك . . . وهكذا دبرنا كل شيء . . . وبالمناسبة هل لديك مسدسان ؟

– من اين لي ، يا بافل بتروفيتش ؟ فانا لست عسكريا .

– اذن اقترح ان نستخدم مسدسيّ . وكن على ثقة بانني لم استعملهما منذ خمس سنوات .

– هذا نبأ يبعث على السرور لدرجة كبيرة .

التقط بافل بتروفيتش عصاه . . .

– لا يتبقى عليّ ، ايها السيد الجليل ، بعد ذلك الا ان اشكرك واتركك تعود الى اشغالك . يشرفني ان انحنى مودعا .

– الى لقاء سعيد ، يا سيدي الجليل – قال بازاروف مودعا ضيفه .

خرج بافل بتروفيتش ، فوقف بازاروف امام الباب لحظة ، ثم هتف فجأة : «تفو ! يا للشيطان ! ما اجمل ذلك وما اغباه ! اية ملهاة مثّلنا ؟ ! الكلاب المدربة ترقص على قوائمها الخلفية بهذا الشكل . وما كان بالامكان الرفض ، فلربما سولت له نفسه ان يضربني ، وعند ذاك . . . (شحب لون بازاروف لهذه الفكرة ، وفارت فيه عزة النفس) . عند ذاك سأكون مضطرا الى خنقه كقط صغير» . عاد الى مجهره ، لكن قلبه يتفطر ، وفارقه الهدوء اللازم للمراقبة والبحث .

وفكر في نفسه : «لقد رآنا اليوم ، ولكن هل يدافع عن اخيه حقا ؟ ثم ما اهمية القبلة ؟ لا بد وان هناك سببا آخر . يا الهي ! اليس هو مغرما بها ؟ ! بالطبع ، بالطبع . امر واضح وضوح

النهار . ما احرج الموقف ! شيء فظيع ! فظيع من كل الوجوه . ينبغي ان اعرض جبيني للرصاص ، وان اسافر على كل حال . هذا اولا . ثم هناك اركادي . . . وهذا الحمـــل الوديـــع نيكولاي بتروفيتش . شيء فظيع ، فظيع» .

مر النهار بهدوء باهت اكثر من المعتاد . واختفى اثر فينيتشكا وكأنما لم تكن موجودة في هذا العالم . قبعت في غرفتها كفأرة في جحر . وبدا نيكولاي بتروفيتش مهموما . فقد ورده نبأ ظهور داء السناج في قمحه الذي علق عليه آماله بخاصة . وكان بافل بتروفيتش بمجاملته الجليديـــة ثقيلا على الجميع ، حتى على بروكوفيتش . بدأ بازاروف بتحرير رسالة الى ابيه ، ولكنه مزقها والقى بها تحت الطاولة . وفكر في نفسه «اذا مت فسوف يعلمان . ولكنني لن اموت . فسوف اجول طويلا في هذا العالم» . طلب من بيوتر ان يأتي اليه عند بزوغ فجر الغد من اجل قضية هامة . وتصور بيوتر ان بازاروف يريد ان يصطحبه الى بطرسبورغ . خلد بازاروف الى النوم في ساعة متأخرة ، واخذت احلام مشوشة تعذبه طوال الليل . . . كانت اودينتسوفا تدور امامه ، وكانت هي امه في الوقت نفسه ، وتبعتها قطة ذات شوارب سوداء ، وهذه القطة هي فينيتشكا . وبدا له بافل بتروفيتش بشكل دغل كثيف عليه ان يتبارز معه من كل بد . ايقظه بيوتر في الرابعة صباحا ، فارتدى ملابسه على الفور وخرج معه .

كان الصباح منعشا رائعا . وكانت سحابات صغيرة متموجة تتناثر على زرقة صافية شاحبة ، واستقر ندى رقيق على الاوراق والاعشاب وبيوت العناكب وصار يلمع كالفضة . لاحت الارض الندية القاتمة وكأنها تحتفظ باثار الفجر الحمراء ، وكانت اغاريد القبرات تصدح من كل ارجاء السماء . بلغ بازاروف الاجمة فجلس في الظل على طرفها ، وعند ذاك فقط كشف لبيوتر عن الخدمة التي ينتظرها منه . ارتعب الوصيف حتى الموت ، ولكن بازاروف هدأ من روعه مؤكدا له بانه ليس عليه الا ان يقف بعيدا ويتطلع ، وبانه لا يتحمل اية مسؤولية . واضاف قائلا : «ولكن فكر انت ، اي دور هام ستضطلع به !» . اشار بيوتر بيديه اشارة يائسة واطرق برأسه ممتقعا شاحبا واستند الى جذع بتولا .

الطريق من مارينو يلتف حول الغابة الصغيرة ، وهو مغطى

بغبار خفيف لم تمسه عجلة ولا رجل منذ يوم امس . كان بازاروف ينظر عفويا الى طول هذا الطريق ويقتلع عشبا ويقضمه ويفكر في نفسه مكررا : «يا للغباوة !» . وجعله برد الصباح يرتعش مرتين او ثلاثا . . . نظر اليه بيوتر بكآبة ، فاكتفى بازاروف بابتسامة ساخرة : فهو ليس جبانا .

تهادى وقع سنابك على الطريق . . . ولاح فلاح من وراء الاشجار . كان يقود حصانين معقلين امامه . وعندمـــا مر قرب بازاروف نظر اليه نظرة غريبة دون ان يرفع قبعته ، الامر الذي حير بيوتر باعتباره فألا غير حسن . وفكر بازاروف في نفسه «لقد نهض هذا مبكرا ايضا ، ولكنه على الاقل من اجل العمل . اما نحن فلاي غرض ؟» .

— يخيل اليّ انه قادم ، يا سيدي — همس بيوتر فجأة .

رفع بازاروف رأسه فرأى بافل بتروفيتش في سترة خفيفة مخططة بمربعات وسروال ناصع كالثلج . كان يسير مسرعا في الطريق ، وقد تأبط صندوقا مغلفا بقماش اخضر .

— معذرة ، فقد جعلتكما تنتظران على ما اظن ، — قال منحنيا لبازاروف في البداية ، ثم لبيوتر الذي غدا في تلك اللحظة يحترم فيه شيئا من قبيل الشاهد — ما اردت ايقاظ وصيفي .

— لا بأس . لقد وصلنا نحن ايضاً للتو — اجاب بازاروف .

— آ ! حسنا ! — تلفت بافل بتروفيتش حواليه — لا احد هناك . لن يعيقنا احد . . . هل نبدأ ؟

— اجل .

— اعتقد انك لا تطالب بايضاحات جديدة ؟

— كلا .

— هل تريد ان تشحنهما ؟ — سأل بافل بتروفيتش وهو يخرج المسدسين من الصندوق .

— كلا . اشحنهما بنفسك ، اما انا فسأقيس المسافة . رجلاي اطول — اضاف بازاروف ساخرا — واحد ، اثنان ، ثلاثة . . .

— يفغيني فاسيليفيتش — تمتم بيوتر بصعوبـــة (اذ كان يرتعش كالمحموم) — الامر لكما . سأبتعد .

— اربعة . . . خمسة . . . ابتعد ، يا اخي ، ابتعد . يمكنك ان تقف وراء شجرة ، بل وسد اذنيك ، ولكن لا تغمض عينيك .

وحالما يسقط احدنا اركض نحوه وارفعه . ستة . . . سبعة . . . ثمانية . . . – توقف بازاروف وقال مخاطبا بافل بتروفيتش : – كفاية ؟ ام اضيف خطوتين ؟

– كما تشاء – قال ذاك وهو يعبئ الرصاصة الثانية .

– اذن فلنضف خطوتين اخريين – ورسم بازاروف بطرف جزمته خطين على الارض – ها هما الخطان الفاصلان . وبالمناسبة فكم خطوة ينبغي لكل منا ان يبتعد عن خطه ؟ هذه مسألة هامة ايضاً ، ولكننا لم نناقشها بالامس .

– عشر خطوات على ما اعتقد – اجاب بافل بتروفيتش وقدم كلا المسدسين الى بازاروف – تفضل بالاختيار .

– حسنا . ولكن الا توافقني يا بافل بتروفيتش على ان مبارزتنا غريبة الى حد مضحك . انظر الى الوجه البليد لشاهدنا ، مثلا .

– انت ترغب في المزاح دوما – اجاب بافل بتروفيتش انني لا انكر غرابة مبارزتنا ، ولكني ارى من واجبي ان احذرك باني انوي المبارزة بكل جد . (فليسمع كل من لديه اذنان !) * .

– هيه ! لا يخامرني شك في اننا عزمنا على ابادة بعضنا البعض . ولكن ما الذي يمنعنا من الضحك والتوفيق بين (المنفعة والمسرة) ** ؟ هكذا اذن : تكلمني بالفرنسية واكلمك باللاتينية .

– ساتبارز بكل جد – كرر بافل بتروفيتش القول واتجه الى مكانه . وحسب بازاروف من جهته عشر خطوات عن خطه وتوقف . فسأله بافل بتروفيتش :

– هل انت مستعد ؟

– تماما .

– يمكننا ان نتقارب .

تحرك بازاروف بهدوء الى الامام فاتجه بافل بتروفيتش نحوه وقد دس يده اليسرى في جيبه ورفع فوهة المسدس بالتدريج . . . ففكر بازاروف «انه يهدف نحو انفي مباشرة ، ويفعل ذلك بكل عناية ، يا له من قاطع طريق ! ولكن ذلك احساس غير مسر .

---

* في الاصل بالفرنسية A bon entendeur, salut !

** في الاصل باللاتينية utile dulci .

الافضل ان اتطلع الى سلسلة ساعته . . .» . صر شيء ما بحدة قرب اذن بازاروف ، ودوت اطلاقة في اللحظة ذاتها . وخطرت في ذهنه فكرة «ما دمت قد سمعت فلا خطر هناك» . خطا خطوة اخرى وضغط على الزناد دون تهديف .

ارتجف بافل بتروفيتش رجفة خفيفة وامسك فخذه بيده . وشخب الدم على بنطاله الابيض .

القى بازاروف المسدس جانبا وهرع الى خصمه فسأله :

– هل جرحت ؟

فقال بافل بتروفيتش :

– كان من حقك ان تدعوني الى الخط الفاصل . اما الجرح فهو ظفيف . لكل منا ، حسب الشروط ، حق في اطلاقة اخرى .

– ولكن معذرة ، فلنؤجل ذلك الى المرة التالية – اجاب بازاروف واسند بافل بتروفيتش الذي بدأ لونه يشحب – فانا الآن لست مبارزا ، بل انا طبيب عليّ قبل كل شيء ان افحص جرحك . بيوتر ! تعال الى هنا . بيوتر ! اين اختفيت ؟

فقال بافل بتروفيتش بصوت متقطع :

– كل ذلك سخف . . . انا لست بحاجة الى معونة احد . ينبغي . . . مرة اخرى . . . . – اراد ان يمسك بشاربه ، ولكن قواه خارت ، فغارت عيناه ، وفقد وعيه .

– يا للغرابة ! اغماء ! لاى سبب ؟ – هتف بازاروف ، وهو يضع بافل بتروفيتش على العشب – فلننظر ماذا حدث ؟ – اخرج منديلا ومسح الدم وتحسس الجرح . . . ودمدم : – العظم سليم ، والرصاصة اخترقت اللحم سطحيا ، ولم تتلف الا عضلة vastus externus . سيكون بوسعه ان يرقص بعد ثلاثة اسابيع ! . . ومع ذلك اغمي عليه ! يا لهؤلاء الناس العصبيين ! ما اشد نعومة بشرتهم !

– هل قتل يا سيدي ؟ – حف صوت بيوتر اللاهج وراء ظهره . فالتفت بازاروف :

– احضر قليلا من الماء ، يا اخي ، بسرعة . اما هو فسيعيش اطول من عمرك وعمري .

الا ان الخادم العصري المكتمل لم يفهم كلماته ، على ما يبدو ،

فظل واقفا دون حراك . فتح بافل بتروفيتش عينيه ببطء . فهمس بيوتر : «انه يحتضر !» وراح يرسم علامة الصليب .

– انت على حق . . . يا له من وجه بليد ! – قال السيد الجريح بابتسامة مكرهة .

– اذهب لاحضار الماء ، يا للشيطان ! – صاح بازاروف .

– لا داعي . . . كان ذلك مجرد (دوار) * للحظة . . . ساعدني في الجلوس . . . هكذا . . . يكفي لف هذا الخدش بشيء ما وعند ذلك سأذهب الى المنزل ماشيا ، والا فيمكن ارسال عربة مكشوفة . اما المبارزة فيمكن ان لا تستأنف اذا شئت . لقد تصرفت بنبل . . . هذا اليوم ، اليوم فقط ، لاحظ ذلك .

– لا داعي لتذكر الماضي – قال بازاروف – اما المستقبل فلا داعي كذلك لتدويخ الرأس بشأنه ، لانني انوي الارتحال دون ابطاء . دعني اضمد لك رجلك الآن . جرحك لا خطر فيه ، ومع ذلك من الافضل وقف النزيف . ولكن من الضروري في بادئ الامر اعادة الوعي الى بيوتر .

هز بازاروف بيوتر من ياقته وارسله لاحضار العربة .

فقال له بافل بتروفيتش :

– احذر ، لا ترعب اخي ، واياك ان تخبره .

اسرع بيوتر راكضاً لاحضار العربة ، بينما جلس كلا الخصمين على الارض ولزما الصمت . حاول بافل بتروفيتش ان لا ينظر الى بازاروف ، فلم يكن راغبا في التصالح معه رغم كل شيء . كان خجلا من غطرسته ومن اخفاقه . كان خجلا من هذه البدعة التي اختلقها مع انه كان يشعر بانها لن تنتهي على نحو افضل مما انتهت اليه . وراح يهدئ نفسه : «لن يبقى هنا على الاقل ، والحمد لله» . استمر الصمت ثقيلا مرهقا . وكان كلاهما في حال سيئة . كان كل منهما يدرك ان الآخر يفهمه . وهذا الادراك امر يبعث السرور لدى الاصدقاء ، ولكنه غير مريح مطلقاً للخصوم ، وخصوصا عندما لا تمكن تسوية الامر ولا الافتراق .

سأل بازاروف اخيراً :

– هل آلمك التضميد ؟

* في الاصل بالفرنسية vertige .

– كلا ، لا بأس ، رائع – اجاب بافل بتروفيتش ، ثم اضاف بعد قليل : – لن نستطيع خدع اخي ، ولا بد من اخباره بأننا تحارشنا بسبب السياسة .

فقال بازاروف :

– حسنا جدا . بوسعك ان تخبره باني شتمت جميع الموالين للانجليز وكأن هذا هو سبب المبارزة .

– طيب . ما الذي يظنه بنا هذا الشخص ، على حد اعتقادك ؟ – واصل بافل بتروفيتش كلامه مشيراً الى نفس ذلك الفلاح الذي اقتاد الحصانين المعقلين حيال بازاروف لبضع دقائق قبل المبارزة ، ثم عاد في نفس الطريق ورفع قبعته عندما رأى «السيدين» . فاجاب بازاروف :

– من يدري ؟ ! . انه لا يظن شيئا ، على الاغلب . فالفلاح الروسي هو ذلك المجهول الخفي الذي تحدثت عنه كثيرا السيدة رادكليف (١٠٣) في زمان ما . فمن الذي يفهمه ؟ انه هو لا يفهم نفسه .

– آ ! هذا هو رأيك ؟ ! – طفق بافل بتروفيتش يتكلم ، ولكنه هتف فجأة : – انظر ، ماذا فعل صاحبك الابله بيوتر ! ها هو اخي قادم الى هنا !

التفت بازاروف فرأى نيكولاي بتروفيتش بوجهه الشاحب جالسا في العربة . قفز من العربة قبل ان تتوقف وهرع الى اخيه . وقال بصوت متهدج :

– ما يعني ذلك ؟ يا يفغيني فاسيليفيتش ، قل لي من فضلك ما هذا ؟

فاجاب بافل بتروفيتش :

– لا شيء . عبثا اقلقوك . لقد تناقشنا قليلا انا والسيد بازاروف ، وقد دفعت الثمن انا بعض الشيء .

– لاي سبب حدث ذلك ، بالله عليكما ؟

– كيف لي ان اوضح الامر ؟ السيد بازاروف تحدث بغير احترام عن السيد روبرت بيل (١٠٤) . واضيف فورا بأني انا وحدي المذنب في كل شيء ، فانا الذي تحديته وقد تصرف السيد بازاروف تصرفا ممتازا .

– هذا دم ، كيف ؟ !

– وهل كنت تظن أن ماء يجري في عروقي ؟ هذا الفصاد نافع لي . أليس كذلك يا دكتور ؟ ساعدني في ركوب العربة ولا تجعل الافكار السوداء تسيطر عليك . فسوف اشفى غدا . هكذا . رائع . تحرك يا حوذي .

سار نيكولاي بتروفيتش وراء العربة . وكاد بازاروف يتخلف . . . فقال له نيكولاي بتروفيتش :

– ارجوك ان تعتني بأخي الى ان يأتي الينا من المدينة طبيب آخر .

طأطأ بازاروف رأسه صامتا .

وبعد ساعة كان بافل بتروفيتش راقدا على السرير ورجله مضمدة بمهارة . عم الهرج والمرج الدار . واصيبت فينيتشكا بالدوار . وكان نيكولاي بتروفيتش يتألم في السر ، بينما راح اخوه يضحك ويطلق النكات ، وخصوصا مع بازاروف . وقد ارتدى قميصا قطنيا خفيفا مع سترة الصباح الانيقة وطربوش . لم يسمح بانزال ستائر النوافذ ، واعرب على نحو طريف عن اسفه لضرورة الامتناع عن تناول الطعام .

ولكن حرارته ارتفعت اثناء الليل ، وانتابه الصداع . وصل طبيب من المدينة . (لم يستمع نيكولاي بتروفيتش الى نصيحة اخيه بعدم استدعاء الطبيب . ثم ان بازاروف نفسه اراد ذلك . كان قد قبع في غرفته طوال النهار مصفرا حانقا ولم يغادرها الا ليعود المريض لامد قصير . صادف فينيتشكا مرتين ، بيد انها كانت تهرب منه مرتعبة) . نصح الطبيب الجديد المريض بتناول اشربة مرطبة ، واكد ، بالمناسبة ، رأي بازاروف من انه لا يتوقع اي خطر . وقال له نيكولاي بتروفيتش ان اخاه جرح نفسه بسبب قلة حذره . فاجاب الدكتور : «هيه !» ، ولكنه اضاف ، عندما تسلم في الحال خمسة وعشرين روبلا من الفضة : «حقا ! هذا امر غالبا ما يحدث ، بالضبط» .

لم يخلع احد في الدار ملابسه ولم ينم . كان نيكولاي بتروفيتش يتردد على اخيه بين الفينة والفينة سائرا على اطراف اصابعه ، ويخرج منه على اطراف اصابعه ايضاً . كانت تنتاب ذاك الغيبوبة او يئن بخفوت ويقول له بالفرنسية (ناموا) * ، ويطلب

* في الاصل بالفرنسية Couchez-vous

شرابا . وقد رجا نيكولاي بتروفيتش فينيتشكا مرة ان تحمل اليه قدحا من شراب الليمون فحدق بافل بتروفيتش فيها وتجرع القدح حتى الثمالة . وعند الصباح اشتدت حرارته قليلا وانتابه هذيان خفيف . في بادئ الامر تلفظ بافل بتروفيتش بكلمات غير مترابطة ، ثم فتح عينيه فجأة ، وقال عندما رأى اخاه قرب السرير منحنيا عليه بعناية :

– الا ترى ، يا نيكولاي ، ان فينيتشكا تشبه نيللي بعض الشبه ؟

– من هي نيللي هذه ، يا بافل ؟

– كيف تسأل من هي ؟ انها الاميرة ر . . . وخصوصاً في القسم العلوى من الوجه . (من نفس القبيل) * .

لم يحر نيكولاي بتروفيتش جوابا ، بل تعجب في سره من حيوية العواطف القديمة لدى الانسان . وفكر : «ها انبجست بعد كل هذا الزمان» .

وقال بافل بتروفيتش بأنين وهو يضع يديه وراء رأسه كئيبا :

– آه كم احب هذا الكائن الفارغ ! – ثم تمتم بعد عدة لحظات : – لن اسمح لأي شخص وقح ان يتجرأ على المساس . . .

تنهد نيكولاي بتروفيتش ، فلم يكن يدرك من يعنى اخوه بهذه الكلمات .

جاءه بازاروف في الساعة الثامنة من اليوم التالي . وقد اتسع له الوقت كي يجمع حاجياته ويطلق سراح ضفادعه وحشراته وطيوره كلها .

فقال نيكولاي بتروفيتش وهو ينهض لاستقباله :

– جئت لتودعني ؟

– بالضبط يا سيدي .

– انني افهمك واستحسن تصرفك تماما . فاخي المسكين مذنب ، طبعا . وقد تلقى جزاءه . وقال لي بنفسه انه وضعك في موقف يستحيل معه ان تفعل غير ما فعلت . انا واثق من انك لم تستطع ان تتحاشى هذه المبارزة التي . . . التي تعزى بقدر ما

* في الاصل بالفرنسية C'est de la même famille .

الى مجرد التناحر المستمر بين نظرتيكما المتبادلتين (اخذ نيكولاي بتروفيتش يخلط بين الكلمات) . ان اخي انسان من الطراز القديم ، وهو عنيد سريع الغضب . . . والحمد لله على هذه النهاية . ثم اني اتخذت كل الاجراءات اللازمة لتلافي اشاعة . . .

فقال بازاروف باستهانة :

– سأترك لك عنواني فيما اذا حدثت ورطة .

– آمل ان لا تقع اية ورطة يا يفغيني فاسيليفيتش . . . ويؤسفني جدا ان وجودك في داري قد انتهت . . . عفوا ، قد انتهى على هذا النحو . ومما يزيد في اسفي ان اركادي . . .

– انني سأراه لا بد – اعترض بازاروف الذي تثير فيه كل انواع «التوضيحات» و«الاعتذارات» دوما شعورا بنفاد الصبر – وفي حالة العكس ارجوك ان تبلغه تحياتي واعتذاري .

– وانا ارجوك . . . – اجاب نيكولاي بتروفيتش مطأطئا رأسه . ولكن بازاروف لم ينتظر ختام عبارته فانصرف .

عندما عرف بافل بتروفيتش باستعداد بازاروف للسفر اعرب عن رغبته في ان يراه ويشد على يده . الا ان بازاروف ظل هذه المرة ايضا باردا كالجليد . فهو يعلم ان بافل بتروفيتش يريد ان يظهر بمظهر النبل . ولم يتسن لبازاروف ان يودع فينيتشكا . فقد تبادل معها النظرات فقط عبر النافذة . وبدا له محياها كئيبا . فقال في سره : «ستهلك على الاغلب ! . . ولربما ستنجو على نحو ما» .

اما بيوتر فقد تأثر لدرجة كبيرة حتى صار ينتحب على كتف بازاروف الى ان خفف عليه هذا بسؤاله «عما اذا كانت دموعه قد انهمرت ام لا» ، في حين اضطرت دونياشا للالتجاء الى الاجمة كي تخفي انفعالها . ارتقى المسؤول عن كل هذه الآلام عربة النقل واشعل سيجارا . عندما تماثلت امام عينيه لآخر مرة عند منعطف الطريق ، ضيعة كيرسانوف الممتدة بخط واحد مع دارها الجديدة اكتفى بازاروف بان بصق وتمتم : «ارستقراطيون ملاعين» وتلفف بمعطفه على نحو اوثق .

سرعان ما تحسنت صحة بافل بتروفيتش ، ولكنه اضطر لملازمة الفراش حوالي اسبوع . وقد تحمل **الاسر** ، على حد تعبيره ، بصبر واناة ، بيد انه افرط في الاهتمام بالزينة وطلب مرارا ان يُرش بالكولونيا . كان نيكولاي بتروفيتش يقرأ له المجلات ،

بينما استمرت فينيتشكا على خدمته كالسابق ، حيث كانت تحمل اليه المرق وشراب الليمون والبيض البرشت والشاي ، ولكن رعبا خفيا كان ينتابها كلما دخلت غرفته . فان تصرف بافل بتروفيتش غير المتوقع قد ارعب كل من في الدار ، وارعبها هي اكثر الجميع . وظل بروكوفيتش هو الشخص الوحيد الذي لم يضطرب وراح يقول ان الاسياد في زمانه ايضاً كانوا يتبارزون . «كان السادة النبلاء فقط يتبارزون فيما بينهم . اما امثال هؤلاء السفلة فكانوا يأمرون بمعاقبتهم في الاسطبل لقاء خشونتهم» .

لم تتعرض فينيتشكا لتأنيب الضمير تقريبا ، الا ان فكرة السبب الحقيقي للنزاع كانت تعذبها بين الحين والآخر . ثم ان بافل بتروفيتش يسلط عليها نظرات غريبة . . . بحيث كانت تشعر بعينيه تحدقان فيها حتى عندما تدير له ظهرها . وقد اصابها الهزال بسبب القلق الداخلي الذي لا يفارقها ، واصبحت ، كما هي العادة ، اكثر رقة وجمالا .

ذات صباح كان بافل بتروفيتش في حالة جيدة فانتقل من السرير الى الاريكة ، بينما توجه نيكولاي بتروفيتش الى البيدر بعد ان استفسر عن صحته . حملت فينيتشكا قدح الشاي ووضعته على الطاولة وهمت بالخروج . لكن بافل بتروفيتش اوقفها قائلا :

– لمَ انت مستعجلة يا فينيتشكا ؟ عندك شغل آخر ؟

– كلا . . . اجل يا سيدي . . . ينبغي ان نصب الشاي هناك .

– ستصبه دونياشا بدونك . انا مريض فاجلسي معي قليلا . وبالمناسبة فانا اريد التحدث اليك .

جلست فينيتشكا صامتة على طرف المقعد . فقال بافل بتروفيتش وهو يمسد شاربه :

– اسمعي ، منذ زمان اردت ان اسألك : يخيل الي انك تخافين مني . حقا ؟

– انا يا سيدي ؟

– نعم ، انت . انك لا تنظرين الي ابدا وكأنما لست بريئة .

احمرت فينيتشكا ، ولكنها نظرت الى بافل بتروفيتش الذي بدا لها غريبا بعض الشيء . فارتجف قلبها قليلا . وسألها هو :

– انت بريئة أليس كذلك ؟

فهمست هي :
– لم لا ؟
– من يدري ؟ ! وعلى كل حال ، فازاء من يمكن ان تكوني مذنبة ؟ ازائي انا ؟ امر غير معقول . ازاء اشخاص آخرين في المنزل ؟ شيء غير ممكن ايضاً . لم يبق الا اخي ، ولكنك تحبينه ، اليس كذلك ؟
– احبه .
– بكل روحك وفؤادك ؟
– انني احب نيكولاي بتروفيتش بكل فؤادي .
– حقا ؟ انظري الي يا عزيزتي (هذه هي المرة الاولى التي يخاطبها فيها بهذه الصيغة . . .) انت تعلمين ان الكذب خطيئة كبرى !
– انني لا اكذب ، يا بافل بتروفيتش . كيف لي ان لا احب نيكولاي بتروفيتش ؟ انني لست بحاجة الى الحياة بدونه !
– ولن تستبدليه بأحد ؟
– بمن استطيع ان استبدله ؟
– من يدري ؟ لنفرض ، بهذا السيد الذي ارتحل من هنا .
نهضت فينيتشكا :
– يا الهي ! لماذا تعذبونني يا بافل بتروفيتش ؟ ما الذي فعلته لكم ؟ كيف يمكن قول ذلك ؟ . .
فقال بافل بتروفيتش بصوت حزين :
– فينيتشكا . لقد رأيت . . .
– ما الذي رأيتموه يا سيدي ؟
– هناك . . . في التعريشة .
احمرت فينيتشكا حتى الشعر ، حتى الاذنين . وقالت بصعوبة :
– ما ذنبي في ذلك ؟
فنهض بافل بتروفيتش قليلا :
– ألست مذنبة ؟ كلا ؟ ابدا ؟
– انني احب نيكولاي بتروفيتش وحده في هذا العالم وسأحبه الى الابد ! – قالت فينيتشكا بقوة مفاجئة ، بينما اختنقت بعبراتها ، – اما ما رأيتموه فسأقول في يوم القيامة بأني لم اكن مذنبة فيه ابدا . ومن الافضل ان اموت الآن ما دامت تحوم حولي الشبهات والظنون بأني اكفر بنعمة نيكولاي بتروفيتش . . .

الا ان صوتها خانها هنا ، واحست في الوقت ذاته بان بافل بتروفيتش اخذ يدها وشد عليها . . . نظرت اليه وتجمدت على تلك الحال . لقد غدا اكثر شحوبا من السابق ، وكانت عيناه تلمعان . والاغرب من ذلك ان دمعة وحيدة ثقيلة انحدرت على خده . ثم قال بهمس وحنان :
– فينيتشكا ! احبي اخي ، احبيه ! انه انسان في منتهى الطيبة ! ولا تخونيه من اجل اي شخص في الكون ، ولا تسمعي كلاما من اي كان ! فكري انت : ما افظع ان يحب المرء دون ان يكون محبوبا ! لا تتركي ابدا اخي المسكين نيكولاي !
جفت دموع فينيتشكا وفارقها الخوف من اثر دهشتها العظيمة . ولكن ما اشد ما ارتعبت عندما الصق بافل بتروفيتش ، بافل بتروفيتش نفسه ، يدها الى شفتيه وانحنى عليها ، لا ليقبلها ، بل ليتنهد مرتعشا بين الفينة والاخرى .
«يا الهي ! هل اصابته نوبة ؟ . .» – فكرت في نفسها بينما نبضت فيه اثناء تلك اللحظة حياته الموات كلها .
صر السلم تحت خطوات سريعة . . . فدفعها بعيدا عنه والقى برأسه على الوسادة . فتح الباب فظهر نيكولاي بتروفيتش مرحا غضا مورد الخدين . وكان ميتيا الغض المتورد كأبيه يتراقص على صدره في قميص لا غير ، وتشتبك رجلاه العاريتان بالازرار الكبيرة لمعطف ابيه الريفي .
هرعت اليه فينيتشكا على الفور وطوقته مع ميتيا بيديها ومال رأسها على كتفه . دهش نيكولاي بتروفيتش : فان فينيتشكا المتواضعة الخجول لم تكن تلاطفه مطلقا بحضور شخص ثالث .
– ماذا دهاك ؟ – سألها والتفت الى اخيه وهو يسلمها ميتيا . ثم اقترب من بافل بتروفيتش وقال مستفسرا :
– هل ساءت حالتك ؟
فدس هذا وجهه في المنديل القطني وقال :
– كلا . . . بالعكس ، حالتي افضل بكثير .
– عبثا استعجلت في الانتقال الى الاريكة – قال نيكولاي بتروفيتش ، ثم اضاف ملتفتا الى فينيتشكا : – الى اين انت ؟ –

ولكنها كانت قد صفقت الباب خارجة – جئت لاريك طفلي العملاق . لقد اشتاق الى عمه . فلماذا اخذته هي ؟ ولكن ماذا دهاك ؟ هل حدث بينكما شيء ؟

فقال بافل بتروفيتش بصيغة مهيبة :

– يا اخي !

ارتعش نيكولاي بتروفيتش مرتعبا دون ان يعرف السبب . فكرر بافل بتروفيتش قوله :

– يا اخي ، اقطع عهداً بانك ستنفذ طلبا لي .

– اي طلب ؟ قل .

– انه طلب هام جدا ، عليه تتوقف ، كما اعتقد ، سعادة حياتك كلها . طوال هذا الوقت كنت افكر كثيرا بما اريد ان اقوله لك الآن . . . اخي أدِ واجبك ، واجب الانسان النزيه النبيل ، وضع حدا للغواية والقدوة السيئة من جانبك ، وانت من افضل الناس !

– ما الذي تعنيه يا بافل ؟

– تزوج من فينيتشكا رسميا . . . انها تحبك ، وهي ام لابنك .

تراجع نيكولاي بتروفيتش خطوة وصفق يدا بيد .

– أهذا انت الذي يقول ذلك ؟ انت بافل الذي كنت اعتبره دوما ألد خصم لهذا النوع من الزواج ! أهذا انت الذي يتكلم ؟ الا تعلم بان الشيء الوحيد الذي منعني من اداء ما وصفته انت محقا بواجبي انما هو احترامي لك ؟ !

– عبثا كنت تحترمني اذن – اعترض بافل بتروفيتش بابتسامة كئيبة – اكاد اعتقد بان بازاروف محق عندما لامني على النزعة الارستقراطية . كلا ، يا اخي العزيز ، كفانا تظاهرا وتفكيرا بالمجتمع الراقي : فقد غدونا كهولا متواضعين ، وحان الوقت لكي نضع جانبا كل الهموم الباطلة ، ونؤدي واجبنا بالذات ، كما تقول انت . وسوف ترى اننا سنلقى السعادة فضلا عن ذلك .

هرع نيكولاي بتروفيتش ليعانق اخاه هاتفا :

– لقد فتحت عيني نهائياً ! وليس عبثا اني كنت أوكد دوما بأنك اطيب واذكى انسان في العالم . وانا ارى الآن ان حلمك يضاهي نبلك .

فقاطعه بافل بتروفيتش :

– على مهلك ، على مهلك . لا تدعس رجل اخيك الحليم الذي تبارز وهو في الخمسين من العمر تقريبا كما يفعل ملازم ثان . هكذا اذن ، تقرر الامر : ستكون فينيتشكا . . . (عديلة لي) *

– آه ، يا عزيزي بافل ! ولكن ماذا سيقول اركادي؟

– اركادي ؟ ما عساه ان يقول ؟ ! سيفرح . انه لا يؤيد الزواج ، ولكنه سيسر للشعور بالمساواة . وبالفعل فما الداعي للتفرقة (في القرن التاسع عشر) ** ؟

– آه ، بافل ، بافل ! دعني اقبلك مرة اخرى . ولا تخف فسأكون حذرا .

تعانق الشقيقان . ثم سأل بافل بتروفيتش :

– ماذا ترى ، الا يتعين اخبارها بنيتك في الحال ؟

فاعترض نيكولاي بتروفيتش :

– ما الداعي للعجلة ؟ فهل دار بينكما حديث بهذا الخصوص ؟

– حديث بيننا ؟ (ما هذه الفكرة ؟) ***

– طيب . ينبغي ان تشفى اولا ، اما هذه القضية فليست آنية . ينبغي التفكير في الامر جيدا . . .

– ولكنك صممت ، أليس كذلك ؟

– طبعا . صممت . وانا ممتن لك من الفؤاد . سأتركك الآن ، اذ ينبغي ان ترتاح ، فان اي انفعال يؤذيك . . . ولكننا سنتحدث في الامر فيما بعد . حاول ان تغفو ، يا حبيبي ، والله يعافيك !

فكر بافل بتروفيتش عندما ظل لوحده : «لماذا يشكرني ؟ وكأنما لم يكن ذلك متوقفا عليه هو ! اما انا فسارتحل ، حالما يتزوج ، الى مكان ما بعيد ، الى درزدن او فلورنسة ، وسأظل هناك الى ان افطس» .

بلل بافل بتروفيتش جبهته بالكولونيا واغمض عينيه . كان رأسه الجميل النحيل المضاء بنور النهار الساطع مستقرا على الوسادة البيضاء كرأس جثة . . . بل كان هو جثة هامدة في الواقع .

* في الاصل بالفرنسية belle-sœur .

** في الاصل بالفرنسية au dix-neuvième siècle .

*** في الاصل بالفرنسية Quelle idée .

٢٥

في ظل شجرة دردار باسقة في بستان نيكولسكويه جلست كاتيا مع اركادي على مصطبة معشوشبة ، وعلى الارض قربهما ربضت الكلبة فيفي ولوت جسمها الطويل على نحو رشيق بالشكل الذي ينعته الصيادون «برقدة الارنب» . لزم اركادي الصمت وكذلك كاتيا . امسك بكتاب مفتوح بالكاد ، في حين راحت هي تلتقط من السلة ما تبقى فيها من فتات الرغيف الابيض وتلقي به الى مجموعة صغيرة من العصافير كانت تتقافز وتزقزق بما يلازمها من تهور وجبن عند قدميها تماما . كان نسيم خفيف يداعب اوراق الدردار ويحرك بهدوء بقعا ضوئية ذهبية باهتة الى قدام والى وراء في الممشى القاتـــم وعلى ظهر فيفي الاصفر . وكان ظل متوازن ينسكب على اركادي وكاتيا . ومن حين لآخر يلمع شريط من الضوء الساطع في شعرها . لزما الصمت ، ولكن تقاربا مطمئنا تجلى في صمتهما وفي هيئة جلوسهما معا : كان كل منهما كأنما لا يفكر بجاره ، ولكنه مسرور في الخفاء لقربه منه . تغير محياهما منذ ان رأيناهما في آخر مرة : فقد بدا اركادي اكثر هدوءا ، بينما بدت كاتيا اكثر حيوية وجرأة .

ثم تحدث اركادي :

– الا ترين ان الدردار اسم على مسمى ؟ ! فليس هناك شجرة تضاهيها في خفتها وشفافيتها .

رفعت كاتيا بصرها الى اعلى وقالت : «اجل» ، بينما فكر اركادي في نفسه : «انها لا تلومني ، مثل بازاروف ، على كلامي **الجميل**» . ثم قالت كاتيـــا مشيرة بنظرة من عينيهـــا الى الكتاب في يد اركادي :

– لا احب هايني عندما يضحك ولا عندما يبكي . انني احبه عندما يغرق في التأملات والاحزان .

– اما انا فاحبه عندما يضحك . – قال اركادي .

– تلك آثار قديمة من اتجاهك الساخر . . . (ففكر اركادي : «آثار قديمة ! ماذا لو سمع بازاروف ذلك !») تمهل قليلاً ، وسوف نغير آراءك .

– من يغير آرائي ، انت ؟

– اختي ، وبورفيري بلاتونيتش الذي لم تعد تتشاجر معه ، وخالتي التي رافقتها الى الكنيسة اول امس .

– ما كان بوسعي ان ارفض ! اما آنا سيرغييفنا فهي نفسها ، كما تتذكرين ، كانت متفقة مع يفغيني في امور كثيرة .

– كانت اختي آنذاك متأثرة به مثلك تماماً .

– آنذاك ؟ مثلي ؟ هل لاحظت انني صرت اتخلص من تأثيره ؟

لاذت كاتيا بالصمت ، فواصل اركادي كلامه :

– اعرف انه لم يعجبك بتاتاً .

– ليس بوسعي ان احكم عليه .

– هل تعلمين ، يا كاتيا ، بأنني كل مرة اسمع فيها هذا الجواب لا اثق به ؟ . . فليس هناك انسان لا يستطيع كل منا ان يحكم عليه ! ذلك مجرد تملص .

– اقول لك الحقيقـــة . . . لا استطيـــع القول بانه لا يعجبني . . . ولكنني احس بانه غريب عليّ وبأني غريبة عليه . . بل وحتى انت غريب عليه .

– لماذا ؟

– كيف اجيب ؟ . . انه بري مفترس ، بينما نحن أليفون .

– وانا أليف ايضاً ؟

اومأت كاتيا برأسها ايماءة ايجاب .

فحك اركادي ما وراء اذنه وقال :

– اسمعي ، يا كاتيا ، ذلك في الواقع امر مغيظ .

– هل تريد ان تكون مفترساً ؟

– كلا ، ولكنني ارغب ان اكون نشيطاً شديد البأس .

– هذا امر لا يخضع للرغبة . . . صديقك ، مثلا ، لا يرغب في ذلك ، ولكنه موجود فيه .

– احم ! انت تعتقدين بانه اثر على آنا سيرغييفنا تأثيراً كبيراً ، أليس كذلك ؟

– بلى . ولكن لا احد يستطيع ان يغلبها لامد طويل – اضافت كاتيا بصوت خافت .

– لماذا تظنين ذلك ؟

– انفتها شديدة . . . كلا ، ليس ذلك ما اقصده . . . انها تعتز باستقلالها غاية الاعتزاز .

– فمن لا يعتز به ؟ – قال اركادي وفكر : «وما نفعه ؟» . وفكرت كاتيا ايضا : «وما نفعه ؟» . ان افكاراً متماثلة تتبادر دوماً الى اذهان الشباب الذين كثيراً ما يلتقون بود .

ابتسم اركادي ، واقترب قليلا من كاتيا ، فقال همساً :

– انك تخافين **منها** بعض الشيء ، أليس كذلك ؟ اعترفي .

– ممن ؟

– **منها** – كرر اركادي بلهجة ذات وزن .

– وانت ؟ – سألته كاتيا بدورها .

– وانا ايضاً . لاحظي ، قلت : وانا **ايضاً** .

هددته كاتيا بسبابتها قائلة :

– ذلك يثير دهشتي . فان اختي لم تكن تميل اليك في اي وقت افضل مما هي الآن . انها تميل اليك اكثر بكثير مما في زيارتك الاولى .

– حقاً ؟ !

– ألم تلاحظ ذلك ؟ الا يبعث السرور فيك ؟

تفكر اركادي قليلا ثم قال :

– ما الذي جعلني استحق عطف آنا سيرغييفنا ؟ هل السبب اني احضرت لها رسائل والدتك ؟

– اجل . وهناك اسباب اخرى لن اقولها لك .

– لماذا ؟

– لن اقولها .

– آه ! اعرف ذلك . انك عنيدة جداً .

– اجل ، عنيدة .

– وشديدة الملاحظة .

القت كاتيا على اركادي نظرة جانبية .

– ربما يثير ذلك غضبك ؟ بم تفكر ؟

– من اين لك هذه القابلية على الملاحظة الشديدة الموجودة لديك فعلاً ؟ ! انك ترتعبين لابسط الامور ولا تثقين بأحد وتتحاشين الجميع . . .

– عشت لوحدي امداً طويلاً ، لذا صرت اطيل التأمل . ولكن هل انا اتحاشى الجميع قاطبة ؟

القى اركادي نظرة ممتنة على كاتيا . وواصل كلامه :

– ذلك شيء رائع . ولكن الناس في مثل حالتك ، اريد ان اقول الذين يمتلكون ما تمتلكين ، نادراً ما يتمتعون بهذه الموهبة . فالحقيقة يصعب عليها ان تصل اليهم ، كما يصعب عليها ان تصل الى القياصرة .

– ولكنني لست غنية .

استغرب اركادي قولها ولم يفهم في الحال . وخطرت على باله فكرة : «حقاً ، فالضيعة كلها تعود لاختها !» . ولم تكن هذه الفكرة مريرة بالنسبة له . فقال :

– ما احسن لهجة قولك هذا !

– ماذا ؟

– قلت ذلك بأطيب وابسط شكل دون خجل ولا تباه . وبالمناسبة فأنا اتصور ان الانسان الذي يعلم ويقول انه فقير ينبغي ان ينطوي على شيء خاص ، على بعض الغرور .

– انني لا اشعر بشيء من ذلك بفضل اختي . ولم اشر الى حالتي المادية الا لأن الحديث ساقني الى ذلك .

– حسناً . ولكن اعترفي ، أليس لديك شيء من الغرور الذي ذكرته تواً .

– مثلا ؟

– مثلا ، استميحك عذراً على سؤالي : انك لن تتزوجي من شخص غني ، أليس كذلك ؟

– اذا وقعت في هواه . . . كلا ، يخيل اليّ انني لن اتزوج منه حتى اذا وقعت في هواه .

– هكذا اذن – هتف اركادي ، ثم اضاف بعد برهة : – ما الذي يجعلك ترفضين الزواج منه ؟

– حتى الاغنية تتحدث عن عدم التكافؤ .

– ربما تريدين التسلط ، ام . . .

– كلا ! ما الداعي لذلك ؟ بالعكس ، انني على استعداد للانصياع ، ولكن عدم التكافؤ شيء ثقيل . اما الانصياع المقترن باحترام النفس فأمر مفهوم ، انه السعادة . ولكن حالة الخضوع والتبعية . . . كلا فأنا غارقة فيها .

– غارقة فيها . . . – كرر اركادي قول كاتيا وواصل

كلامه : – اجل ، اجل . ليس عبثاً انك وآنا سيرغييفنا من صلب واحد . فأنت مستقلة مثلما هي . ولكنك اكثر انطواء . انا واثق من انك لن تبادري ابداً الى الاعراب عن مشاعرك مهما كانت عميقة ومقدسة . . .

– وكيف يكون الامر على غير ذلك ؟ – سألت كاتيا .

– انكما على نفس القدر من الفطنة . ولديك نفس القدر من قوة الطباع كما لديها ، ان لم اقل اكثر منها . . .

– لا تقارن بيني وبين اختي من فضلك – قاطعته كاتيا على عجل – فذلك ليس بصالحي ابداً . يبدو وكأنك قد نسيت ان اختي حسناء ذكية . ولا يجدر بك ، انت يا اركادي نيكولايفيتش على الخصوص . . . ان تقول مثل هذه الكلمات ، وبمثل هذه الملامح الجادة .

– ماذا تعنين بقولك : لا يجدر بي على الخصوص ؟ وما الذي يجعلك تعتقدين بأني امزح ؟

– انت تمزح طبعاً .

– حقاً ؟ ولكن ماذا لو كنت واثقاً مما اقول : وماذا لو كنت اعتقد بأني لم اعبر عن ذلك بعد بالشكل اللازم ؟ !

– انني لا افهمك .

– حقاً ؟ ها انا ارى الآن بأنني بالغت كثيراً في امتداح قدرتك على الملاحظة .

– كيف ؟

لم يجب اركادي بشيء واشاح بوجهه ، بينما وجدت كاتيا في السلة قليلا من فتات الرغيف وراحت تلقى به الى العصافير . الا ان حركة يدها كانت شديدة ، فصارت العصافير تطير بعيداً قبل ان يتسنى لها ان تلتقط الفتات .

وقال اركادي فجأة :

– كاتيا ! ربما لن تعبأى بما سأقول . ولكن اعلمي بأني لن استبدلك لا باختك ولا بأي كان في هذا العالم .

ثم نهض وابتعد مستعجلا ، كما لو كان قد ارتعب من الكلمات التي افلتها لسانه .

اما كاتيا فقد تراخت كلتا يديها وهوتا مع السلة على ركبتيها ، وطأطأت رأسها وراحت تنظر طويلاً الى الجهة التي انصرف اليها

24*

اركادي . ظهرت بوادر الحمرة القانية على وجنتيها ، لكن الابتسامة لم تعرف سبيلها الى شفتيها ، وكانت عيناها تعبران عن الحيرة وعن شعور آخر لا يزال غير معروف الهوية .

ودوى قربها صوت آنا سيرغييفنا :

– انت لوحدك ؟ خيل اليّ انك توجهت الى البستان مع اركادي .

حولت كاتيا نظرتها على مهل الى اختها (التي وقفت على الممشى بملابسها الانيقة ، بل الفاخرة ، وراحت تداعب اذني فيفي بطرف مظلتها المفتوحة) وقالت على مهل ايضاً : – لوحدي .

– ارى ذلك – اجابت تلك ضاحكة – يبدو انه ذهب الى غرفته .

– اجل .

– هل كنتما تقرآن معا ؟

– اجل .

لامست آنا سيرغييفنا ذقن كاتيا ورفعت وجهها قليلاً : – ألم تتشاجرا ؟

– كلا . – اجابت كاتيا وازاحت يد اختها برفق .

– ما هذه اللهجة المهيبة في الجواب ؟ ! ظننت اني سأجده هنا لاقترح عليه ان يتمشى معي . فقد طلب مني ذلك مراراً . احضروا لك حذاء من المدينة ، اذهبي وقيسيه . فقد لاحظت يوم امس ان احذيتك القديمة قد بليت كلياً . وانت على العموم لا تولين ذلك ما يستحقه من اهتمام ، بينما لديك ساقان رائعتان ! ويداك حلوتان ايضاً . . . ولكنهما كبيرتان ، لذا ينبغي الاستفادة من الساقين . ولكنك لست لعوباً .

واصلت آنا سيرغييفنا سيرها على الممشى بحفيف ينبعث من فستانها الجميل . نهضت كاتيا من المصطبة والتقطت هايني وذهبت ايضاً ، ولكن لا لكي تقيس الحذاء .

فكرت في نفسها وهي ترتقي ببطء وخفة درجات سلم الشرفة الحجري الذي سخنته الشمس : «ساقان رائعتان . تقولين : ساقان رائعتان . . . وسوف يقع عندهما» .

واعتراها الخجل في الحال فصعدت راكضة برشاقة . اجتاز

اركادي الرواق متجهاً الى غرفته ، فلحق به كبير الوصفاء وافاد بان السيد بازاروف ينتظره فيها .

فتمتم اركادي وكاد الرعب يستولى عليه :

— يفغيني ؟ هل وصل من زمان ؟

— وصل تواً وامر بان لا اخبر آنا سيرغييفنا عنه . طلب ان اوصله اليكم مباشرة .

«ماذا ؟ هل حلت بأهلي مصيبة ما ؟» — فكر اركادي ، وركض على السلم مستعجلاً وفتح الباب في الحال . كان منظر بازاروف قد جعله يهدأ فوراً ، مع ان العين الثاقبة بوسعها ، على ما يبدو ، ان تستشف في الهيئة النحيلة للضيف غير المنتظر وفي ملامحه النشيطة كالسابق علائم الاضطراب الداخلي . كان جالساً على رف النافذة وعمرته على رأسه ومعطفه المغبر على كتفيه . ولم ينهض حتى عندما هرع اليه اركادي وعانقه بصخب واستغراب .

— لم اتوقع مجيئك مطلقاً ! ما الذي دفعك ؟ ! — كرر اركادي وهو يجول في الغرفة كما لو كان يتصور نفسه مسروراً وراغباً في اظهار سروره — كل شيء عندنا على ما يرام ؟ وهل الجميع بخير ؟

— كل شيء عندكم على ما يرام ، ولكن ليس الجميع بخير — تمتم بازاروف — كفاك هذراً ، اطلب لي عصيراً واجلس واستمع الى ما سأقوله لك بعبارات قليلة ولكن شديدة الوقع على ما اعتقد .

سكن اركادي ، بينما حدثه بازاروف عن مبارزته مع بافل بتروفيتش . دهش اركادي اشد الدهشـــة ، بل وحزن بعض الشيء ، لكنه لم ير ضرورة للاعراب عن ذلك . واكتفى بالسؤال عما اذا كان جرح عمه غير خطر حقاً . وعندما تلقى الجواب بان الجرح مثير جداً ولكن ليس من الناحية الطبية ، ابتسم على مضض ، وانتابه شيء من الرعب والخجل . وبدا بازاروف وكأنما قد فهمه ، فقال :

— اجل ، يا اخي ، تلك عاقبة العيش مع الاقطاعيين . فالمرء مضطر الى ان يغدو مثلهم ويساهم في جولات الفروسيـــة . — واضاف بازاروف في الختام — شددت الرحال الى «الآباء» وعرجت . . . لكي احيطك علماً بذلك . كان بوسعي ان اقول شيئاً من هذا القبيل لولا اني اعتبر الكذب بلا جدوى حماقة . كلا ، الشيطان وحده يعلم لماذا . . . جئتُ الى هنا . من المجدى للانسان ، كما اعتقد ، ان

يمسك احياناً بناصيته ويجتث نفسه كما يجتث الفجل من التربة . وهذا ما فعلته انا مؤخراً . . . ولكنني رغبت في ان القي نظرة اخرى على ما افترقت عنه ، على تلك التربة التي كنت غائصا فيها .

فاعترض اركادي قلقاً :

— آمل بان هذه الكلمات لا تشملني . آمل بانك لا تفكر في الافتراق عني .

القى عليه بازاروف نظرة ثاقبة كادت تنغرز فيه :

— هل تعتقد بان ذلك سيؤلمك ؟ يخيل اليّ انك نفسك قد فارقتني . انت على قدر كبير من الطراوة والنظافة . . . لا بد وان امورك مع آنا سيرغييفنا سائرة على ما يرام .

— اية امور لي مع آنا سيرغييفنا ؟

— أفلم تصل من المدينة الى هنا من اجلها يا طائري الصغير ؟ وبالمناسبة كيف حال مدارس الآحاد هناك ؟ . . . ماذا ؟ أفلست متيماً بها ؟ ام انه حان الوقت للتواضع ؟

— يفغيني ، انت تعلم بأني كنت على الدوام صريحاً معك . واؤكد لك ، واقسم بالله ، انك على خطأ .

— احم ! كلمة جديدة . — قال بازاروف بصوت خافت — لا داعي للغضب . فذلك امر لا يعنيني مطلقاً . وبوسع الرومانسي ان يقول : احس بأننا على مفترق الطرق . اما انا فأقول ببساطة ، اننا مللنا بعضنا البعض .

— يفغيني . . .

— لا ضير في ذلك ، يا حبيبي . في العالم اشياء اكثر قيمة ولكنها تبعث على الملـــل ايضاً ! اما الآن ، أفلا يجدر بنا ان نتوادع ؟ ! منذ ان وصلت الى هنا اشعر بأني على اسوأ حال ، كما لو قرأت المزيد من رسائل غوغول الى عقيلة متصرف كالوغـــا (١٠٥) . وبالمناسبة فاني لم اطلب حل الخيول .

— كيف ؟ هذا مستحيل .

— لماذا ؟

— ذلك اقصى حد من عدم اللياقة ازاء آنا سيرغييفنا التي سترغب في رؤيتك من كل بد . ناهيك عن اثر ذلك في نفسي انا .

— انك متوهم .

— على العكس ، انا واثق منه — قال اركادي معترضاً — ثم

ما الداعي للتصنع ؟ وما دمنا بهذا الصدد ، أفلم تأت انت الى هنا من اجلها ؟
— ربما ، ولكنك متوهم مع ذلك .
غير ان اركادي كان على حق . فقد رغبت آنا سيرغييفنا في رؤية بازاروف وبعثت كبير الوصفاء ليدعوه اليهـــا . استبدل بازاروف ملابسه قبل ان يتوجه اليها . واتضح انه وضع بدلته الجديدة بين حاجياته بحيث يسهل التقاطها .
استقبلته اودينتسوفا في غرفة الاستقبال وليس في الغرفة التي اعرب فيها ، على نحو مباغت ، عن حبه لها . ومدت له بلطف اصابع يدها ، ولكن مسحة من التوتر العفوي كانت عالقة بمحياها .
فعاجلها بازاروف قائلا :
— يا آنا سرغييفنا ، عليّ في المقام الاول ان اهدئـــك . فأمامك واحد من البشر الفانين ادرك خطأه من زمان ويأمل بان الآخرين ايضاً قد نسوا حماقته . انني مسافر لامد طويل ، ومع اني لست كائناً رقيق القلب ، فمن المحزن ان احمل معي فكرة تؤكد لي انك تتذكرينني باشمئزاز . ألست محقاً ؟
تنفست آنا سيرغييفنا الصعداء كشخص ارتقى لتوه جبلاً عالياً ، وانعشت الابتسامة محياها . مدت يدها لبازاروف مجدداً وصافحته قائلة :
— الويل لمن يتذكر الغيظ الماضي ، لاسيما واني ، اذا قلت الحق ، اخطأت انا ايضاً آنذاك بشيء ما ، ان لم يكن بالتغنج . وباختصار : فلنبق اصدقاء كالسابق . كان ذلك حلماً ، أليس كذلك ؟ فمن يتذكر الاحلام يا ترى ؟
— من يتذكرها ؟ لاسيما وان الحب شعور متكلف . . .
— حقا ؟ يسرني كل السرور ان اسمع ذلك .
هكذا تكلمت آنا سيرغييفنا ، وهكذا تكلم بازاروف . وفكر كلاهما بأنهما يقولان الحقيقة . فهل كانت كلماتهما تنطوي على الحقيقة ، الحقيقة كاملة ؟ ذلك امر لم يكونا يعلمان به هما ، ناهيك عن المؤلف . بيد انهما تجاذبا اطراف الحديث وكأنما قد صدقا بعضهما البعض كلياً .
وسألت آنا سيرغييفنا بازاروف ، عرضاً ، عما كان يفعله عند آل كيرسانوف . وكاد يحدثها عن مبارزته مع بافل بتروفيتش ،

لكنه احجم عن ذلك خشيةً أن تظن بأنه يحاول ان يتصنع اموراً مثيرة ، فأجابها بأنـــه كان يعمـــل طوال الوقت . فقالت آنا سيرغييفنا :
— اما انا فقد استولت عليّ الكآبة في بادئ الامر ، والله وحده يعرف السبب ، حتى اني صممت على السفر الى الخارج . هل تتصور ؟ ! . . ثم انقشع ذلك كله ، حيث وصل صديقك اركادي نيكولايفيتش فعدت من جديـــد الى حالتي المعتادة ، الى دوري الحقيقي .
— اي دور ، يا ترى ؟
دور المربية والمرشدة والام ، سمه كيفما تشاء . وبالمناسبة هل تعلم بأنني في السابق لم اكن افهم جيداً الصداقة الحميمة بينك وبين اركادي نيكولايفيتش . كنت اظن بانه انسان ليس ذا شأن كبير . اما الآن فقد عرفته على نحو افضل واقتنعت بأنه ذكي . . . والامر الاهم هو انه في ريعان الشباب . . . ليس مثلنا يا يفغيني فاسيليفيتش .
فسأل بازاروف :
— الا يزال يتهيب بحضورك ؟
— هل كان . . . — بدأت آنا سيرغييفنا كلامها ، ولكنهـــا تفكرت قليلاً ، واضافت : — اصبح اكثر اطمئناناً ، وصار يتحدث معي . في السابق كان يتحاشاني . وبالمناسبـــة فأنا ايضاً لم اكن ابحث عن سبيـــل لمعاشرته . فهو وكاتيـــا صديقان حميمان .
شعر بازاروف بالاسف وفكر في نفسه : «لا يمكن للمرأة ان لا تحتال !» . ثم قال بابتسامة ساخرة فاترة :
— تقولين انه كان يتحاشاك . ولكن ، على ما يبدو ، لم يبق خافياً عليك انه يحبك ، أليس كذلك ؟
— ماذا ؟ وهو ايضـــاً ؟ — انفلت السؤال من لسان آنا سيرغييفنا .
— وهو ايضاً . — كرر بازاروف بانحناءة وادعة — هل من المعقول انك لم تكوني تعرفين ذلك ، واني اخبرتك بنبأ جديد ؟
غضت آنا سيرغييفنا بصرها وقالت :
— انت على خطأ يا يفغيني فاسيليفيتش .

– لا اظن . ولكن ربما ما كان يتعين عليّ ان اذكر ذلك .

ثم اضاف في سره : «ولذا لا تتحايلي بعد الآن» .

– لِمَ لا تذكره ؟ ! لكنني اعتقد بانك ، في هذه الحالة ايضاً ، تعلق اهمية كبيرة على الانطباع العابر . ويخيل اليّ انك تميل الى المبالغة .

– من الافضل ، يا آنا سيرغييفنا ، ان لا نتحدث عن ذلك .

– لماذا ؟ – اعترضت عليه ، ولكنها حولت الحديث الى جانب آخر . كانت مع ذلك تشعر بالخجل من بازاروف ، بالرغم من انها قالت له واقنعت نفسها بان النسيان قد طوى كل شيء . وعندما كانت تتحدث معه بأبسط شكل ، وحتى عندما كانت تمزح معه ، شعرت بان الخوف يأخذ بخناقها بعض الشيء . فالناس على ظهر الباخرة في البحر ، يتكلمون ويضحكون بلا اكتراث ، ويتجاذبون اطراف الحديث كما على الارض الصلبة ، ولكنه حالما تتوقف الباخرة للحظة ، وحالما تظهر اقل اشارة الى شيء ما غير معتاد تلوح على جميع الوجوه فوراً مسحة القلق التي تدل على الاحساس الدائم بالخطر المستمر .

استغرق حديث آنا سيرغييفنا مع بازاروف امداً قصيراً . فقد اخذت تتأمل وصارت تجيب على نحو غير مركز ، ثم اقترحت عليه اخيراً الانتقال الى الصالة حيث وجدا الاميرة وكاتيا . فسألت ربة البيت : «اين اركادي نيكولايفيتش ؟» وبعثت في طلبه عندما علمت بانه لم يظهر منذ اكثر من ساعة . لم يعثروا عليه في الحال : فقد اعتكف في لجة البستان وجلس غارقاً في افكاره مسنداً ذقنه الى يديه المتصالبتين . كانت افكاره عميقة هامة ، ولكن غير حزينة . كان يعلم ان آنا سيرغييفنا قد اختلت ببازاروف ، فلم يشعر بالغيرة كما في السابق ، بل ، على العكس ، كان وجهه مشرقاً بهدوء ، وبدا وكأنه مسرور ومستغرب لشيء ما ، ومصمم على امر ما .

٢٦

ما كان المرحوم اودينتسوف يهوى التجديد ، ولكنه كان يتقبل «مظاهر الذوق الرفيع» ، ولذا انشأ في بستانه ، بين المشتل المدفأ والبركة ، بناية من القرميد الروسي تشبه الرواق اليوناني القديم . وعلى الجدار الخلفي الاصم لهذا الرواق او الكاليرى ، حفرت ستة محاريب لتماثيل كان اودينتسوف ينوى جلبها من الخارج . وكان على هذه التماثيل ان تجسد : الانفراد والصمت والتأمل والملنخوليا والحشمة والحساسية . جُلب احد هذه التماثيل ، وهو تمثال الهة الصمت واصبعها على شفتيها ، ونصب في محرابه . لكن اطفال الخدم كسروا انف التمثال في اليوم ذاته . ومع ان الجصاص المجاور اعتزم ان ينحت له انفاً «أفضل بمرتين من السابق» ، فقد امر اودينتسوف برفعه . ولذا احتل التمثال مكانه في ركن مستودع الطاحونة ، حيث ظل هناك سنين طويلة يثير الرعب الوسواسي لدى الفلاحات . وتغطى الجانب الامامي من الرواق بشجيرات كثيفة ، فلا يلوح فوق بحر من الخضرة الا تيجان الاعمدة . كان الجو في الرواق بارداً حتى في الظهيرة . ولم تكن آنا سيرغييفنا تهوى التردد على هذا المكان منذ ان رأت فيه افعى ، الا ان كاتيا غالباً ما تجلس على المصطبة الحجرية الواسعة المبنية عند احد المحاريب . كانت ، وسط النضارة والظلال ، تطالع او تعمل او تنساق للاحساس بالسكون المطبق ، ذلك الاحساس المعروف لكل شخص ، على ما يبدو ، وتكمن روعته في التوقع الابكم اللاشعوري تقريبا لموجة الحياة العريضة التي تنداح بلا انقطاع حولنا وفي دخيلتنا .

في اليوم التالي لوصول بازاروف جلست كاتيا على مصطبتها المفضلة ، وجلس اركادي قربها من جديد . فقد رجاها ان تصطحبه الى «الكاليرى» .

بقي على موعد الفطور زهاء الساعة . وحل الضحى اللافح محل الصباح الندي . وظل محيا اركادي محتفظاً بمسحة الامس ، وكانت كاتيا مهمومة . فبعد احتساء الشاي مباشرة استدعتها اختها الى مكتبها ونصحتها ، بعد شيء من الملاطفة التمهيدية (الامر الذي كان دوماً يخيف كاتيا لدرجة ما) بان تلتزم الحذر في سلوكها مع

اركادي ، وتتحاشى خصوصاً الاحاديث الانفرادية معه ، مما لاحظته خالتها وكل من في الدار كما زعمت . زد على ذلك ان آنا سيرغييفنا كانت معتكرة المزاج مساء امس ، بل وان كاتيا نفسها كانت تشعر بالخجل وكأنما اقترفت ذنباً . وعندما لبت طلب اركادي قطعت على نفسها عهدا بان تلك هي آخر مرة . وبدأ اركادي كلامه بشيء من الحياء وعدم التكلف في الوقت ذاته :

– كاتيا ! منذ ان اسعدني الحظ في التواجد واياك في دار واحدة تحدثت معك عن امور كثيرة ، بينما ظلت مسألة واحدة هامة جداً بالنسبة لي . . . لم اتناولها بعد . – ثم اضاف قائلاً وهو يلاحظ ويتحاشى نظرة كاتيا المتسائلة المسلطة عليه : – لقد قلت هنا امس انني تغيرت . وبالفعل فقد تغيرت لدرجة كبيرة ، وانت تعرفين ذلك افضل من اي انسان آخر ، فأنا مدين لك ، في الواقع ، بهذا التغير .

– انا ؟ . . لي ؟ . . – تمتمت كاتيا .

فواصل اركادي كلامه :

– انني لم اعد غلاماً متعجرفا كما كنت عندما وصلت الى هنا . وليس عبثاً اني بلغت الثالثة والعشرين . وانا لا ازال كالسابق راغباً في ان اغدو انساناً نافعاً وان اكرس كل قواي للحقيقة ، ولكنني لم اعد ابحث عن مثلي العليا حيثما كنت ابحث عنها في الماضي . فهي تلوح لي . . . اقرب بكثير . ولم اكن قبل الآن افهم نفسي ، فقد كنت اتوخى حل مهمات فوق طاقتي . . . وقد تفتحت عيناي مؤخراً بفضل شعور واحد . . . انني لا اتكلم بشكل واضح تماماً ، ولكنني آمل بأنك ستفهمينني . . .

لم تحر كاتيا جواباً ، ولكنها كفت عن التحديق في اركادي ، وتكلم هو من جديد بصوت اكثر اضطراباً ، في حين واصل شرشور بين اوراق البتولا ترتيل انشودته بلامبالاة :

– اعتقد ان من واجب كل انسان شريف ان يكون صريحاً منتهى الصراحة مع الناس الذين . . . مع الذين . . . وباختصار مع الاشخاص الاعزاء عليه ، ولذلك فاني . . . اني انوي . . .

وهنا خانت البلاغة اركادي ، فاضطرب وتلعثم واضطر الى الصمت قليلاً . لم ترفع كاتيا بصرها طوال الوقت . وبدا وكأنها

لم تفهم الامَ يقود محدثها هذا الكلام ، فظلت تنتظر شيئاً . ثم بدأ اركادي كلامه بعد ان استجمع قواه من جديد :

– اتوقع باني سأثير دهشتك . لاسيما وان هذا الشعور يمسك انت على نحو ما . . . لاحظي : على نحو ما . . . لقد لمتني امس ، حسبما اتذكر ، على قلة جديتي – واصل اركادي كلامه ومظهره يشبه مظهر شخص تورط في مستنقع وصار يشعر بأنه يغوص فيه مع كل خطوة يخطوها ، ولكنه مع ذلك يستعجل الى الامام على امل الخلاص بأسرع ما يمكن ، – ان هذه الملامة كثيراً ما توجه الى الشباب . . . وتسلط عليهم . . . حتى عندما لا يعودون يستحقونها . ولو كنت إمتلك المزيد من الثقة بالنفس . . . («ساعديني ، ساعديني قليلاً !» – فكر اركادي يائساً ، ولكن كاتيا ظلت كالسابق مشيحة بوجهها) ولو كان باستطاعتي ان آمل . . .

– لو كان باستطاعتي ان اثق بما تقول . . . – تهادى في تلك اللحظة صوت آنا سيرغييفنا الصافي .

صمت اركادي في الحال ، بينما شحب لون كاتيا . كان الممشى يحاذي الشجيرات التي تحجب الرواق . وكانت آنا سيرغييفنا تتمشى هناك بمرافقة بازاروف . وما كان بوسع كاتيا واركادي ان يرياهما ، ولكنهما سمعا كل كلمة ، مع حفيف الفستان ، بل وحتى الانفاس . سارا بضع خطوات وتوقفا ، كما لو كان ذلك عمداً ، في مواجهة الرواق مباشرة . وواصلت آنا سيرغييفنا كلامها :

– الا ترى اننا نحن الاثنين على خطأ ؟ لم نعد في ريعان الشباب ، وخصوصاً انا . عشنا عمراً ، وتعبنا ، وكلانا – فما الداعي للتواضع ؟ – ذكي ، فقد اهتممنا ببعضنا البعض في بادئ الامر ، وثار لدينا الفضول . . . وبعد ذلك . . .

– وبعد ذلك نفقت انا – عاجلها بازاروف .

– انت تعرف ان هذا ليس هو السبب في خلافنا . ومهما يكن من امر ، فالسبب الرئيسي هو اننا لم نكن بحاجة ماسة الى بعضنا البعض . ففينا الكثير من . . . التماثل ، ان صح القول . ولم نفهم ذلك في الحال . اما اركادي فعلى العكس . . .

– هل انت بحاجة اليه ؟ – سألها بازاروف .

– كفاك يا يفغيني فاسيليفيتش . انت تقول بانه يشعر بميل



نحوي . وقد خيل اليّ دوماً انه معجب بي . وانا اعلم بأني يمكن ان اكون بمثابة مربية له ، ولكن لا اخفي عليك انني صرت افكر به لدرجة اكبر . ففي هذا الشعور الفتي الغض شيء ما رائع . . .

– كلمة **جذاب** اكثر مناسبة لهذه الحال – قاطعها بازاروف ، وكانت فورة المرارة واضحة في صوته المكبوت الهادئ . – تحدث اركادي امس معي ببعض التحفظ فلم يقل شيئاً عنك ولا عن اختك . . . وتلك اشارة هامة .

فقالت آنا سيرغييفنا :

– انه يعامل كاتيا معاملة الاخ لاخته . وهذا شيء يعجبني فيه ، مع انه ربما لا يجدر بي ان اسمح بمثل هذا التقارب بينهما .

– هل ذلك هو شعور الاخت ازاء اختها ؟ – سأل بازاروف متمهلا .

– طبعاً . . . لماذا توقفنا ؟ فلنذهب . ما اغرب هذا الحديث بيننا ، أليس كذلك ؟ وهل كنت اتوقع بأني سأتحدث معك على هذا النحو ؟ انت تعرف بأني اخشاك . . . وانا في الوقت ذاته اثق بك لانك ، في الواقع ، طيب القلب تماماً .

– لست طيب القلب ابداً . هذا اولاً . وثانياً : لقد فقدت اية اهمية بالنسبة لك . ولذا تقولين بأني طيب القلب . . . لا فرق بين ذلك وبين وضع اكليل من الزهور على رأس الميت .

– يفغيني فاسيليفيتش ، ليست لدينا سلطة على . . . – تكلمت آنا سيرغييفنا ، الا ان الريح هبت ووشوشت الاوراق وطارت كلماتها بعيداً . ثم قال بازاروف بعد برهة :

– انت حرة طليقة .

ولم يعد بالامكان سماع الحوار ، فقد ابتعدت الخطوات . . . وسكن كل شيء .

التفت اركادي الى كاتيا وكانت جالسة بنفس الوضعية ، لكنها طأطأت رأسها بدرجة اكبر . فقال بصوت مرتعش وهو يشد يداً على يد :

– كاتيا ! احبك الى الابد دون رجعة ، ولا احب احداً غيرك . كنت اريد ان اقول لك ذلك واعرف رأيك فيه . انني التمس يدك لأني لست غنياً ولاني اشعر بالاستعداد لتحمل كل التضحيات . . .

لماذا لا تجيبين ؟ ألا تصدقينني ؟ هل تظنين بأني اقول شيئاً طائشاً ؟ ولكن تذكري هذه الايام الاخيرة ! أفلم تقتنعي من زمان بان كل شيء ما عداك ، افهميني ، كل شيء اختفى من زمان دون ان يترك اثراً ؟ تطلعي اليّ ، انطقي ولو بكلمة واحدة . . . انني احب . . . احبك . . . صدقيني !

ألقت كاتيا على اركادي نظرة صافية ذات شأن ، وكادت تبتسم بعد تأمل عميق ، ثم قالت :

– حسناً .

قفز اركادي من المصطبة :

– حسناً ؟ هل قلت : حسناً ، يا كاتيا ؟ ! ماذا تعني هذه الكلمة ؟ هل تعني اني احبك وانك تصدقينني ، أم . . . أم . . . ؟ انا اخشى من اكمال السؤال .

– حسناً – كررت كاتيا ، ولكنه فهمها هذه المرة . فتلقف يديها الكبيرتين الرائعتين وضغطهما على صدره وهو يتنفس بعسر من شدة التأثر والاعجاب . كانت ساقاه بالكاد تحملانه ، وراح يكرر : «كاتيا ، كاتيا . . .» . اما هي فقد بكت على نحو عذري ، ثم ضحكت بهدوء لدموعها . من لم ير مثل هذه الدموع فى عيني المحبوب لا يعرف ، بعد ، مدى السعادة التي يمكن للانسان على الارض ان يتذوقها وهو متجمد كلياً بسبب الامتنان والحياء .

فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي بعثت آنا سيرغييفنا في طلب بازاروف . حضر الى مكتبها فسلمته بضحكة متكلفة ورقة بريدية مطوية . وكانت تلك رسالة من اركادي يلتمس فيها يد اختها .

قرأ بازاروف الرسالة بلمح البصر وبذل جهده كي لا يعرب عن شعور الشماتة الذي استولى عليه في الحال . ثم قال :

– هكذا اذن . ولكنك ، كما يخيل اليّ ، كنت حتى يوم امس تعتقدين بأنه يحب كاتيا حب الاخ لاخته . فما الذي تنوين فعله الآن ؟

– ماذا تنصحني **انت** ؟ – سألته آنا سيرغييفنا وهي تتابع ضحكتها .

فأجابها بازاروف بضحكة ايضاً ، مع انه لم يكن مسروراً

ابداً ، وما كان راغباً في الضحك على الاطلاق ، كما لم تكن راغبةً فيه هي :

– اظن ان من الضروري تبريك الشابين . فهما زوج طيب من كل النواحي . ثروة كيرسانوف لا يستهان بها ، وهو وحيد ابيه ، ثم ان اباه طيب القلب ولن يعترض .

جابت اودينتسوفا الغرفة ، وكان الاحمرار والشحوب يتناوبان في الظهور على محياها . ثم قالت :

– هل تعتقد بذلك ؟ حسناً ! لا ارى مانعاً . . . وانا مسرورة لكاتيا . . ولاركادي نيكولايفيتش . . . بديهي انني سأنتظر جواب ابيه . وسوف ابعثه هو اليه . اتضح اني كنت بالامس على حق عندما قلت لك باننا لم نعد من الشباب . . . فكيف لم الحظ شيئاً ؟ ذلك ما يثير دهشتي !

ضحكت آنا سيرغييفنا من جديد واشاحت بوجهها في الحال .

فقال بازاروف وقد ضحك هو الآخر :

– اصبح شباب اليوم اكثر تحايلاً .

وبعد برهة من الصمت قال مجدداً :

– وداعاً . اتمنى لك ان تنجزي هذا الامر على افضل ما يكون . اما انا فسأفرح من بعيد .

– ماذا ؟ هل ستسافر ؟ ما الذي يمنعك **الآن** من البقاء ؟ ابق . . . فالحديث معك ذو شجون . . . كما لو كان المرء يسير على شفا هوة سحيقة . في البداية ينتابه الوجل ، وفيما بعد لا يدري من اين تأتيه الشجاعة . ابق .

– شكراً لك يا آنا سيرغييفنا على هذا العرض ، وعلى امتداح مواهبي الحوارية . ولكن يخيل اليّ اني صرفت وقتاً طويلاً جداً في التواجد في وسط غريب عليّ . فالأسماك الطائرة تستطيع البقاء في الجو بعض الوقت ، ولكنها سرعان ما تقع على الماء من جديد . فاسمحي لي ان اندفع انا ايضاً الى بيئتي .

تطلعت اودينتسوفا الى بازاروف . كانت ابتسامة ساخرة مريرة ترتسم على وجهه الشاحب المتشنج . وفكرت في نفسها «كان يحبني !» . واحست بالعطف عليه ، فمدت له يدها بشعور من الود .

فهمها هو ، فقال متراجعاً خطوة الى الوراء :

– كلا ! انني انسان فقير ، ولكنني لم اتقبل الصدقات حتى الآن . وداعاً يا سيدتي ، معك العافية .

فقالت آنا سيرغييفنا بحركة عفوية :

– انا واثقة من ان هذا ليس لقاءنا الأخير .

– ربما . فكل شيء ممكن في هذا العالم – اجاب بازاروف وانحنى لها وانصرف .

وفي اليوم ذاته قال لاركادي وهو جالس القرفصاء يعد حقيبته :

– ها قد صممت على بناء عش لك ، اليس كذلك ؟ لا بأس ، ذلك شيء حسن . ولكن عبثا تحايلت . كنت اتوقع منك وجهة اخرى تماماً . ام ان ذلك ربما كان مباغتاً لك ؟

فأجاب اركادي :

– لم اكن اتوقعه بالضبط عندما فارقتك . ولكن لماذا تتحايل انت وتقول «شيء حسن» ، كما لو اني لا اعرف رأيك بالزواج ؟

– آه ، يا صديقي العزيز ! ما هذه التعابير ؟ ! لاحظ ما افعل : في الحقيبة مكان فارغ وانا احشوه بالقش . وكذا الامر في حقيبة حياتنا ، نحشوها بأي شيء كان على شرط ان لا يظل فيها فراغ . لا تزعل ، ارجوك ، فأنت تتذكر ، على ما يبدو ، رأيي في كاتيا . فان سواها من الفتيات يشتهرن بالذكاء لمجرد انهن يتأوهن بذكاء . اما فتاتك فلن تتنازل عن حق لها ، بل وسوف تضبطك انت . وهذا امر طبيعي . – صفق غطاء الحقيبة ونهض – اما الآن فأكرر القول مودعاً . . . ولا داعي لخداع النفس : اودعك الى الابد . ولقد شعرت انت بذلك . . . وتصرفت بحصافة . فأنت لم تخلق لحياتنا المريرة اللاذعة ، حياة العزوبة . وليست فيك وقاحة ولا حقد ، بل لديك بسالة الشباب وحماس الشباب . وهذا امر لا يصلح لنا . فالنبلاء ، من امثالك ، لا يمكنهم ان يسيروا الى ابعد من الاستكانة الكريمة او الفوران الكريم ، بينما ذلك شيء تافه . وانتم ، مثلا ، لا تحاربون ، لكنكم تتصورون انفسكم فرساناً ، اما نحن فنبتغي المعركة حقاً . اين انت من ذلك ؟ ! ان غبارنا يؤذي عينيك ، واوساخنا تلوثك ، بل وانك لم تبلغ مستوانا ، فأنت معجب بنفسك عفوياً ، ويبعث السرور فيك كونك

تلوم نفسك بنفسك . ذلك شيء ممل بالنسبة لنا . فنحن بحاجة الى التنديد بالآخرين ! نحن بحاجة الى تحطيم الآخرين ! انك شاب رائع ، ولكنك ، مع ذلك ، مجرد نبيل لبرالي رقيق .
فتمتم اركادي حزيناً :
– تودعني الى الابد ، يا يفغيني ، وليست لديك كلمات اخرى تقولها لي ؟
حك بازاروف قفاه وقال :
– لديّ ، يا اركادي ، لديّ كلمات اخرى ، ولكني لن اقولها لأنها رومانسية ، بكل ما فيها من لطافة تافهة . ولكن عجل انت بالزواج وابن عشك ، وانجب المزيد من الاطفال . وسوف يكونون اذكياء لمجرد انهم سيولدون في الوقت المناسب ، وليس مثلما ولدنا انا وانت . اها ! ارى الخيول جاهزة . آن الاوان . لقد ودعت الجميع . . . ماذا ؟ هل نتعانق ؟
ارتمى اركادي على رقبة معلمه وصديقه السابق فانهمرت الدموع من عينيه .
وقال بازاروف بهدوء :
– ذلك هو فعل الفتوة ! انني اعلق آمالي على كاتيا . فسوف تواسيك بسرعة !
وعندما صعد الى العربة قال لاركادي :
– وداعاً يا اخي ! – ثم اشار الى زاغين جاثمين جنباً الى جنب على سقف الاسطبل واضاف قائلاً : – انظر ! وتعلم !
فسأل اركادي :
– ماذا يعني ذلك ؟
– كيف ؟ هل انت ضعيف الى هذا الحد في علم الطبيعة ؟ ام انك نسيت ان الزاغ افضل طير يحافظ على الاواصر العائلية ؟ اليك مثالاً يحتذى ! . . وداعاً ، سنيور !
هدرت العربة وتهادت .
لقد قال بازاروف الحقيقة . فعندما تحدث اركادي مع كاتيا في المساء نسي معلمه كلياً ، وصار يخضع لها بالتدريج . شعرت كاتيا بذلك ولم تستغرب له . كان يتعين عليه ان يرتحل في اليوم التالي الى مارينو ، الى نيكولاي بتروفيتش . ولم ترغب آنا سيرغييفنا في التضييق على الشابين ، لكنها لم تتركهما وحيدين

لأمد طويل بسبب من اللياقة لا غير . وقد ابعدت عنهما ، بكل لطف ، الاميرة التي تلقت نبأ الخطوبة بهياج ونحيب . في بادئ الامر كانت آنا سيرغييفنا تخشى ان يغدو منظر سعادتهما امراً ثقيلاً عليها بعض الشيء ، ولكن اتضح العكس تماماً : فهذا المنظر لم يثقل عليها ، بل شغلها وجعلها ، في الاخير ، اكثر حناناً . فرحت آنا سيرغييفنا لذلك واغتمت له في الوقت ذاته . وفكرت في نفسها : «يبدو ان بازاروف على حق . فليس هناك غير حب الاستطلاع ، والفضول ، والرغبة في الاستقرار ، والانانية . . .» . ثم قالت بصوت عال :
– اطفال ! فهل الحب شعور متكلف ؟
بيد ان كاتيا واركادي لم يفهماها . فقد غدت غريبة عليهما وظل عالقاً في بالهما الحوار الذي استمعا اليه دون قصد . وبالمناسبة فقد هدأتهما آنا سيرغييفنا في القريب العاجل . ولم يكن ذلك عسيراً عليها : اذ هدأت هي نفسها .

٢٧

سر العجوزان بازاروف لوصول ابنهما سروراً لا حدود له ، فلم يكونا يتوقعان وصوله . واضطربت آرينا فلاسيفنا وصارت تحوم في الدار الى درجة جعلت فاسيلي ايفانوفيتش يشبّهها «بالكروان» . وبالفعل كان الذيل الابتر في بلوزتها القصيرة يضفي عليها مسحة الطيور . اما هو فكان يتمتم ويعض على الطرف الكهرماني لغليونه الطويل ويدير رأسه ذات اليمين وذات الشمال ممسكاً عنقه بأصابعه وكأنما يجرب ما اذا كان رأسه مركباً عليه بالشكل اللازم ام لا . وكان يفتح فمه الواسع على حين غرة ويقهقه دون ضجيج .
وقال بازاروف الابن لأبيه :
– جئت ، يا شيخ ، لابقى عندك ستة اسابيع كاملة . اريد ان اعمل ، فلا تشوش عليّ من فضلك .
فأجاب فاسيلي ايفانوفيتش :
– سوف لن ترى وجهي . لن اشوش عليك مطلقا !

وقد وفى بوعده . فبعد ان اسكن ابنه فى مكتبه كالسابق ، كاد يختفي عنه وصار يمنع زوجته من التمادى فى ابداء حنانها . وقال لها : «كنا ، ايتها الام ، قد اضجرنا ينيوشا بعض الشيء في مجيئه الاول . اما الآن فينبغي ان نكون اكثر دهاء» . وافقت آرينا فلاسيفنا زوجها في الرأي ، ولكنها لم تربح الكثير من ذلك . اذ لم تعد ترى ابنها الا اثناء الطعام ، وصارت تخشى نهائياً التحدث معه . فما تكاد تقول «ينيوشا !» ، وما يكاد ابنها يلتفت اليها ، حتى تنهمك فى ملامسة شراريب حقيبتها وتمتم : «لا شيء ، لا اقصد شيئاً» . ثم تتوجه الى فاسيلي ايفانوفيتش وتقول له بعد ان تسند خدها الى يدها : «كيف لي ، يا عزيزي ، ان اعرف ما يشتهيه ينيوشا في الغداء اليوم ، هل يريد شوربة الكرنب ام حساء البنجر مع الكرنب ؟» . — «لماذا لا تسألينه بنفسك ؟» — «اخشى ان اضجره !» . الا ان بازاروف سرعان ما كف من تلقاء نفسه عن الاعتكاف : فقد **زايلته** حمى العمل وحل محلها ضجر كئيب وقلق مكتوم . ولوحظ ارهاق غريب في حركاته وسكناته ، وحتى مشيته الصلبة الجسورة السريعة قد تبدلت . لم يعد يتمشى على انفراد وصار ينشد المعاشرة . اخذ يحتسي الشاي فى غرفة الاستقبال ويتجول في البستان مع فاسيلي ايفانوفيتش ويدخن معه بصمت . واستفسر ذات مرة عن صحة الخوري الكسي . في بادئ الامر سر فاسيلي ايفانوفيتش لهذا التحول ، ولكن فرحته لم تطل . وصار يتشكى لزوجته هامساً : «ينيوشا يعذبني . لا اعتقد بانه مستاء او غير قانع . فذلك شيء هين . ولكن المصيبة هي انه متألم حزين . وصامت دوماً . فياليته يلومني ويلومك على الاقل . لقد اصابه الهزال وشحب لونه» . فهمست العجوز : «يا الهي ! يا الهي ! حبذا لو البست الطلسم على عنقه . ولكنه لن يسمح لي بذلك» . وحاول فاسيلي ايفانوفيتش عدة مرات ان يسأل ابنه بكل حذر عن عمله وعن صحته وعن اركادي . . . لكن بازاروف كان يجيبه باستهانة وعلى مضض . ذات مرة لاحظ بازاروف ان اباه يحاول ان يوجه الحديث معه بلطف الى وجهة معينة ، فقال له بكآبة : «لماذا تدور حولي وكأنك تسير على اطراف الاصابع ؟ هذه العادة اسوأ من سابقتها» . فأجاب فاسيلي ايفانوفيتش المسكين على عجل : «كيف ؟ انا لا اقصد شيئاً !» . وظلت عقيمة

ايضاً تلميحاته السياسية . فعندما تحدث ذات مرة عن قرب انعتاق الفلاحين وعن التقدم كان يأمل باثارة عطف ابنه ، ولكن هذا قال بلا اكتراث : «سمعت ابناء الفلاحين وانا اسير قرب السياج امس ينشدون بدلاً من الاغاني القديمة : **حان زمان الوداد ، والقلب ينبض بالهوى** . . . ذلك هو التقدم الذي تريده» .

كان بازاروف يتوجه احياناً الى القرية فيتحدث مع فلاح ما مازحاً كعادته . وكان يقول له : «اعرض عليّ ، ايها الاخ ، آراءك بشأن الحياة . ففيكم ، كما يقال ، كل قوة روسيا ومستقبلها ، وبكم سيبدأ عصر جديد فى التاريخ . سوف تمنحوننا اللغة الحقيقة والقوانين» . فيلزم الفلاح الصمت او يجيب بكلمات من نوع : «نحن نستطيع . . . كذلك ، لاننا ، يعنى . . . بقدر استطاعتنا» . وكان بازاروف يقاطعه : «ولكن حدثني عن عالمكم ، ما هو؟ هل هو ذلك العالم المستقر على قرن الثور ؟»

— الارض ، يا سيدي ، هي المستقرة على قرن الثور . — اوضح له الفلاح على نحو مسكّن وبلهجة ترتيلية خانعة ساذجة . — ومعروف ان ارادة الاسياد تواجهنا ، اي تواجه عالمنا . ولذا فأنتم آباؤنا واسيادنا . وكلما كان السيد متشدداً ، كان الفلاح مرتاحاً .

وبعد ان استمع بازاروف الى مثل هذا الحديث ذات مرة هز كتفيه احتقاراً واشاح بوجهه ، بينما عاد الفلاح ادراجه . فسأله فلاح آخر متوسط العمر متجهم الوجه كان قد استمع من بعيد ، من عتبة كوخه ، الى الحديث مع بازاروف :

— عم تحدثتما ؟ عن الضريبة المستحقة ؟

— اية ضريبة يا اخي العزيز ؟ ! — اجابه الفلاح الاول ولم يعد في صوته اثر للهجة الترتيلية الخانعة ، بل ترامت منه لهجة مستهينة قاسية — ثرثر شيئاً ما ، اراد ان يحك لسانه . امر معروف . فهو سيد ، وهل يفهم السيد شيئاً ؟

— من اين له ان يفهم ؟ ! — اجاب الفلاح الثاني . ونفض كلاهما قبعتيهما وأرخيا زناريهما وراحا يتحدثان عن شؤونهما وحاجاتهما . اما بازاروف المتكابر هذا الذي هز كتفيه احتقاراً والذي يجيد الكلام مع الفلاحين (كما تفاخر في جداله مع بافل بتروفيتش) فلم يكن حتى ليتصور بانه بدا في انظارهما مجرد بهلول لا اكثر . . .

بيد انه عثر في آخر المطاف على ما يشغل به نفسه . ذات مرة ضمد فاسيلي ايفانوفيتش بحضوره رجل فلاح جريح ، ولكن يدي العجوز كانتا ترتعشان فلم يفلح في شد الضماد ، لذا ساعده ابنه ، ومنذ ذلك الحين اخذ يساهم في عمل ابيه دون ان يكف في الوقت ذاته عن التهكم على الوسائل التي ينصح بها هو وعلى ابيه الذي يستخدمها في الحال . الا ان تهكم بازاروف لم يكن يربك فاسيلي ايفانوفيتش قيد شعرة ، فقد وجـد فيه مسرة . كان يمسك رداءه المنزلي الملوث باصبعين على بطنه ويأخذ انفاساً من غليونه وهو يستمع بمتعة الى بازاروف . وكلما كانت تهجماته اشد كان ابوه السعيد يقهقه بطيبة قلب اكبر فيكشف عن جميع اسنانه السوداء بلا استثناء . وكان يستعيد هذه التهجمات البليدة احياناً او الخالية من المعنى ، ويظل طوال عدة ايام يكرر ، مثلا ، بمناسبة وبغير مناسبة : «تلك قضية لا جدوى فيها !» ، وذلك لمجرد ان ابنه استخدم هذا التعبير عندما علم بان اباه كان يتوجه لاداء صلاة الصبح . وهمس فاسيلي ايفانوفيتش لزوجته : «الحمد لله ! لم يعد كئيباً ! لو تعلمين كيف لامني اليوم . انه معجزة !» . وكانت مشاعر الافتخار والاعتزاز تستحوذ عليه عندما يتذكر ان له معاوناً كهذا . وكان يقول لفلاحة ما ترتدي قفطاناً رجالياً وقبعة ذات نتوءات ، وهو يسلمها قنينة ماء هوليارد او علبة مروخ البنج : «اجل ، اجل ، عليك يا عزيزتي ان تحمدي الله كل لحظة لان ابني قد حل ضيفاً عليّ : فنحن نعالجك الآن بأحدث طريقة علمية ، هل انت فاهمة ؟ وحتى امبراطور الفرنسيين نابليون لا يملك طبيباً افضل» . اما الفلاحة التى جاءت تتشكى من «مغص في البطن» (وهي نفسها لا تفهم معنى هذه الكلمات) فكانت تنحني احتراماً وتدس يدها فى عبها كي تستخرج اربع بيضات ملفوفة بطرف منشفة .

ذات مرة اقتلع بازاروف سناً لبائع متجول ، ومع ان هذه السن هي من الاسنان العادية ، فان فاسيلي ايفانوفيتش احتفظ بها كتحفة نادرة ، وعرضها على الاب الكسي وراح يكرر بلا كلل :

— انظر الى جذورها ، ما اقواها ! وما اقوى يفغيني ! لقد تطاير البائع في الجو . . . ويخيل اليّ انه لو كان شجرة بلوط لتطاير ايضاً ! . . .

— شيء يستحـــق المديـــح ! — قال الاب الكسي اخيرا دون ان يعلم كيف يجيب وكيف يتخلص من العجوز وهو في اوج حماسه .

ذات مرة احضر فلاح مـــن القريـــة المجاورة اخاه المصاب بالتيفوئيد الى فاسيلي ايفانوفيتش . كان المريض التعيس يحتضر وهو منبطح على حزمة قش ، وقد اغمي عليه من زمان ، وغطت بقع قاتمة جسده . اعرب فاسيلي ايفانوفيتش عن اسفه لان احداً لم يفكر بالاستفادة من الاسعاف الطبي قبل الآن واعلن عن استحالة انقاذ المريض . وبالفعل فقد قضى نحبه في عربة النقل قبل ان يصل به اخوه الى داره .

وبعد ثلاثة ايام دخل بازاروف على ابيه فى غرفته وسأله عما اذا كان عنده حجر جهنم .

— نعم . ما حاجتك اليه ؟

— يلزمني . . . في كيّ جرح .

— جرح من ؟

— جرحي .

— جرحك ؟ ! كيف ؟ اي جرح ؟ اين هو ؟

— هنا . على الاصبع . توجهت اليوم الى القرية التى احضروا منها الفلاح المصاب بالتيفوئيـــد . ولسبب ما قرروا هناك ان يشرحوه . اما انا فلم اتمرن على التشريح من زمان .

— ثم ماذا ؟

— لذا طلبت من طبيب القضاء ان يسمح لي بالتشريح ، فجرحت اصبعي .

شحب لون فاسيلي ايفانوفيتش على الفور ، ولم ينبس ببنت شفة . هرع الى مكتبه وعاد في الحال يحمل قطعة صغيرة من حجر جهنم . هم بازاروف بان يأخذ الحجر ويخرج ، ولكن فاسيلي ايفانوفيتش قال :

— بالله عليك ، اسمح لي ان افعل ذلك بنفسي .

ضحك بازاروف ساخراً :

— ما اشد رغبتك في الممارسة !

— لا تمزح ، رجاء . ارني اصبعك . الجرح طفيف . الا يؤلمك ؟

— اضغط بشدة ، لا تخش شيئاً .

توقف فاسيلي ايفانوفيتش :

– ماذا تعتقد يا يفغيني ، أليس الافضل كيّه بالحديد ؟

– كان ينبغي القيام بذلك في حينه . اما الآن فحتى حجر جهنم لا يفيد في الواقع . فاذا كنت قد اصبت بالعدوى فقد فات الاوان .

– كيف . . . فات الاوان . . . – نطق فاسيلي ايفانوفيتش بالكاد .

– كيف لا ؟ ! مر على ذلك اكثر من اربع ساعات .

كوى فاسيلي ايفانوفيتش الجرح بقدر اكبر وقال :

– الم يكن لدى طبيب القضاء حجر جهنم ؟

– كلا .

– كيف ، يا إلهي ؟ ! طبيب ولا يمتلك هذا الشيء الضروري .

– يا ليتك رأيت مباضعه ! – قال بازاروف وانصرف .

ظل فاسيلي ايفانوفيتش حتى ساعة متأخرة من المساء وطوال النهار التالي يتحجج بأية وسيلة ممكنة لدخول غرفة ابنه ، ومع انه لم يكن يلمح الى الجرح ، بل يحاول التحدث عن امور ثانوية تماماً ، فانه كان يحدق في عيني ابنه باصرار ويراقبه بقلق حتى نفد صبر بازاروف وهدده بالسفر . قطع فاسيلي ايفانوفيتش عهداً بانه لن يقلق ، لاسيما وان آرينا فلاسيفنا التي اخفى عنها هو كل شيء طبعاً ، اخذت تلاحقه متسائلة عما حدث له وعن السبب في عدم نومه . في غضون يومين كاملين كان يتشجع بالرغم من ان مظهر ابنه الذي تفحصه خلسةً طوال الوقت لم يكن يرضيه تماماً . . . ولكن صبره نفد في اليوم الثالث اثناء الغداء . فقد جلس بازاروف مطأطأ الرأس ولم يمس شيئاً من طعام .

– لِمَ لا تأكل يا يفغيني ؟ – سأله ابوه متظاهراً بعدم القلق – الطعام ، على ما اعتقد ، قد اعد جيداً .

– لا اشتهي ، فلن آكل .

– هل انعدمت شهيتك ؟ ورأسك ؟ هل يوجعك ؟ – اضاف الاب بوجل .

– يوجعني . فما الذي يجعله لا يوجعني ؟

عدلت آرينا فلاسيفنا قامتها وتأهبت . وواصل فاسيلي ايفانوفيتش كلامه :

– ارجوك ، يا يفغيني ، لا تزعل . هلا سمحت بان اجس نبضك ؟

نهض بازاروف :

– اقول لك ان حرارتي مرتفعة حتى بدون جس النبض .

– وهل شعرت بقشعريرة ؟

– اجل . انا ذاهب لارقد ، فارسلوا لي قدحاً من نقيع الزيزفون . اصبت بزكام ولا بد .

– لذا سمعتك البارحة تسعل – قالت آرينا فلاسيفنا .

– اصبت بزكام – كرر بازاروف وانصرف .

انشغلت آرينا فلاسيفنا باعداد نقيع زهر الزيزفون ، بينما دخل فاسيلي ايفانوفيتش الغرفة المجاورة وتشبث بشعر رأسه صامتاً .

لم ينهض بازاروف في ذلك اليوم وقضى ليلته كلها في وسن ثقيل يشبه الاغماء . بُعيد منتصف الليل فتح عينيه بمشقة فرأى في ضوء القنديل وجه ابيه الشاحب محنياً عليه وامره بالانصراف ، فلبى هذا امره ولكنه عاد في الحال على اطراف اصابعه واطل من وراء باب الخزانة وظل يتطلع الى ابنه طوال الوقت . لم تنم آرينا فلاسيفنا هي الاخرى ، فقد فتحت باب المكتب بعض الشيء وصارت تتردد بين الفينة والاخرى لتسمع «كيف يتنفس ينيوشا» وتلقى نظرة على فاسيلي ايفانوفيتش . كانت ترى فقط ظهره المحدودب الجامد ، ولكن ذلك بحد ذاته كان يخفف عليها احزانها لدرجة ما . في الصباح حاول بازاروف ان ينهض ، لكن الدوار ألم به ونزف الدم من انفه فرقد من جديد . وكان فاسيلي ايفانوفيتش يرعاه بصمت . دخلت عليه آرينا فلاسيفنا فسألته عن حاله ، فأجاب : «احسن» ، واستدار نحو الجدار . اومأ فاسيلي ايفانوفيتش لزوجته ايماءة غاضبة بكلتا يديه ، فعضت هي على شفتها كيلا تنتحب وانصرفت . احلولك كل ما في الدار فجأة ، واغتمَّت كل الوجوه وخيم سكون غريب . ونقل من الباحة الى القرية ديك مصياح لم يفهم لامد طويل لماذا تصرفوا معه على هذا النحو . ظل بازاروف راقداً ووجهه الى الجدار . حاول فاسيلي ايفانوفيتش ان يوجه اليه اسئلة مختلفة ولكنها كانت ترهقه ، فتسمر العجوز في مقعده ، واكتفى بطقطقة اصابعه احياناً . كان يتوجه

للحظات الى البستان فيقف هناك متجمداً كما لو ان حدثاً لا مثيل له اثار دهشته (وكانت الدهشة الشديدة لا تفارق وجهه) ثم يعود الى ابنه من جديد متحاشياً تساؤلات زوجته . واخيراً امسكت بيده وسألته بارتعاشة وبشيء من التهديد : «ماذا به ؟» . تنبه الاب في الحال وحمل نفسه على الابتسام رداً على سؤالها . بيد انه ، ويا للفظاعة ، اطلق ضحكة عفوية بدلاً من الابتسامة . كان قد بعث في طلب الطبيب منذ الصباح . ورأى ان من الضروري اخبار ابنه بذلك كيلا يزعل .

استدار بازاروف على الاريكة فجأة واخذ يحدق في ابيه ببلادة وطلب ماء .

قدم له فاسيلي ايفانوفيتش قدح الماء ولمس جبهته عرضاً . كانت ملتهبة للغاية .

فقال بازاروف بصوت بطيء ابح :

— يا شيخ ، حالتي سيئة جداً . اصبت بالعدوى . وسوف تدفنني بعد بضعة ايام .

ترنح فاسيلي ايفانوفيتش كما لو ان احداً ضربه على رجليه . ثم تمتم :

— يفغيني ! ما هذا الكلام ! . . سامحك الله ! لقد اصبت بالبرد لا اكثر . . .

— كفاك — قاطعه بازاروف على مهل — لا يجوز للطبيب ان يتكلم هكذا . كل اعراض العدوى موجودة ، وانت تعرف ذلك بنفسك .

— اين هي اعراض ال . . . عدوى ؟ عفوك يا يفغيني !

— فما هذا اذن ؟ — قال بازاروف ورفع ردن قميصه وعرض على ابيه البقع الحمراء الفظيعة التي ظهرت واضحة .

ارتعد فاسيلي ايفانوفيتش واقشعر من الرعب . ثم قال في الاخير :

— لنفرض ، لنفرض . . . حتى . . . ولو كان هناك شيء من قبيل . . . العدوى . . .

— تقيح الدم — قال الابن مصححاً .

— نعم . . . من قبيل . . . العدوى . . .

— **تقيح الدم** — كرر بازاروف بوضوح وصرامة — ام انك نسيت دفاترك الطبية ؟

— اجل ، اجل ، كما تشاء . . . ومع ذلك فسوف نعالجك !

— هيهات ! ولكن القضية ليست في ذلك . فأنا لم اكن اتوقع بأني سأموت بهذه العجالة . تلك صدفة ، وصدفة ، اذا قلنا الحق ، غير سارة ابداً . عليك الآن مع امي ان تستفيدا من قوة الدين فيكما ، وهذه فرصة سانحة لكي تجرباه . — ارتشف قليلاً من الماء وواصل كلامه : — لديّ اليك رجاء . . . ما دمت لا ازال مسيطراً على افكاري . فغداً او بعد غد سيحيل دماغي نفسه على التقاعد كما تعلم . وانا الآن ايضاً لست واثقاً تماماً مما اذا كنت اتكلم بوضوح ام لا . فطوال رقادي خيّل اليّ ان كلاباً حمراء تتراكض حولي وانك خيمت عليّ كما لو اني دجاجة برية سوداء ، وأنا الآن كالمخمور . هل تفهمني جيداً ؟

— بالطبع يا يفغيني ، انك تتكلم على ما يرام تماماً .

— ذلك افضل . قلت لي انك بعثت في طلب الطبيب . . . لقد هدأت نفسك بذلك . . . اما الآن فهدئني أنا : ابعث رسولاً . . .

— في طلب اركادي نيكولايفيتش — عاجله العجوز .

— من هو اركادي نيكولايفيتش هذا ؟ — قال بازاروف كما لو كان يتأمل — آ ، اجل ! ذلك الفرخ ! كلا ، لا تمسه ، اصبح زاغاً . ولا تستغرب ، فليس ما اقوله هذياناً . ابعث رسولاً الى اودينتسوفا ، الى آنا سيرغييفنا . . . تلك الاقطاعية ، هل تعرفها ؟ (هز فاسيلي ايفانوفيتش رأسه بالايجاب) . وليقل لها ان يفغيني بازاروف يبعث اليها بالتحية وانه يحتضر . هل ستنفذ طلبي ؟

— سأنفذه . . . ولكن هل يجوز ان تموت انت ، انت يا يفغيني . . . حكّم عقلك ! فأين هي العدالة اذن ؟

— ذلك امر لا علم لي به . ولكن ابعث الرسول .

— سأبعثه في الحال ، وسأكتب لها رسالة .

— كلا . لا داعي للرسالة . فليقل بأني ابعث اليها بالتحية ولا شيء آخر . اما انا فسأعود من جديد الى كلابي . ما اغرب

الامر ! اريد ان اوقف التفكير بالموت ، ولكنني لا استطيع . لا ارى غير بقعة ما . . .

استدار بعسر الى الجدار من جديد ، فخرج فاسيلي ايفانوفيتش من المكتب ، وحالما وصل الى غرفة زوجته انهار على ركبتيه امام الايقونات . ودمدم بأنين :

– ابتهلي ، يا آرينا ، ابتهلي ! ابننا يحتضر .

وصل الطبيب ، طبيب القضاء الذي لا يملك حجر جهنم . ففحص المريض ونصح بالانتظار وقال في الحال بضع كلمات عن احتمال الشفاء . فسأل بازاروف :

– هل صادف وان رأيت اناساً في مثل حالتي لم يتوجهوا الى «دار الخلود» ؟

ثم امسك فجأة بقائمة الطاولة الثقيلة الموجودة قرب الاريكة وهز الطاولة وزحزحها من مكانها . وقال :

– لا ازال قوياً ، بينما يتعين عليّ ان اموت ! .. . ذلك الفلاح العجوز استطاع على الاقل ان يمل من الحياة ، اما أنا . . . ولكن من يتجرأ على رفض الموت ؟ ! فهو يرفضنا وكفى ! – واضاف بعد لحظة : – من ينتحب هناك ؟ امي ؟ يا للمسكينة ! فمن الذي ستطعمه بعد الآن حساء الكرنب المدهش ؟ وانت ، يا فاسيلي ايفانوفيتش ، تبكي ايضاً كما يخيل اليّ ؟ فما دامت المسيحية لا تعينك حاول ان تكون فيلسوفاً ، رواقياً على الاقل ! الم تكن تتباهى بأنك فيلسوف ؟

– اي فيلسوف أنا ؟ ! – جأر فاسيلي ايفانوفيتش وانهمرت الدموع على خديه

اخذت حالة بازاروف تتدهور ساعة بعد ساعة ، واستفحل المرض على نحو سريع ، مما يجري عادة في حالات التسمم الجراحي . لم يكن قد فقد وعيه بعد . وكان يفهم ما يقال له ، ولا يزال يصارع الموت . همس شاداً على قبضته : «لا اريد ان اهذي ، فما اسخف ذلك !» ، ولكنه قال في الحال : «اذا خصمنا عشرة من ثمانية فكم يبقى ؟» . كان فاسيلي ايفانوفيتش يجول كالمجنون وهو يعرض هذه الوسيلة او تلـك ويغطي رجلي ابنه طوال الوقت . وكان يقول بانفعال : «ينبغي لفه بشراشف باردة . . . واستخدام المقيئات . . . واللصقات على البطن . . . وفصـد

الدم» . وكان الطبيب الذي استعطفه كي يبقى يرد عليه بالايجاب ويسقى المريض شراب الليمون ، ويطلب تارة غليوناً وتارة ما «يقويه ويدفئه» هو ، اي الفودكا . وجلست آرينا فلاسيفنا على مصطبة واطئة قرب الباب ، ولم تغادر مكانها الا لتصلي بين حين وآخر . فقبل بضعة ايام انزلقت من يديها مرآة الزينة وتحطمت ، بينما اعتادت هي على اعتبار ذلك فألاً سيئاً . ولم تستطع حتى انفيسوشكا ان تقول لها شيئاً . اما تيموفييتش فقد توجه الى اودينتسوفا .

قضى بازاروف ليلة سيئة . . . فقد عذبته حمى قاسية ، وعند الفجر تحسنت حاله شيئاً فطلب من آرينا فلاسيفنا ان تمشط له شعره وقبّل يدها واحتسى جرعتين من الشاي . وانتعش فاسيلي ايفانوفيتش بعض الشيء فقال :

– الحمد لله ؟ حل البحران . . . وانتهى .

فقال بازاروف :

– ما اشد تأثير الكلمة ! عثر عليها فقال : «البحران» وهدأ باله . لا يزال الانسان يؤمن بالكلمات . شيء مدهش . فاذا نعتوه ، مثلاً ، بالاحمق ولم يضربوه اكتأب ، واذا امتدحوا ذكاءه ولم يعطوه مالاً شعر بالارتياح .

تأثر فاسيلي ايفانوفيتش لخطبـة بازاروف المقتضبة هذه والتي تشبه «تهجماته» السابقة ، فهتف متظاهراً بالتصفيق :

– عظيم !

ابتسم بازاروف بحزن ، ثم قال :

– ماذا تعتقد ؟ هل انتهى البحران ام حل ؟

– حالك افضل . هذا ما اراه وهذا ما يفرحني – اجاب فاسيلي ايفانوفيتش .

– حسناً . الفرحة لا تضر مطلقاً . ولكن هل بعثت في طلب تلك ؟ أتذكر ؟

– بعثت بالطبع .

لم يستمر التغير نحو الافضل امداً طويلاً . فقد تكررت نوبات المرض . وجلس فاسيلي ايفانوفيتش ازاء بازاروف . وبدا العجوز وكأن ألما شديداً ينهشه . همّ بالكلام مراراً ولكنه كان عاجزاً عن النطق . ثم قال اخيراً :

– يفغيني ! يا ولدي ، يا عزيزي ، يا حبيبي !
اثرت هذه المناجاة غير المعتادة على بازاروف . . . فرفع رأسه قليلا كي يتخلص على ما يبدو من الغيبوبة التي ارهقتـــه وقال :
– ماذا يا ابتي ؟
واصل فاسيلي ايفانوفيتش كلامه وركع امام بازاروف بالرغم من ان هذا لم يفتح عينيه ولم يكن بوسعه ان يراه :
– يفغيني ، يا يفغيني ! حالك الآن افضل ، وسوف تشفى بعون الله . ولكن انتهز هذه الفرصة وابعث السلوى في نفس امك ونفسي وأدِ واجب المسيحي ! ما اصعب عليّ ان اقول لك ذلك ، انه امر فظيع . . . والافظع منه . . . انه الى الابد ، يا يفغيني . . . فكر في الامر ، ما افظعه . . .
تقطع صوت العجوز بينما انسحبت مسحة غريبة على وجه ابنه بالرغم من ان عينيه ظلتا مغمضتين . وقال اخيراً :
– لا ارفض اذا كان ذلك يبعث السلوى فيكما . ولكن يخيل اليّ انه لا داعي للاستعجال . فأنت نفسك تقول ان حالتي غدت افضل .
– افضل ، يا يفغيني ، افضل ، ولكن من يدري ؟ كل شيء بيد الله . اما الذي يؤدي واجبه . . .
– كلا . سأنتظر قليلاً – قاطعه بازاروف – انا متفق معك بان البحران قد حل . واذا كنا على خطأ ، فما العمل ؟ فالقرابين تستلم حتى ممن هم في غيبوبة .
– ماذا تقول يا يفغيني ؟ . .
– سأنتظر . اما الآن فأريد ان انام . لا تزعجني .
وهبط رأسه على الوسادة .
نهض العجوز فجلس على المقعد وامسك بذقنه وراح يعض على اصابعه . . .
طرقت سمعه فجأة طقطقة مركبة ذات نوابض ، وهي طقطقة مسموعة خصوصاً في سكون الارياف . كانت العجلات الخفيفـــة تقترب اكثر فأكثر ، وها قد ترامى اليه نخير الخيـــول . نهض فاسيلي ايفانوفيتش على عجل واندفع الى النافذة . دخلت باحة داره مركبة ذات مقعدين تجرها اربعة خيول . فهرع الى الباحة في غمرة

فرحة خرقاء دون ان يميز من هو القادم . فتح خادم ببزة رسمية باب المركبة فظهرت منها سيدة بوشاح اسود وبدلة سوداء . . .
– انا اودينتسوفا . يفغيني فاسيليفيتش على قيد الحياة ؟ انت ابوه ؟ احضرت معي طبيباً .
– سيدتي الكريمة ! – هتف فاسيلي ايفانوفيتش وتلقف يدها وضغطها بارتعاش الى شفتيه ، في حين نزل من المركبة على مهل طبيب قميء بملامح المانية يرتدي نظارات ، – لا يزال حياً ، ولدي يفغيني حي ، وسوف يحيا ! . . يا زوجتي ! هبط علينا ملاك من السماء . . .
– ماذا ؟ يا إلهي ! – تمتمت العجوز راكضة من غرفـــة الاستقبال وسقطت في الحال عند قدمي آنا سيرغييفنا دون ان تفهم شيئاً وراحت تقبل اذيال بدلتها كالمجنونة .
– لا داعي لذلك ! لا داعي ! – قالت آنا سيرغييفنا ، بيد ان آرينا فلاسيفنا لم تكن تسمعها ، في حين راح فاسيلي ايفانوفيتش يكرر : «ملاك ! ملاك !»
– (اين المريض) * ؟ اين هو ؟ – سأل الطبيب اخيراً بشيء من الغضب .
فعاد فاسيلي ايفانوفيتش الى رشده وقال :
– هنا ، هنا ، تفضل واتبعني – واضاف ممـــا يتذكره بالالمانية : (ايها الزميل المحترم) ** .
– آ – قال الالماني وابتسم بتكشيرة ذاوية .
اقتاده فاسيلي ايفانوفيتش الى المكتب . وانحنى على اذن ابنه حتى لامسها وقال :
– طبيب من آنا سيرغييفنا اودينتسوفا . وهي هنا ايضاً .
فتح بازاروف عينيه فوراً :
– ماذا قلت ؟
– قلت آنا سيرغييفنا اودينتسوفا هنا وقد احضرت اليك هذا السيد الطبيب .
نظر بازاروف الى ما حواليه :

---

* في الاصل بالالمانية Wo ist der Kranke?
** Wertester Herr Collega

– انها هنا . . . اريد ان اراها .

– ستراها ، يا يفغيني ، ولكن يتعين في البداية التكلم مع السيد الطبيب . سأحدثه عن سير المرض لان طبيب القضـــاء ارتحل ، وسوف نتشاور بعض الشيء .

– لا بأس ، تحدثا على عجل ، ولكن ليس باللاتينية ، فأنا افهم ما تعنيه (jam moritur) * .

وبدأ الطبيب الجديد كلامه مخاطباً فاسيلي ايفانوفيتش :

– (يبدو انك تجيد الالمانية يا سيدي) ** .

– (عندي . . . لديّ . . .) *** ، ولكن حبذا لو تكلمت بالروسية .

فقال الطبيب بروسية ركيكة :

– آ ! هكذا اذن . . . لعل . . .

وبدأ التشاور .

بعد نصف ساعة دخلت آنا سيرغييفنا المكتب بصحبة فاسيلي ايفانوفيتش . وتسنى للطبيب ان يخبرها همساً بانه لا امل مطلقاً في شفاء المريض .

نظرت الى بازاروف . . . فتوقفت عند الباب لشد ما ادهشها وجهـــه الملتهب والمحتضر في الوقت ذاته بعينيه الغائمتين المتجهتين صوبها . لقد ارعبها خوف بارد مرهق . ولاحت في ذهنها للحظة فكرة : ربما شعرت بشيء آخر لو كانت تحبه حقاً .

فقال هو بجهد :

– شكراً ، لم اكن اتوقع ذلك . فعلت خيراً . ها قد التقينا من جديد كما وعدت انت .

فقال فاسيلي ايفانوفيتش :

– ما اطيب آنا سيرغييفنا .

– اتركنا يا ابتي . هل تسمحين يا آنا سيرغييفنا ؟ يخيّل اليّ الآن . . .

---

* يحتضر .

** في الاصل بالالمانيـــة Der Herr scheint des Deutschen mächtig zu sein .

*** في الاصل بالالمانية ich habe .

واومأ برأسه الى بدنه المسجى العاجز .

انصرف فاسيلي ايفانوفيتش . فكرر بازاروف :

– شكراً . لقد فعلت كما يفعل القياصرة . يقال ان القياصرة ايضاً يعودون المحتضرين .

– يفغيني فاسيليفيتش ، آمل . . .

– آه ، يا آنا سيرغييفنا . فلنقل الحقيقة . لقد انتهيت . وقعت تحت العجلـــة . ولذا ما كان هناك داعٍ للتفكير في المستقبل . الموت شيء قديم ، الا انه يداهم كل شخص بشكل جديد . لم اجبن حتى الآن . . . وستحل الغيبوبة ، ثم النهاية ! (لوح بيده تلويحة يائسة واهنة) . فما الذي ينبغي ان اقوله لك . . . كنت احبك ! وما كان لهذا الامر اي معنى في السابق ، وليس له اي معنى الآن بالطبع . فالحب مجرد شكل ، اما شكلي انا فقد اخذ يتفسخ . الافضل ان اقول : ما اروعك ! انك الآن ايضا جميلة . . . ما احلاك . . .

ارتعشت آنا سيرغييفنا عفوياً .

– لا تقلقي . . . اجلسي هناك . ولا تقتربي مني ، فان مرضي معد .

اجتازت آنا سيرغييفنا الغرفة مسرعة وجلست على المقعد قرب الاريكة التي يرقد عليها بازاروف . فهمس هو :

– ما انبلها ! آه ، ما اقرب ذلك ! وما اشد فتوتها ونضارتها وصفاءها . . . في هذه الغرفة الكريهة ! . . وداعاً ! عيشي طويلاً ، فذلك افضل شيء ، وتمتعي ما دام في الوقت متسع . انظري ما افظع هذا المشهد : دودة تكاد تكون مسحوقة ولكنها لا تزال مغرورة . ألم اكن افكر بأني سأنجز اعمالاً كثيرة ولن اموت ؟ فأين مني الموت ؟ لديّ مهمـــة ، وانا جبار ! اما الآن فان كل مهمة هذا الكائن الجبار تتلخص في ان يقضي نحبه بشكل لائق ، مع ان ذلك لا يشغل بال احد . . . غير انني ، رغم كل شيء ، لا اخاف . . .

صمت بازاروف واخذ يتلمس قدحه بيده . فناولته آنـــا سيرغييفنا اياه دون ان تخلع قفازها وهي تتنفس بخوف . وتكلم هو من جديد :

– سوف تنسينني . فلا رفقة بين الميت والحي . وسوف

يقول لك ابي ، مثلاً ، ما اعظم خسارة روسيا بفقداني . . . ذلك هراء ، ولكن لا تثنيه عن اعتقاده . فليكن ذلك على الاقل مبعثاً للسلوى في نفسه . . . حاولي ان تداري امي ايضاً . ففي مجتمعك الراقي الكبير لن تجدي اناساً مثلهما ابداً . . . هل ان روسيا بحاجة الي ، يا ترى ؟ . . كلا ، ليست بحاجة الي ، على ما يبدو . فمن هي بحاجـــة اليه ؟ انها بحاجـــة الى الاسكافي والخياط والقصاب . . . يبيع اللحوم . . . والقصاب . . . عفواً ، بدأت افكاري تتشوش . . . هناك غابة . . .

وضع بازاروف يده على جبينه .

وانحنت عليه آنا سيرغييفنا :

— يفغيني فاسيليفيتش ، انا هنا . . .

سحب يده فوراً ونهض قليلاً ، فقال بقوة مفاجئة ولمعت عيناه بآخر بريق :

— وداعاً ، وداعاً . . . اسمعي . . . انني لم اقبلـــك آنذاك . . . فانفخي على القنديل المحتضر كي ينطفئ . . .

لامست آنا سيرغييفنا جبينه بشفتيها فقال :

— كفاية !

وهبط على الوسادة :

— الآن . . . حل الظلام . . .

انصرفت آنا سيرغييفنا بهدوء . فسألها فاسيلي ايفانوفيتش همساً : — ماذا ؟

— غفا — اجابت بصوت يكاد لا يسمع .

ما كان مقدراً لبازاروف ان يستيقظ . فعند المساء غط في غيبوبة مطبقة ، وفي اليوم التالي قضى نحبه . ادى الاب الكسي الطقوس الدينية اللازمة . وعندما جرى تطهيره ولامس الزيت المقدس صدره تفتحت احدى عينيه وخيل للحاضرين ان شيئاً ما يشبه ارتعاشة الرعب انعكس ، للحظة ، على وجهه الجامد ، من رؤية القس بغفارته الكهنوتية والمبخرة المدخنة والشموع امام الايقونة . وعندما لفظ النفس الاخير وعم الدار العويل استولى على فاسيلي ايفانوفيتش هياج مباغت فراح يصرخ بصوت مبحـــوح وبوجه ملتهب معوج ، ويهز قبضته في الهواء كأنه يهدد احداً : «قلت بأني سأثور ، وسأثور ، سأثور !» . الا ان آرينا فلاسيفنا

تعلقت بعنقه والدموع تنهمر من عينيها ، وانكب كلاهما على وجهه . وفيما بعد تحدثت انفيسوشكا في غرفة الخدم فقالت: «نكسا رأسيهما جنباً الى جنب كنعجتين في الظهيرة . . .»

غير ان قيظ الظهيرة يتبدد ويحل المساء ثم الليل ، وعندها تحين العودة الى المأوى الهادئ حيث يحلو المنـــام للمتعبين والمرهقين . . .

٢٨

مضت ستة شهور . خيم الشتاء بصقيعه الصامت القارس الصافي وثلجه الصرار ونداه الوردي المتجمد على الاشجار وسمائه الزمردية الشاحبة ، واكاليل الدخان فوق المداخن واعمدة البخار المتصاعدة من الابواب التي لا تفتتح الا لماماً ، ووجوه الناس الغضة وعناء الجياد المقشعرة من البرد . اشرف ذلك اليوم من شهر يناير على الافول ، وعصر برد المساء الهواء الساكن وضغطه بمزيد من الشدة . وانطفأ الغسق الدامي بلمح البصر . واشتعلت الانوار في نوافذ الدار في مارينو . انشغل بروكوفيتش ، ببدلته الرسمية السوداء وقفازيه الابيضين ومسحته المهيبة اكثر من المعتاد ، في اعداد المائدة لسبعة اشخاص . قبل اسبوع جرت في كنيسة الابرشية الصغيرة ، بهدوء وبدون شهود تقريباً ، مراسيـــم زفاف اركادي وكاتيـــا وزفاف نيكولاي بتروفيتش وفينيتشكا . وفي ذلك اليوم اقام نيكولاي بتروفيتش مأدبـــة توديعيـــة لاخيه الذي ينوى السفر الى موسكو لتصريف بعض الشؤون . اما آنا سيرغييفنا فقد سافرت الى موسكو ايضاً على اثر الزفاف بعد ان انعمت على الزوجين الشابين بسخاء .

في تمام الساعة الثالثة التأم الجمع حول المائدة . اجلسوا ميتيا الى المائدة ايضاً . وقد ظهرت لديه مربية ترتدي قبعة من الديباج المخرم . جلس بافل بتروفيتش بين كاتيا وفينيتشكا واستقر «الزوجان» قرب عروسيهما . لقد تغير اصحابنا هؤلاء في الآونة الاخيرة : فقد بدوا وكأنما اصبحوا اكثر رواء ونضجاً . اما بافل بتروفيتش فهو الوحيد الذي اصيب بهزال ، مما اضفى ،

بالمناسبة ، المزيد من الرشاقة والرصانة على ملامحه المعبرة . . . ثم ان فينيتشكا لم تعد على ما كانت عليه . ارتدت بدلة حريرية جديدة وشدت شريطاً مخملياً عريضاً على شعرها مع سلسلة ذهبية تطوق جيدها . جلست بسكون ووقار ورزانة . فهي رزينة ازاء نفسها وازاء كل ما يحيط بها . كانت تبتسم وكأنما تريد ان تقول : «اعذروني ، فليس الذنب ذنبي» . ولم تكن تبتسم وحدها على هذه الشاكلة . فالآخرون ايضاً كانوا يبتسمون وكأنما هم يعتذرون . لقد كانوا جميعاً يشعرون بشيء من الحرج وبشيء من الحزن ، ولكنهم في الواقع كانوا على احسن حال . كان كل منهم يداري الآخر بحذر مدهش وكأنما اتفقوا جميعاً على تمثيل ملهاة ساذجة . بينما كانت كاتيا اهدأ الجميع : فهي تتطلع الى ما حواليها وادعة اليفة . وكان بامكان المرء ان يلاحظ ان نيكولاي بتروفيتش قد احبها بجنون . وقبيل انتهاء الغداء نهض يحمل قدحاً وتوجه الى بافل بتروفيتش قائلاً :

– انك تتركنا . . . تتركنا ، يا اخي العزيز ، لامد غير طويل طبعاً . ومع ذلك لا يسعني الا ان اقول لك بأنني . . . بأننا . . . وانني بقدر ما اننا . . . الطامة الكبرى في اننا لا نجيد القاء الخطب ! يا اركادي ، هلا تكلمت انت !

– كلا ، يا ابتي ، فأنا لم استعد لذلك .

– وهل تعتقد بأني قد تهيأت جيداً ؟ اسمح لي ، يا اخي ، ان اعانقك واتمنى لك التوفيق ، وعد الينا بأسرع ما يمكن !

تبادل بافل بتروفيتش القبلات مع الجميع دون ان يستثني ميتيا بالطبع . وبالاضافة الى ذلك قبل يد فينيتشكا التي لم تتعود بعدُ على مد يدها بالشكل اللازم . وارتشف القدح الذي ملأوه له من جديد وقال بتنهدة عميقة : «فلتكونوا سعداء يا اصدقائي !» واضاف بالانجليزية Farewell * . لم ينتبه احد الى هذه الكلمة ولكن الجميع تأثروا تأثراً شديداً .

– تكريماً لذكرى بازاروف – همست كاتيا في اذن زوجها وقرعت كأسها بكأسه . ورد عليها اركادي بأن شد على يدها بقوة ، ولكنه لم يتجرأ على رفع هذا النخب بصوت عال .

* وداعا .

تلك هي الخاتمة ، أليس كذلك ؟ ولكن ربما يرغب احد من القراء في معرفة ما يفعله الآن ، الآن بالذات ، كل من شخوص روايتنا . فنحن على استعداد لتلبية رغبته .

تزوجت آنا سيرغييفنا مؤخراً ليس بدافع من الحب ، بل بدافع من المعتقد . وزوجها انسان لبيب للغاية ، قانوني شديد البأس في بلوغ مقاصده العملية ، وهو يتحلى بارادة صلبة وموهبة كلامية رائعة ، وهو انسان طيب وبارد كالثلج ، لا يزال في مقتبل العمر ولكنه سيغدو فيما بعد من الشخصيات الروسية المرموقة . وهما يعيشان في وئام تام ، ومن المحتمل انهما سيتمتعان بالسعادة . . . بل ومن المحتمل انهما سيبلغان الحب .

اما الاميرة خ . . . فقد توفيت وطواها النسيان منذ يوم وفاتها .

وسكن الاب كيرسانوف مع ابنه في مارينو واخذت احوالهما تتحسن . فصار اركادي اقتصادياً غيوراً وغدت «المزرعة» تعود بدخل غير ضئيل واصبح نيكولاي بتروفيتش وسيطاً عقارياً (١٠٦) ، وهو يعمل بكل ما اوتي من قوة ، فيتجول بلا كلل في منطقة عمله ويلقي الخطب المسهبة (كان متمسكاً بالرأي القائل بضرورة «افهام» الفلاحين ، اي تكرار كلمات بعينها طوال الوقت حتى يستولي عليهم الارهاق) ، ومع ذلك ، اذا قلنا الحق ، فهو لم يكن يرضي تماماً لا النبلاء المثقفين الذين يتكلمون عن «الانعتاق» تارةً بلهجة حماسية وتارةً بلهجة سوداوية ولا النبلاء غير المتعلمين الذين يتهجمون بوقاحة على «هَـيذا الانعتاق» . فان نيكولاي بتروفيتش بالنسبة لاولئك وهؤلاء متساهل اكثر من اللازم . اما كاتيا فقد رزقت ولداً اسمته نيكولاي . وصار ميتيا يمشي على نحو ممتاز ويتكلم بطلاقة . ولا تعجب فينيتشكا بأحد ، بعد زوجها وميتيا ، اعجابها بكنتها . وعندما تجلس هذه الى البيانو تستطيع فينيتشكا ان تظل قربها مسرورة طوال النهار .

ونذكر بالمناسبة شيئاً عن بيوتر . فقد تحجر نهائياً بسبب الغباوة والغطرسة وصار يتلفظ الكلمات بغير الصيغة المعتادة . ولكنه تزوج هو الآخر وتسلم صداقاً كبيراً من اهل العروس . وهي ابنة بستاني من سكان المدينة رفضت خطيبين صالحين لمجرد انهما لا يمتلكان ساعة يد . اما بيوتر فكانت لديه جزمة قصيرة لماعة فضلاً عن الساعة .

على مدرج برول (١٠٧) في درزدن بوسعكم ان تروا ، في افضل اوقات النزهة ما بين الثانية والرابعة ، رجلاً في حوالى الخمسين اشيب الشعر كلياً وكأنما يعاني من النقرس ولكنه لا يزال وسيما انيق الملبس ، يتحلى بتلك السمة الخاصة التي لا تتهيأ الا لشخص يتواجد امداً طويلاً في ارقى فئات المجتمع . انه بافل بتروفيتش . غادر موسكو الى الخارج من اجل استعادة صحته وصمم على الاقامة في درزدن حيث يتلاقى اكثر ما يتلاقى مع الانجليز والسياح الروس . كان يسلك مع الانجليز سلوكاً بسيطاً اقرب الى التواضع ، ولكنه يحافظ على كرامته . وكانوا هم يعتبرونه شخصاً مملاً بعض الشيء الا انهم يحترمون فيه رجلاً نبيلاً حقا « a perfect gentleman » . وكان هو اقل تكلفاً مع الروس ، حيث يطلق العنان لحدة طباعه ويسخر مازحاً من نفسه ومنهم ، الا ان ذلك كله يصدر عنه بشكل مقبول تماماً لا يتعارض واصول اللياقة . وهو يتمسك بالنزعة السلافية ، الامر الذي يحظى ، كما هو معروف (بالاحترام والتقدير) * في المجتمع الراقي . انه لا يقرأ شيئاً بالروسية ، ولكن لديه على مكتبه منفضة فضية بشكل خف فلاحي روسي . ثم ان سياحنا يتقاطرون عليه بكل رغبة . وقد تفضل ماتفي ايليتش كوليازين ، الذي اصبح في **المعارضة الموقتة** ، بزيارته وهو في طريقه الى مياه بوهيميا المعدنية . اما السكان المحليون الذين نادراً ما يتقابل معهم ، والحق يقال ، فيكادون يبجلونه تبجيلاً . وما كان بوسع احد ان يحصل على تذكرة الى جوقة البلاط او المسرح والخ . بنفس السهولة والسرعة اللتين يحصل بهما عليها (البارون كيرسانوف) ** . ولا يزال يعمل المعروف على قدر المستطاع ، ولا يزال يخلق ضجة بعض الشيء : فليس عبثاً ان كان في وقت ما كالليث . ولكن حياته غدت عسيرة . . . اكثر عسراً مما يتوقع هو . . . فيكفي لمعرفة ذلك القاء نظرة عليه في الكنيسة الروسية ، حيث يغرق في تأملاته مائلاً الى الجدار في ركن ما دون حراك ، ويعض على شفتيه بمرارة ، ثم يعود الى رشده فجأة ويرسم شارة الصليب على نحو لا يكاد يلحظ . . .

* في الاصل بالفرنسية très distinguè .
** في الاصل بالالمانية der Herr Baron von Kirsanoff

ولقد سافرت كوكشينا هي الاخرى الى الخارج . فهي حالياً في هيديلبرغ تدرس المعمار الذي اكتشفت فيه ، على حد تعبيرها ، قوانين جديدة ، ولم تعد تدرس العلوم الطبيعية . ولا تزال كالسابق تعاشر الطلبة وخصوصاً طلبة الفيزياء والكيمياء الروس الذين تعج بهم هيديلبرغ والذين يدهشون للوهلة الاولى الاساتذة الالمان السذج بنظرتهم الواقعية الى الامور ، كما يدهشون نفس اولئك الاساتذة فيما بعد بتبطرهم التام وكسلهم المطبق . ومع اثنين او ثلاثة من امثال هؤلاء الكيمياويين الذين لا يميزون بين الاوكسجين والآزوت ، ولكنهم مفعمون بالرفض والاعتزاز بالنفس ، ومع يليسيفيتش العظيم في بطرسبورغ ، يتسكع سيتنيكوف الذي يستعد هو الآخر لكي يكون عظيماً ، ويواصل ، على حد قوله ، «قضية» بازاروف . ويقال ان شخصاً ما ضربه مؤخراً ، ولكنه ثأر منه ، حيث لمح في مقالة تافهة مشبوهة دست في مجلة تافهة مشبوهة الى ان ذاك الذي ضربه جبان . وهو يسمي ذلك تهكماً . ولا يزال ابوه متعسفاً ازاءه ، اما زوجته فتعتبره مغفلاً و . . . اديباً .

هناك مقبرة ريفية صغيرة في احد ارجاء روسيا النائية . وهي ، شأنها شأن جميع مقابرنا تقريباً ، ذات منظر كئيب : فقد اعشوشبت من زمان الخنادق المحيطة بها ، وتدلت الصلبان الخشبية الرمادية اللون وصارت تتعفن تحت سقوفها التي كانت مطلية بالاصباغ في غابر الزمان ، وازيحت الالواح الحجرية عن اماكنها جميعا كما لو ان احداً قد دفعها من الاسفل ، وبالكاد تعطي شجرتان منتوفتان او ثلاث ظلالاً شحيحة ، وتجول الاغنام بين القبور دون عائق . . . ولكن بين تلك القبور قبراً لا يمسه انسان ولا يدوسه حيوان . الطيور فقط تحط عليه وتصدح عند الفجر . يحيط به سياج من حديد وقد غرست شوحتان فتيتان عند جانبيه . في هذا القبر يرقد يفغيني بازاروف . ومن قرية غير بعيدة غالباً ما يتردد عليه عجوزان بلغا من العمر عتياً . يسيران بمشيتهما المتثاقلة وهما يسندان بعضهما البعض ، وعندما يقتربان من السياج يهبطان فيركعان على ركبهما ويبكيان بمرارة لأمد طويل ، ولأمد طويل ايضاً يتطلعان بانتباه الى الحجر الصامت

الذي يرقد ابنهما تحته . ويتبادلان بضع كلمات ، وينفضان الغبار عن الحجر ويعدّلان وضعية بعض اغصان الشوحتين ، ويصليان من جديد ولا يقويان على مغادرة هذا المكان الذي يبدو وكأنه اقرب الاماكن الموصلة الى ابنهما ، والى الذكريات المرتبطة به . . . فهل يُعقل ان صلواتهما ودموعهما عقيمة يا ترى؟ وهل يُعقل ان الحب المقدس ، الحب المخلص ، عاجز يا ترى ؟ كلا ! فمهما كان القلب الذى اطبقت عليه ظلمة القبر متحمساً متمرداً خاطئاً ، فان الزهور التي تنمو على ترابه تتطلع الينا مطمئنة بعيونها البريئة : فهي لا تحدثنا فقط عن السكون الابدي ، عن لجة سكون الطبيعة «اللاابالية» ، بل تحدثنا ايضاً عن الرضوان الابدي وعن الحياة اللانهائية . . .

١٨٦٢

بصدد «الآباء والبنون»

كنت استحم على ساحل البحر في مدينة فينتنور الصغيرة بجزيرة وايت في اغسطس ١٨٦٠ ، وعندها تبادرت الى ذهني لاول مرة فكرة «الآباء والبنون» ، هذه القصة التي انتهى بسببها — والى الابد كما يبدو — ميل جيل الشباب الروسي اليّ وحسن موقفهم مني . وقد سمعت وقرأت مرارا في المقالات النقدية بانني ، في مؤلفاتي ، «انطلق من الافكار» او «امرر الافكار» . امتدحني البعض على ذلك ، ولامني البعض الآخر . اما انا فاريد ، بدوري ، ان أؤكد بانني لم احاول مطلقا ان ارسم اية شخصية الا اذا توفر لدي منطلق استند اليه ، ومنطلقي هذا ليس فكرة بل هو شخص حي تضاف اليه العناصر المناسبة وتختلط به تدريجيا . وبما انني لا امتلك قدرا كبيرا من حرية الابتكار ، فانا اشعر دوما بحاجة الى هذه التربة التي اتمكن من السير عليها بثبات . وهذا بالذات ما حدث لقصة «الآباء والبنون» ، فقد استندت في تصوير بطلها الرئيسي بازاروف الى شخصية فعلية لطبيب من الاقاليم اثار دهشتي واعجابي (توفي قبيل عام ١٨٦٠ بقليل) . وقد تجسدت في هذا الانسان الرائع ، في رأيي ، تلك البداية التي ولدت للتو وكانت في دور الاختمار والتي سميت فيما بعد بالنهلستية او الرفض . كان تأثير هذه الشخصية عليّ شديدا للغاية ، ولكنه غير واضح تماماً في الوقت ذاته . فانا نفسي ، في بادئ الامر ، لم اتمكن من فهمه بشكل عميق . فصرت انصت واتطلع باهتمام كبير الى كل ما يحيط بي وكأنني اريد التثبت من صحة احاسيسي . ومما كان يحيرني انني لم اجد في اي نتاج من نتاجاتنا الادبية ولا تلميحا لما كان يلوح امام انظاري ويخيل اليّ في كل مكان ، فاخذ الشك يدب في ذهني : ألست اركض وراء شبح لا غير ؟ واتذكر ان روسيا كان يعيش معي في جزيرة وايت ، وهو يتحلى بذوق رهيف جدا وتقبل رائع لما نعته المرحوم ابولون غريغوريف* «بنفحات العصر» . اطلعته على الافكار التي تشغل بالي ، فعقدت الدهشة لساني عندما سمعته يقول : «اعتقد انك سبق وقدمت نموذجاً من هذا

* شاعر وناقد ادبي روسي (١٨٢٢—١٨٦٤) .

النوع . . . في شخصية رودين ، أليس كذلك ؟» . لم احر جوابا ، فبماذا اجيب ؟ رودين وبازاروف نموذج بشري واحد !

تأثرت بهذه الكلمات لدرجة كبيرة حتى بقيت عدة اسابيع اتحاشى التفكير بما عزمت عليه . ولكنني عندما عدت الى باريس شرعت بالعمل من جديد : فالحبكة قد اختمرت في ذهني شيئا فشيئا . وفي الشتاء كتبت الفصول الاولى ، الا انني اكملت القصة في روسيا ، في الريف ، خلال تموز . وفي الخريف قرأتها على بعض معارفي واجريت بعض التنقيحات والاضافات عليها . وفي اذار ١٨٦٢ نشرت «الآباء والبنون» في مجلة «روسكي فيستنك» («البشير الروسي») .

واقول هنا ، دون الدخول في تفاصيل الاثار التي تركتها هذه القصه ، انني عندما عدت الى بطرسبورغ . . . سمعت آلاف الاصوات تكرر كلمة «نهلستي» . . . وشعرت آنذاك باحاسيس متنوعة ولكنها مرهقة ممضة بقدر واحد . شعرت بالبرود الذي بلغ حد الغضب عند الكثيرين من الذين اعزهم واتعاطف معهم ، وتلقيت التهاني التي تقرب من التقبيل من اناس اكرههم ، من معسكر الاعداء . اربكني ذلك وحيرني . . . وآلمني . لكن ضميري لم يؤنبني : فكنت اعرف جيدا ان موقفي من النموذج الذي ابتدعته موقف نزيه خال من التحيز ضده ، بل هو موقف متعاطف معه * ، فانا احترم رسالة الفنان والاديب لدرجة لا تسمح لي بالافتراء في هذا المجال . ولعل كلمة «احترم» في غير محلها تماما هنا . فانا ، ببساطة ، لا استطيع ، ولا اجيد العمل على نحو آخر . كما لم يكن هناك ما يدفعني الى ذلك . . .

ان السادة النقاد لا يتصورون بشكل صائب تماماً ما يعتمل في نفس الكاتب ولا يعرفون ممَّ تتكون على وجه التحديد افراحه واتراحه ، امانيه وطموحاته ، نجاحاته واخفاقاته . فلا علم لهم ، مثلا ، بتلك المتعة التي يشير اليها غوغول وتتلخص في تعذيب النفس وسوط عيوبها من خلال الشخوص الوهميين الذين يصورهم الكاتب . والنقاد واثقون تماماً من ان الكاتب لا يفعل شيئا غير «تمرير افكاره» من كل بد ، ولا يريدون ان يصدقوا بان تجسيد الحقيقة ، وتصوير واقع الحياة بقوة ودقة ، اعظم

* اسمح لنفسي هنا بايراد المقطع التالي من يومياتي : «الاحد ، ٣٠ يوليو . قبل ساعة ونصف تقريبا فرغت ، اخيراً ، من كتابة روايتي . . . ولا ادري هل ستلقى نجاحاً . ربما ستنهال عليَّ «سوفريمنك» («المعاصر») بسيل من الاهانات بسبب بازاروف ، ولن تصدق بانني كنت ، طوال كتابتي للرواية ، اشعر بميل عفوي نحوه . . .» (ملاحظة تورغينيف) .

سعادة للاديب حتى اذا كانت هذه الحقيقة تتعارض مع ميوله . . . عندما صورت شخصية بازاروف استبعدت من مجال اهتماماته كل ما له علاقة بالفن واضفيت عليه حدة وخشونة في اسلوب الكلام ، ولم يكن ذلك بسبب رغبة هوجاء في اهانة جيل الشباب (! ! !) ، بل بفعل مراقبتي لصاحبي الدكتور د . وامثاله . «تلك هي الصورة التي نشأت عليها الحياة» ، وهذا ما اوحته لي التجربة التي ربما كانت خاطئة ، ولكنها ، وانا ، اكرر ذلك ، تجربة نزيهة . ما كان يلزمني ان افتعل وانتحل ، ولذا توجب علي ان اصور شخصية بازاروف على هذا النحو بالذات . ولم تلعب ميولي الشخصية اي دور بهذا الخصوص . وربما سيدهش الكثيرون من قرائي اذا قلت لهم بانني أؤيد بازاروف في كل معتقداته تقريباً ، ما عدا آراءه في الفن . كل ذلك والبعض يقول بانني التزم جانب «الآباء» . . . مع انني جانبت الحقيقة في تصوير شخصية بافل كيرسانوف وبالغت في عرض نواقصه بصورة كاريكاتورية تقريباً وجعلت منه اضحوكة !

ويكمن سبب سوء الفهم كله ، و«الطامة الكبرى» ، كما يقال ، في ان النموذج الذي عرضته بشخصية بازاروف لم يمر بعد بالاطوار التدريجية التي تمر بها النماذج الادبية عادة . ولم يكن من نصيبه — كما كان من نصيب اونيغين * وبيتشورين ** — عصر كامل من التمجيد والمديح والرضا . فمنذ لحظة ظهور هذا الانسان الجديد — بازاروف — كان موقف المؤلف منه انتقادياً . . . موضوعيا . وهذا ما شوش على الكثيرين . من يدري ؟ ربما كان في ذلك ظلم ان لم نقل خطأ . فان لنموذج بازاروف ، على الاقل ، حقوقا في المديح والرضا بقدر حقوق النماذج التي سبقته . وقد ذكرت توا ان موقف المؤلف من بطل الرواية قد شوش على القارئ . فالقارئ يشعر بالحرج دوما وسرعان ما تستولى عليه الحيرة ، وحتى الكآبة ، عندما يرى المؤلف يعامل الشخصية التي يصورها معاملته لكائن حي ، فيلاحظ ويعرض على الملأ جوانبها الرديئة والجيدة ، والاهم اذا كان المؤلف لا يبدي تعاطفا جليا او نفوراً واضحاً ازاء بطله . والقارئ على استعداد للانسياق وراء الغضب ، اذ يجد نفسه مضطراً الى ان يشق الطريق بنفسه بعد ان اعتاد السير على درب مطروق . وتتبادر الى ذهنه افكار من قبيل : «هذه قضية شاقة ! الكتب موجودة لاجل التسلية وليس لاجهاد الفكر . ثم هل كان من الصعب على المؤلف ان يخبرني كيف افكر بهذه الشخصية كما يفكر فيها هو ؟ !» اما اذا كان موقف المؤلف من تلك الشخصية اقل تحديداً ووضوحاً ، واذا كان المؤلف نفسه لا يدري هل يحب بطله ام لا (كما حدث لي بخصوص بازاروف ، «فالميل العفوي» الذي اشرت اليه في يومياتي لا يعني الحب) فالحال تغدو على اسوأ ما

* بطل ملحمة بوشكين «يفغيني اونيغين» .

** الشخصية الرئيسية في رواية ليرمونتوف «بطل زماننا» .

يكون ! والقارئ مستعد ، عندئذ ، ان ينسب الى مؤلف او يفرض عليه تعاطفا لا وجود له او نفورا لا اساس له ، وذلك لمجرد ان يخرج من حالة «اللاتحديد» المزعجة .

قالت لي سيدة ظريفة بعد ان فرغت من مطالعة كتابي : «العنوان الحقيقي لقصتك هو «لا الآباء ولا البنون» . وانت نفسك نهلستي» . واعرب البعض عن مثل هذا الرأي بشدة اكبر عندما صدرت «الدخان» * . وانا هنا لا اجرؤ على الاعتراض . فلربما كانت هذه السيدة على حق . في مجال التاليف (وانا احكم على ذلك من تجربتي) يفعل المرء ليس ما يريده بل ما يستطيع فعله وبالقدر الذي يوفق فيه . اتصور ان الحكم على النتاجات الادبية ينبغي ان يصدر en gros ** ، وعندما نطالب المؤلف بالنزاهة الكاملة ينبغي ان ننظر الى سائر جوانب نشاطه بهدوء ، ان لم اقل بلاابالية . ورغم رغبتي الشديدة في ارضاء نقادي فانني لا استطيع القول باني مذنب في تجنب النزاهة .

تجمعت لدي بخصوص «الآباء والبنون» طائفة من الرسائل والوثائق الاخرى التي تستحق الاهتمام . وقد لا تخلو المقارنة بينها من فائدة . ففي الوقت الذي يتهمني فيه البعض باهانة جيل الشباب وبالتخلف والظلامية ويقولون لي انهم «يحرقون صوري الفوتوغرافية وسط قهقهة الاحتقار» ، يلومني البعض الآخر غاضبين ، على العكس ، بالتزلف الى نفس جيل الشباب هذا . وكتب لي احدهم قائلا : «انك تزحف عند قدمي بازاروف ! فانت تتظاهر فقط بانك تشجبه ، ولكنك في الواقع تتزلف اليه وتنتظر منه ، كالصدقة ، ابتسامة تافهة !» . . .

وهكذا يا اخواني الشباب ، اوجه كلامي اليكم . اريد ان أقول لكم على لسان غوته معلمنا جميعا :

Greift nur hinein ins volle Menschenleben !
Ein jeder lebt's — nicht vielen ist's bekannt,
Und wo ihr's packt — da ist's interessant !***

---

* صدرت رواية ايفان تورغينيف «الدخان» عام ١٨٦٧ .

** عموما (بالفرنسية) .

*** اغرز يدك (لا استطيع ان اترجم هذا التعبير بشكل افضل) في الداخل ، في اعماق الحياة البشرية ! الجميع يعيشون تلك الحياة ، ولكن ما اقل الذين يعرفونها . وعندما تتشبث بركن منها ستجد المتعة هناك ! (ملاحظة تورغينيف) .

ان قوة هذا «التشبث» ، قوة «تصيد» الحياة هذا ، لا تمنحها الا الموهبة ، ولكن الموهبة لا تكتسب ، ثم ان الموهبة وحدها غير كافية . فلا بد من التفاعل المتواصل مع البيئة التي ينوي الكاتب تجسيدها : لا بد من الصدق ، الصدق الذي لا يرحم ، فيما يخص احاسيس الكاتب الشخصية ، ولا بد من الحرية ، الحرية الكاملة في الآراء والمعتقدات ، ولا بد ، أخيراً ، من التعلم والمعرفة ! . . فالعلم نور ، كما يقول المثل الشعبي ، ولكنه ليس نورا فقط ، انه الحرية ايضاً . ليس هناك ما يحرر الانسان اكثر من المعرفة ، وليس هناك ميدان يحتاج الى الحرية اكثر من ميدان الفن والشعر ، وليس من قبيل الصدفة ان يقال عن الفن حتى في اللغة الرسمية بانه حر «طليق» . فهل يستطيع الانسان ان «يتشبث» بما يحيطه و«يتصيده» اذا كان مقيدا من الداخل ؟ كان بوشكين قد تحسس هذه الحقيقة بعمق . فليس عبثا ان قال في السوناتا الخالدة التي يتعين على كل كاتب مبتدئ ان يحفظها عن ظهر قلب ويتذكرها كالوصية :

سر على طريق الحرية
بهدي العقل الحر . . . *

. . . كلا ، لا يمكن للفنان الحقيقي ان يعيش بدون الصدق ، بدون المعرفة باوسع معاني الكلمة ، في الموقف من نفسه ومن الافكار والانظمة التي يتبناها ، بل وحتى في الموقف من شعبه ومن تاريخ بلاده . لا يمكن العيش بدون هذا الهواء . . .

ايفان تورغينيف
١٨٦٨-١٨٦٩
بادن-بادن

---

* من قصيدة الكسندر بوشكين «ايها الشاعر» ، ١٨٣٠ .